المركز القومي للترجمة

الخَلِيلُ إبرَاهِيم

رحلة إلى جوهر الديانات الثلاث



تأليف: بروس فيلر

ترجمة: نشأت باخوم

مراجعة وتقديم: أحمد هويدى

2219

إن إبراهيم الذي أتوق إليه هو الذي سيكون الجسر بين البشرية والقداسة، الذي يوضح المثال لما يعنيه أن تكون مؤمنًا مخلصًا، ولكنه أيضًا الذي يسلمنا بركة الله على الأرض. وهذا الإبراهيم ينقل نعمة الله عبر أولاده، عبر إسماعيل، عبر إسحق، ثم الذي يملك الكثير من القداسة التي لم تزل متروكة وحية وباقية لدرجة تمكنه من أن يتصدق ببعض منها على كل أعضاء أهل بيته، ومن ثم لأولاده من زوجته الثانية. وهذا الإبراهيم يكون عالمًا بما يكفي لأن يعرف أن أولاده لن يتبنوا دائمًا ولن يحتضنوا الكمال الذي لبركة الله، لن يرقصوا بلا نهاية رقصة ال(kumbaya) حول نار المخيم، سيحاربون، ويقتلون، ويطيرون بالطائرات مخترقين المباني لتفجيرها، ويرسلون القنابل ويزرعونها هنا وهناك، حتى في المدارس، وبصفة عامة يحاولون تشتيت كرم الله وسماحته.

لكن هذا الإبراهيم يؤمن أن أولاده مازالوا يطلبون وجه الله. ما زالوا في حاجة للراحة من شيء أعظم منهم، ما زالوا يتشبثون ببعض الوميض الذي للبشرية، مازالوا يحلمون بلحظة عندما يقفون جنبًا إلى جنب، أحدهما بجانب الآخر، ويصلون من أجل أبيهم المفقود، ومن أجل التركة وميراث السلام بين الأمم الذي كان أول أمر شرعي من السماء.

الغلاف : عبد العزيز السماحي

الخليل إبراهيم

رحلة إلى جوهر الديانات الثلاث

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2219
- الخليل إبراهيم: رحلة إلى جوهر الديانات الثلاث
- بروس فيلر
- نشأت باخوم
- أحمد هويدى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
ABRAHAM: A Journey to the Heart of Three Faiths
By: Bruce Feiler

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الخليل إبراهيم

رحلة إلى جوهر الديانات الثلاث

تأليف: بروس فيلر

ترجمة: نشأت باخوم

مراجعة وتقديم: أحمد هويدى

2016

فيلر، بروس.
الخليل إبراهيم: رحلة إلى جوهر الديانات الثلاث/ تأليف: بروس فيلر؛ ترجمة: نشأت باخوم؛ مراجعة وتقديم: أحمد هويدى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦.
٢٣٦ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٣ ٠٩٠٤ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الديانات المقارنة.
٢ ـ الإسلام والمسيحية.
٣ ـ الإسلام واليهودية.
٤ ـ الخليل إبراهيم عليه السلام.
أ ـ باخوم، نشأت. (مترجم)
ب ـ هويدى، أحمد. (مقدم)
ج ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٥٦٠٣/ ٢٠١٦
I. S. B. N 978 - 977 - 92 - 0904 - 3
ديوى ٢٩١

المحتوى

تقديم المراجع

القصص والأخلاق فى الكتاب المقدس والقرآن فى كتابات المستشرقين وأثرها فى نشأة الحوار بين الأديان الإبراهيمية وتطوره

أ. د. أحمد محمود هويدى

اهتم المستشرقون اهتماما كبيرا ببحث علاقة القرآن الكريم بكل من اليهودية والمسيحية؛ فهناك من تناولها من جانب مقارنة القصص فى القرآن الكريم مع القصص الوارد فى كتب اليهود والنصارى، وهناك من تناول شخصيات بعينها من شخصيات الكتاب المقدس من وجهة نظر قرآنية فقط، بل ذهب البعض للبحث عن الإسلام فى الكتاب المقدس، ونحاول فى هذا التقديم أن نعرض لأعمال بعض المستشرقين المهتمين بمطابقة قصص القرآن بقصص العهدين القديم والجديد، لبعض الأعمال التى تناولت شخصيات من الكتاب المقدس فى ضوء القرآن الكريم ، وذلك بهدف البحث عن المشترك بين الأديان.

أولا : قصص القرآن الكريم وقصص الكتاب المقدس فى كتابات المستشرقين:

تم الاعتراف بعلم الإسلام كعلم مستقل يدرس بمعزل عن الدراسات اللاهوتية منذ منتصف القرن التاسع عشر. وظهرت بدايات الاتجاه العلمى الموضوعى فى كتابات ريتشارد سمون، وهادريان ريلاند، وبيير بايل وى . ى . ى رايسكه(١) وغيرهم. ورغم ظهور هذا الاتجاه العلمى الموضوعى فإن الاتجاه اللاهوتى لا يزال فى عمل عدد غير قليل من المستشرقين.

ونهدف هنا إلى الإشارة إلى أنه ظهرت فى القرن التاسع عشر اتجاهات جديدة مرتبطة بالقرآن الكريم، ولا تزال مستمرة حتى اليوم. ومن أبرز هذه الاتجاهات، ذلك الاتجاه الذى يحاول البحث عن العلاقة بين قصص القرآن

الكريم ، وقصص كتب اليهود والنصارى المقدسة - حسب اعتقادهم - . بدأ هذا الاتجاه بظهور بعض الدراسات المرتبطة بأهل الكتاب فى القرآن الكريم، مثل دراسة سيمون فايل عن التوراة فى القرآن (شتوتجارت ١٨٢٥م) ، ومجموعة مقالات هيرشفيلد (ت١٩٣٤م) (H. Hirschfeld) حول الدراسات اليهودية الإسلامية التى نشرت فى مجلة الفصول اليهودية (١٩١٠-١٩١١م) وكذلك دراسته عن الإسلام واليهودية (المجلة الآشورية ١٩١٢)، ودراسة بومشتارك (A. Baumstark) عن المسيحية واليهودية فى القرآن (مجلة الإسلام ١٩٢٧م)، وكذلك دراسته "مذهب الطبيعة الواحدة النصرانى فى القرآن" (١٩٥٣م). ودراسة إدموند بيك عن الرهبنة المسيحية فى القرآن ١٩٤٦، وغير ذلك كثير.

وتعد هذه الدراسات البداية الأولى لنشأة الدراسات التى تطابق بين القصص فى الكتاب المقدس وبين القصص فى القرآن الكريم. ولم تكن ترجمة القرآن الكريم أو الكتابات السابقة السبب الوحيد لنشأة هذا النمط من الدراسات، بل ساهم فى نشأة هذا الاتجاه وتطوره أيضا، تطور المناهج المرتبطة بالدراسات اللغوية، حيث بدأ ظهور الدراسات اللغوية المقارنة، وظهر علم اللغة المقارن الذى بدأ فى التطور والازدهار وبلغ ذروته فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكان هذا التطور نتيجة استخدام شلايشر (Schleischer) آراء دارون التطورية وتطبيقها فى مجال اللغات، وقد استخدم علماء الدراسات اللغوية المنهج التاريخى فى تفسير الظواهر اللغوية المقارنة[٢]. وحيث إنه خلال هذا القرن كانت لا تزال الرؤى الاستشراقية رؤى شاملة حيث برز غير مستشرق فى أكثر من فرع من فروع الاستشراق ، فقد تأثر المستشرقون العاملون فى مجال الدراسات الدينية وبخاصة أولئك الذين يهتمون فى دراستهم بدراسة علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية من خلال المنهج التاريخى والمنهج المقارن. أما السبب الأخير لظهور هذا الاتجاه وتطوره أنه نشأ كثمرة للاهتمام الأساسى الدائر حول علم "الكتاب المقدس"، الذى ازدهر فى القرن التاسع عشر، وتأثر تأثرا كبيرا بالدراسات الإسلامية وتطورها فى الغرب.

يمثل كتاب المستشرق اليهودى الألمانى أبراهام جايجر "ماذا أخذ محمد من اليهودية؟ "أول كتاب فى العصر الحديث يبحث المطابقة بين نص القرآن الكريم والنصوص اليهودية وخاصة قصص العهد القديم والقصص القرآنى ، علاوة على اعتماده على مصادر يهودية أخرى مثل المدراشيم .يدل على أهمية كتاب جايجر أنه قد أثر فى كل الكتابات التى تناولت بيان التشابه بين الإسلام واليهودية من جانب، أو الإسلام والمسيحية من جانب آخر. ثم قام المستشرق هينرش سباير (H. Speyer) بتقديم عمل مؤلف جامع يتناول فيه قصص الكتاب المقدس فى القرآن الكريم[٢] ، وصدرت طبعته الثانية فى هيلدذهايم (١٩٦١). وواصل المستشرق اليهودى الأمريكى أبراهام كاتش (Abraham I. Katsh) الأسلوب الذى أسسه جايجر وطوره هيرشفيلد.

وتوالى ظهور غير كتاب أو مقال نهجت نهج جايجر وهيرشفيلد وكاتش؛ ومن هذه الأعمال باللغة الألمانية دراسة هيرشفيلد (برلين ١٨٧٨) الذى تناول بحث العناصر اليهودية فى القرآن، ودراسة شابيرو الذى عرض للعناصر الهجادية فى القسم القصصى فى القرآن وصدرت فى فرانكفورت ١٩٠٧.

ورغم أن هذه الدراسات حاولت البحث عن مصادر يهودية للقرآن ، فقد ظهرت بعض الدراسات التى حاولت رد القرآن الكريم إلى عناصر مسيحية، ومن أهم هذه الأعمال عمل ج. ف. جيروك الذى حاول فيه تقديم وصف للعناصر المسيحية فى القرآن الكريم. وتعددت بعد ذلك الدراسات التى حاولت تدعيم هذه النظرية، ومنها على سبيل المثال دراسة كارل آرنس الذى حاول فيها تقديم البرهان على وجود عناصر مسيحية فى القرآن الكريم، وكذلك دراسة ف. ردولف التى حاول فيها ربط القرآن الكريم باليهودية والمسيحية. ثم ظهرت بعض الدراسات الاستشراقية التى حاولت البحث عن مصادر للقرآن الكريم بعيدا عن الكتاب المقدس مثل الدراسة التى قام بها أى. ف. ف. بيشوب ليوضح العلاقة بين لفائف القمران والقرآن الكريم.

ثانيا: نماذج من الكتابات التى تناولت شخصيات من الكتاب المقدس كما يصورها القرآن الكريم :

على عكس الدراسات التى حاولت رد القرآن الكريم إلى مصادر يهودية أو مسيحية ظهرت بعض الكتابات الاستشراقية التى تتناول شخصيات من الكتاب المقدس من وجهة النظر القرآنية. ولا شك أن هناك دوافع كثيرة أدت إلى نشأة هذا الاتجاه وتزايده عند عدد غير قليل من المستشرقين منها:

١- التقدم الهائل فى علم نقد الكتاب المقدس فى الغرب، حيث ظهرت مدرسة تاريخ الأديان فى أعقاب الأبحاث التى قام بها فلهاوزن ومدرسته فى أواخر القرن التاسع عشر، والتى توصلت إلى أن قصص التوراة عمل مجموع من وثائق قديمة[٤]. وقد ترك عمل فلهاوزن ومدرسته انطباعا شكيا لدى كثير من الباحثين الذين توجهوا إلى دراسة حياة تلك الشخصيات من خلال النص القرآنى.

٢- أدت دراسة المقارنات بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس، رغم ما بها من جوانب سلبية، إلى أن اتجه بعض المستشرقين إلى البحث عن تلك الشخصيات كما يصورها القرآن بعيدا عن أسلوب المقارنات والموازنات بهدف الوصول إلى صورة إيجابية لتلك الشخصيات، وذلك بالبحث عما هو مشترك فى الكتب الدينية عن تلك الشخصيات.

٣- ظهور العديد من الكتابات الاستشراقية التى تناولت سيرة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، وخاصة إذا ما قورنت هذه الكتابات كما وكيفا بالدراسات الاستشراقية التى تناولت المطابقة بين قصص العهدين القديم والجديد وقصص القرآن الكريم. ورغم الصورة السلبية عن شخصية النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) فى كتابات بعض المستشرقين، فإن الصور الإيجابية فى كثير من كتابات المستشرقين الذين حاولوا التخلص من الآراء الكنسية المسبقة، واعتمدوا على مصادر إسلامية أساسية خاصة الوصف القرآنى لسمات شخصية النبى، مثل كتابات فرانتز بوهل وتور أندريه ومونتجمرى وات ورودى بارت، علاوة على تحقيق كثير من كتب السيرة وترجمتها إلى بعض اللغات الأوربية.

دفع ذلك بعض الباحثين إلى البحث عن الصورة الحقيقية للديانتين اليهودية والمسيحية فى ضوء القرآن الكريم، وكذلك شخصيات الكتاب المقدس فيه ويمثل ذلك جانبا من جوانب البحث عن المشترك بين الأديان.

وقد تنوعت الدراسات والأبحاث الاستشراقية التى تناولت موقف القرآن الكريم من الديانتين اليهودية والمسيحية، وشخصيات الكتاب المقدس، كما ظهرت بعض الدراسات الاستشراقية التى تحاول البحث عن الإسلام فى الكتابات اليهودية والمسيحية. وقد قام غير مستشرق بدراسة موقف القرآن الكريم من الديانتين اليهودية والمسيحية، وقد احتلت المسيحية مكانة أكبر فى كتابات المستشرقين مقارنة بدراسة اليهودية فى القرآن الكريم. ومن الدراسات التى تناولت وضع المسيحية فى القرآن الكريم دراسة المستشرق الإيطالى بستى - سانى جيوليو التى حاول فيها البحث عن وصف القرآن للرمزية المسيحية والأنماط المسيحية، وكذلك الدراسة التى قام بها يوهان بوم حول كلمة الصلب والاعتراف بالله: الأركان القرآنية كأساس لديانة ما بعد الكتاب المقدس، أما المستشرق المسلم أحمد فون دنفر، فقد قدم دراسة هامة وصف فيها المسيحية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

مقابل هذه الدراسات التى حاولت البحث عن المسيحية كما يصفها القرآن الكريم، فإن هناك كتابات حاولت البحث عن الإسلام فى الكتاب المقدس، ومن هذه الدراسات، تلك الدراسة التى قام بها المستشرق إى. ف. بيشوب عن الإسلام فى المزامير، وأيضا دراسة بيستى التى حاول فيها شرح القرآن فى ضوء المسيحية.

أما عن الدراسات التى تناولت شخصيات من الكتاب المقدس فقد كانت كثيرة ومتنوعة، وقد احتلت شخصيات العهد القديم مساحة أكبر فى الدراسات الاستشراقية عن شخصيات العهد الجديد وهذا نابع بلا شك من أن ذكر أنبياء بنى إسرائيل فى القرآن يحتل مكانة أكبر فى السرد القرآنى عن شخصية المسيح عليه السلام. وقد كانت بعض هذه الدراسات دراسات عامة، مثل دراسة جون بومان التى عرض فيها لبنى إسرائيل فى القرآن الكريم، ودراسة جون والكر عن

شخصيات الكتاب المقدس فى القرآن الكريم. أما عن الدراسات التى تناولت شخصية أو شخصيات محددة، فهناك من المستشرقين من تناول أنبياء بنى إسرائيل فى القرآن الكريم، مثل دراسة هـ .هورست التى عرض فيها لأنبياء بنى إسرائيل فى القرآن الكريم، وتجب الإشارة هنا إلى اختلاف الصورة القرآنية لأنبياء بنى إسرائيل فى القرآن عن فهم العهد القديم لها، ومن الأمثلة على ذلك شخصية داود وسليمان عليهما السلام فقد جمعا طبقا لما ورد فى القرآن الكريم بين النبوة والملك، أما فى العهد القديم فهما ملكان فقط، ولم تتم الإشارة إلى أنهما نبيان. وأما عن الدراسات الاستشراقية التى تناولت شخصيات محددة تلك الدراسة التى قدمها المستشرق س. مكدونوف عن القرآن الكريم وديانة الآباء وتجب الإشارة هنا إلى أمرين: أولهما: أن المقصود بالآباء هنا شخصية إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وثانيهما: تجب الإشارة أيضا إلى اختلاف الوصف القرآنى لشخصيات إبراهيم وإسحاق ويعقوب عن الوصف التوراتى لهذه الشخصيات؛ فطبقا لما جاء فى القرآن الكريم فإن تلك الشخصيات شخصيات نبوية دعت إلى عبادة الإله الواحد، أما فى التوراة فوظيفتهم أشبه بوظيفة شيوخ القبائل، وكانوا موحدين لكنهم لم يدعوا إلى نشر التوحيد بين أقوامهم(٥). ومن أكثر الشخصيات التى تناولتها الدراسات الاستشراقية فى القرآن الكريم شخصية النبى يوسف عليه السلام، ومن هذه الدراسات دراسة تساك أورشليمى الذى تناول قصة يوسف فى القرآن الكريم مركزا على التفسير الفيلولوجى (اللغوى) للقصة. أما أ. هـ. جونس فقد أعطى أهمية للقصة القرآنية على أنها تمثل حوارا دراميا للانفعال الإنسانى والحكمة النبوية، وغير ذلك من الدراسات.

ورغم الدراسات الكثيرة التى تناولت النبى يوسف فى القرآن الكريم، فإن ذلك لا يمكن مقارنته بالدراسات التى تناولت صورة المسيح فى القرآن الكريم، ومن هذه الدراسات دراسة باريندر جيوفرى عن المسيح فى القرآن الكريم. ودراسة أولريش بارتسنى التى تناول فيها صورة المسيح فى الإسلام والمسيحية. وتناول هيكى ريزنن صورة المسيح فى القرآن الكريم، وتعتبر هذه الدراسة من أهم

الدراسات التى تناولت صورة المسيح فى القرآن الكريم حيث تناول موضوعات هامة إلى جانب عرضه لحياة المسيح عليه السلام؛ حيث ناقش تعاليم المسيح كما يعرضها القرآن الكريم ، وناقش قضية رفعه إلى السماء، وذلك فى دراسة له عن صورة المسيح فى القرآن.

ثالثا: أثر الكتابات الاستشراقية فى نشأة الحوار بين الأديان الإبراهمية وتطوره:

رغم اختلاف مناهج المستشرقين ورؤاهم فإنَّ ما يهمنا هنا ظهور فريق من الباحثين يشير ويؤكد إلى أن هناك مصدرا واحدا لهذه الكتب هو الوحى الإلهى مثل المستشرق الألمانى هربرت بوسه. كما ظهر فريق آخر من المستشرقين يؤكد أن اليهودية والمسيحية هما اللتان تأثرتا بالإسلام وليس العكس. وأقصد بالتأثر هنا فى مجالى العقيدة والشعائر فقط وليس فى مجالات أخرى. ومن هؤلاء المستشرقين المستشرق اليهودى نفتالى فيدر الذى تناول توضيح تأثير الإسلام فى العبادات اليهودية. فيوضح أن التأثير الإسلامى فى العبادات اليهودية ظهر بطريقتين: الأولى - باستيعاب عادات تختص بالعبادة لا أساس لها فى التقاليد اليهودية، والثانية - بإحياء عادات قديمة اندثرت من عند اليهود تحت تأثير أسباب معينة(٦)، ثم يعلق على هذه النقطة بقوله: "وهنا يجدر بنا أن نشير على وجه الخصوص إلى ظاهرة هامة وهى أن العادات التى هجرها اليهود بدافع العزلة والابتعاد عن النصرانية ارتدت ثانية إلى اليهود بتأثير من الدين الإسلامى"(٧). ويفهم من قوله وجود عادات يهودية واندثارها ثم عودتها مرة ثانية لليهودية بتأثير من الدين الإسلامى يعنى أساسا العودة إلى الأصول التى فقدت عبر تاريخ اليهودية بابتعادها عن الوحى، وعندما ظهر الإسلام أعلن هذه الأمور مرة ثانية من جديد فاعتنقها اليهود. وهذا يعنى كما قال مؤلف هذا الكتاب وحدة مصدر ديانات الوحى (اليهودية والمسيحية والإسلام). وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فى غير موضع ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله...﴾. ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله ...﴾.

وعلى المستوى العقدى لم تكن اليهودية حتى ظهور الإسلام قد عرفت بناء عقديا متكاملا ومنسقا حتى ظهر الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون الذى قام بوضع أركان الإيمان اليهودية فيما يعرف باسم أركان الإيمان الثلاثة عشر، وال يظهر فيها الأثر الإسلامى بوضوح شديد(٨). وكما فى الأصل الأول على سـ المثال يقول: "أنا أومن إيمانا كاملا بأن الخالق تبارك اسمه، هو الموجد والمدبر لكل المخلوقات. وهو وحده الصانع لكل شىء فيما مضى وفى الوقت الحالى وفيما سيأتى"، فهذا الركن يتنافى مع ما ورد فى التوراة من أنه "فى البدء خلق الله السموات والأرض ...". التى لا يفهم منها بأن الله اختص بقدرة الخلق منذ الأزل وإلى أبد الآبدين، وهذا ما أقره ابن ميمون ، وهو فى هذا الركن متأثر بما جاء فى القرآن الكريم ﴿ولله خلق السموات والأرض﴾، ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

وأما المسيحية فقد تأثرت أيضا بالإسلام، ونشير هنا إلى مثال واحد فقط حدث فى العصر الحديث، حيث نلحظ أن المذهب البروتستانتى قد تأثر فى عقيدته وأفكاره بالدين الإسلامى تأثرا كبيرا. فالمذهب البروتستانتى ينكر استحالة العشاء الربانى، أى استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دم المسيح وحلولهما فى جسم المشترك فى العشاء الربانى، ومن عقائد هذا المذهب أيضا إنكار حق الكنيسة فى منح الغفران واعتبار الغفران مرتبطا بعمل الإنسان وعفو الإله وتوبة العاصى، وإنكار الرهبنة لتحريمها ما هو طبيعى وحلال، وكذلك تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها(٩). فهذه العقائد وغيرها جذورها إسلامية . فكل إنسان مسؤول عن عمله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

لا شك أن مثل هذه الاتجاهات، بالإضافة إلى الدراسات الاستشراقية المرتبطة بالدراسات القرآنية بصورة خاصة وعلى وجه الخصوص ترجمات معانى القرآن الكريم ومقارنة قصص القرآن الكريم بما جاء من قصص مماثلة فى كتب اليهود والنصارى، وكذلك البحث عن شخصيات الكتاب المقدس من وجهة نظر القرآن الكريم، كل ذلك ساعد على وجود اتجاه إيجابى فى الدراسات

الاستشراقية - وهو ما أشرنا إلى بعض منه، وقد ساعد هذا الاتجاه الإيجابى فى نشأة الحوار وتطوره ثم الحديث عن المشترك بين الأديان، وساهم فى ذلك عدة عوامل منها:

١ - اعتناق غير مستشرق للإسلام وكتابته عن الإسلام، وقد ساهم هؤلاء المستشرقون إلى حد كبير فى تغيير كثير من الآراء السلبية التى كانت سائدة حيث إن هؤلاء يكتبون بلغة استشراقية، وبمنهجية علمية موضوعية ولديهم مقدرة على تقديم الإسلام بصورة تناسب العقلية الأوربية، معتمدين على الأدلة العقلية والبراهين القرآنية.

٢- تزايد المهاجرين المسلمين إلى أوربا، وتزايد البعثات من الدول الإسلامية إلى الدول الأوربية وحدوث مناقشات بين بعض هؤلاء المهاجرين والطلاب المبعوثين من جانب وأقرانهم من الغربيين من جانب آخر، بل واستقرار بعض المبعوثين فى الغرب واهتمامهم بما يثيره المستشرقون، مما أدى إلى تزايد التواجد الإسلامى فى أوربا[١٠] ، ودفعهم ذلك إلى دراسة الفكر الغربى واللاهوت المسيحى والديانة اليهودية حتى يتمكنوا من تقديم الإسلام بأسلوب يناسب العقلية الأوربية، ونشير هنا إلى رحمت الله الهندى، والدكتور إسماعيل راجى الفاروقى، وسى شيخ حمزة بوباكير وغيرهم كثير. وقد دعم هؤلاء المهاجرين اهتمام المنظمات الإسلامية مثل منظمة العمل الإسلامى ورابطة العالم الإسلامى التى اهتمت بوجه خاص بالأقليات المسلمة فى دول العالم[١١].

٣- ظهور كثير من ترجمات معانى القرآن الكريم التى تصدر عن جهات إسلامية خاصة مجمع الملك فهد، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، وغير ذلك من المؤسسات الإسلامية . كذلك تصدر كثير من الجهات الرسمية كتبا عن الدين الإسلامى بلغات استشراقية، وهذا لم يكن متوافرا فى السابق أو كان موجودا لكن بصورة ضعيفة.

٤ - تزايد عدد مراكز الدعوة الإسلامية على مستوى العالم، ولا يمكن تجاهل الدور الذى تقوم به الدول الإسلامية التى تقوم بإنشاء كثير من المعاهد والمراكز

الإسلامية فى أوربا وأمريكا، حيث يقدم فى هذه المراكز الإسلام من مصادره الرئيسة من خلال علماء مسلمين وغير مسلمين.

٥ - ظهور عدد غير قليل من المستشرقين الذين تبنوا الدعوة إلى الحوار والبحث عن المشترك بين الأديان ويعتبر المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون - رغم التحفظ على بعض آرائه - من أوائل المستشرقين الذين تبنوا منهج الحوار بدلا من منهج تنصير المسلمين ، ونشأ عن ذلك أن كرست العديد من المؤسسات الكنسية بطوائفها المختلفة نفسها لتطوير هذا الاتجاه حتى أصدر مجمع الفاتيكان الثانى فى ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥ بيانا حول علاقة الكنيسة بالديانات غير النصرانية ومن بين ما ورد فى هذا البيان تخصيص دعوة الكاثوليك إلى اتخاذ موقف أخوى تجاه الديانات غير النصرانية[١٢]، وهذا الموقف قد سبقه القرآن ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾، كما دعا الفاتيكان إلى التنديد بأى دعوة تدعو إلى التفريق بين البشر سواء فى الجنس أو اللون، ويحب المرء لوضعه ودينه[١٣] وهذه الدعوة أساسها دينى؛ وجد فى القرآن والحديث النبوى ما يشير إلى ذلك " لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى". وهنا تجب الإشارة إلى أن هذا التطور من المؤكد أن واضعيه قد تأثروا بما ورد فى القرآن الكريم ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات ١١).

٦ - ومن العوامل التى ساعدت على تطور الحوار والبحث عن المشترك بين الأديان أنه تأسست فى الغرب معاهد ومؤسسات تعطى أهمية للحوار مثل مؤسسة معهد هارتفورد ومؤسسة كونراد أدناور، والهدف من ذلك أن يكون الحوار بناء وقائما على المعرفة الصحيحة.

ولكى ينجح الحوار والبحث عن المشترك بين الاديان هناك عدة عوامل منها:

١ - من الضرورى تعميق معرفة كل طرف للآخر من خلال مصادره الأصلية، وأن تتجنب المناهج الدراسية والكتب الثقافية ووسائل الإعلام وغيرها الهجوم على أى دين من الأديان مع ضرورة الاهتمام بتدريس كل ما هو مشترك بين

الأديان. والقرآن الكريم قد وضح للمسلمين هذا المنهج ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾، أى يوجد عند المسلمين التزام شرعى بعدم الإساءة إلى أهل الكتاب، ويجب علينا أن نفرق بين أهل الكتاب وبين الصهيونية والعلمانية وما شابه ذلك من حركات واتجاهات هدامة لكل الأديان، ونقدم هنا مثالا واحدا من كتابات المسلمين الذين قدموا دراسات علمية موضوعية عن أهل الكتاب ونقصد بذلك كتاب الشهرستانى الذى قدم تحليلا علميا موضوعيا للأديان.

٢ ـ إن من أسس نجاح الحوار المشترك بين الأديان أن الإسلام يقر ويعترف بكل من اليهودية والمسيحية ويدعو المسلمين إلى احترام أنبيائهم وكتبهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى مواضع كثيرة، ويجب على المسلمين اتباع ما جاء فى القرآن الكريم وعدم الهجوم على الأديان الكتابية. ومقابل ذلك لا يوجد نص فى الكتاب المقدس يدعو أتباعه إلى الاعتراف بالإسلام، غير أن الكنيسة بدأت خطوات فى هذا الاتجاه ويجب تنامى هذا الاتجاه، وألا يكون كلاما بل يجب أن يكون تطبيقيا عمليا. فإذا ما أصبح هناك فى الجانبين احترام متبادل تطبيقى وليس كلاميا، فإن ذلك يؤدى إلى الاحترام المتبادل. والواقع أثبت أنه على مر التاريخ كان المسلمون أقدر من الغرب على التعايش مع أهل الديانات الأخرى، وتجارب التاريخ تؤكد ذلك، والفرق كبير بين تعامل المسلمين مع البلاد التى فتحوها وبين تعامل النصارى مع البلاد التى استولوا عليها(١٤).

٣ ـ أن يركز الحوار المشترك على الجوانب المشتركة بين الأديان خاصة ما تدعو إليه ديانات الوحى من أخلاق فاضلة وسلوك قويم وتعايش فى سلام بين الأمم والشعوب، وألا نتناقش فى أمور خلافية تؤدى إلى الانشقاق والانقسام.

وإذا كانت هذه هى الأسباب التى أدت إلى نشأة الحوار وتطوره فى الغرب والبحث عن المشترك بين الأديان، فيجب على المسلمين أمور كثيرة منها:

١ ـ أن تنشأ فى الجامعات العربية والإسلامية، وخاصة كليات الدعوة أقسام تدرس الفكر الغربى من مصادره، وكذلك دراسة علم نقد الكتاب المقدس بهدف التعرف على آراء الباحثين والعلماء حول هذا النص، والاستفادة من آرائهم فى

بيان أن القرآن الكريم قد سبقهم فى إثبات ابتعاد الكتاب المقدس عن مصدره الإلهى والبحث عن ما هو مشترك بين الأديان وتعميقه؛ ومن أمثلة ذلك البحث عن القيم الأخلاقية والفضيلة التى تدعو إليها الأديان ومن أمثلة ما هو مشترك بين الأديان ويجب التركيز عليه إكرام الوالدين والنهى عن الزنا والقتل والغش والكذب وأكل مال اليتيم والدفاع عن الأرامل ومعاملة الأجنبى معاملة حسنة...؛ والقائمة طويلة جدا.

٢ ـ يجب الاهتمام أيضا فى جامعاتنا العربية والإسلامية وخاصة كليات الدعوة بتدريس اللغات الأجنبية وإعداد دعاة متخصصين فى الدعوة بلغات استشراقية وغير استشراقية حتى يمكنهم الحديث عن الإسلام بلغة بلاد الاستشراق والدخول فى مجال الحوار وتقديم كل ما هو مشترك بين الأديان.

٣ ـ يجب الاهتمام على المستوى الرسمى والشعبى بإعداد معاهد ومؤسسات تعنى بالحوار المشترك وكيفية إدارة الحوار مع الآخر بناء على ما ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك على غرار ما يقوم به الغرب من إعداد جيل من الشباب لكيفية الحوار وتقديم ما هو مشترك مع غير المسيحيين.

٤ ـ أن يقوم علماء مسلمون ممن يشهد لهم بالكفاءة الدينية والعلمية بنشر مقالات عن أسس الحوار وكل ما هو مشترك بين القرآن الكريم وبين كتب اليهود والنصارى ، وتوضيح أن القرآن الكريم يدعونا إلى الاعتراف بالآخر، واحترام عقيدته، وأننا مأمورون بذلك من رب العالمين، وليس نتيجة ضغوط بشرية، وأن تنشر هذه المقالات بلغات الشعوب الإسلامية واللغات الاستشراقية، أو تأسيس مجلة تتبع إحدى المنظمات الإسلامية العالمية يكون هدفها الأساسى نشر هذه القضايا .

٥ ـ يجب أن تضم لجان الحوار المشترك التى تنظمها دول أو مؤسسات إسلامية علماء يتقنون أكثر من لغة من لغات الاستشراق، وألا نعتمد على مترجمين، وأن يكون هؤلاء العلماء على دراية كاملة بالمنهج القرآنى فى الحوار مع الآخر، وأن يكونوا قد تم إعدادا علميا جيدا فى مجال دراسة اليهودية والمسيحية

من مصادرهما أى دراسة كتب اليهود والنصارى فى لغاتها الأصلية، ودراسة حركة نقد الكتاب المقدس والتعرف على النتائج الرئيسية التى توصل إليها العلماء فى الغرب.

رابعا: الأخلاق نموذجا للحوار المشترك بين الأديان الإبراهيمية:

يقوم كل دين من الأديان الإبراهيمية على قاعدتين أساسيتين، هما العقيدة والشريعة. وتمثل العقيدة الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شىء، والمقصود بالإيمان هنا أن يكون إيمانا خالصا لا شبهة فيه ولا شك ، أما الشريعة فهى تمثل النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه فى علاقته مع الله، وعلاقته بأخيه فى الدين، وعلاقته بأخيه الإنسان، وكذلك علاقته بالكون والحياة(١٥).

ومن الضرورى فى هذا السياق أن نؤكد أن العقيدة شىء خاص بين الإنسان وربه، وجاء فى القرآن أن الله سوف يفصل بين الجميع يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى﴾. وهذا يعنى بوضوح أن لكل إنسان معتقده، والكل يرى أنه على صواب، وبما أنه لم يستطع أصحاب أى دين فرض عقيدتهم على الآخرين، فإن الله هو الذى يفصل بين الجميع. وإذا نظرنا للأمر على هذا النحو فيجب علينا أن نترك أمر العقيدة، ولا نتحاور حوله، ونركز على ما هو مشترك أخلاقى بين أصحاب الأديان الإبراهيمية بصفة خاصة، وبين الأديان الإبراهيمية وغيرها من الأديان والفلسفات الأخرى بصورة عامة.

وقد ذكرنا من قبل المشترك من القصص وكيف أثر فى نشأة الحوار وتطوره ونركز فى الصفحات التالية على بعض ما هو مشترك أخلاقى بين الأديان الإبراهيمية، التى نرى أنها أساسية فى إثراء الحوار والتقريب بين أتباع الأديان الإبراهيمية بهدف نشر الحب والمحبة، والتعاون والإخاء بيننا جميعا لكى نرتقى بهذا العالم الذى كثرت فيه المفاسد الأخلاقية، والمظالم الاجتماعية والاقتصادية، نتيجة البعد عن الأسس الأخلاقية التى رسمتها الأديان الإبراهيمية.

وحيث إن أسفار العهد القديم هى إرث يهودى مسيحى مشترك فسوف نتحدث هنا عن بعض المبادئ الأخلاقية كما تعكسها أسفار التوراة فى صورتها الحالية، وتم تأكيدها والتركيز عليها فى أسفار الأنبياء. ثم نؤكد على هذه المبادئ الأخلاقية كما وردت فى القرآن الكريم. وتجب الإشارة هنا إلى أن التشابه فى المبادئ الأخلاقية بين الأديان الإبراهيمية لا يعنى بأى حال من الأحوال أن دينا استقى مادته من دين آخر، أو أن الدين المتأخر اقتبس من الدين الأقدم، إنما يعنى ذلك فى المقام الأول وحدة الرسالات الإلهية ووحدة المصدر(١٦)، فمصدر هذه الأديان جميعها هو الله الذى بلغ هذه المبادئ والأسس الأخلاقية لرسله عن طريق الوحى، وقام الرسل والأنبياء بدورهم بتبليغها للبشرية.

إذا نظرنا إلى أسفار التوراة - نجد أن الوصايا العشر فى صورتيها (الخروج ٢٠، والتثنية ٥) - تركز فى قسم كبير منها على الجانب الأخلاقى فهى تشتمل على النهى عن القتل والسرقة والزنا، وتشتمل أيضا على النهى عن شهادة الزور، وعدم القسم بالباطل، كما تؤكد الوصايا العشر على احترام الوالدين، وعدم النظر لما عند الآخرين "لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، احترم أباك وأمك حتى يطول عمرك"(الخروج ٢٠).

هذا بالإضافة إلى الكثير من الوصايا الأخلاقية التى وردت فى المجموعات القانونية فى أسفار التوراة، نقصد مجموعة قوانين سفر العهد (الخروج ٢١- ٢٣)، والقوانين التثنوية (التثنية ١٢- ٢٦) وقانون القداسة (اللاويين ١٦- ٢٦). فمن المبادئ الأخلاقية العامة فى هذه القوانين النهى عن القتل العمد، والتفريق بين عقوبة القتل العمد وغير العمد، فعقوبة الأول القتل، وعقوبة الثانى إبعاد القاتل حتى يتم بحث الأسباب والدوافع، وهنا يبرز مبدأ التعويض (الخروج ٢١: ١٢- ١٣). كما أنه توجد تفاصيل كثيرة حول السرقة، فالسارق عندما يمسك به فإنه يغرم أحيانا أربعة أو خمسة أضعاف ما سرق طبقا لنوع السرقة. ومن المبادئ الأخلاقية حفظ الأمانات وردها إلى أصحابها، وإن سرقت فإن المؤتمن يقسم بأنه لم يمد يده إليها، أى يبرئ نفسه من سرقتها، وتشير المبادئ الأخلاقية إلى

عقوبة قتل الزانى. بل نجد الدعوة إلى عدم كشف العورات (اللاويين ٢٠: ١٠، ١١، ٩١، ١٢) . ومن المبادئ الأخلاقية أيضا الدعوة إلى عدم اضطهاد الغريب ومضايقته، وعدم الإساءة إلى الأرامل أو اليتامى، ومن يفعل تكن عقوبته غضب الرب، وربما تصل إلى عقوبة القتل. وتشمل المبادئ الأخلاقية كذلك الدعوة إلى التحقق من الخبر وعدم قبول أى خبر كاذب أو الوشاية بين أفراد المجتمع، وعدم التعامل مع المنافق، والدعوة إلى العدل فى القضاء، والنهى عن شهادة الظلم، بل نجد الدعوة إلى وجود أكثر من شاهد وعدم الاكتفاء بشاهد واحد (التثنية ١٩: ١٥- ١٦). وكذلك نجد الدعوة إلى عدم الغش فى المكاييل والموازين.

هذه بعض النماذج من المبادئ والأسس الأخلاقية فى أسفار التوراة، وإذا عدنا إلى أسفار الأنبياء ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد، سوف نجد أن تركيزهم كان على الجانب الأخلاقى أكثر من تركيزهم على الجانب العقدى، بل إنهم أشاروا إلى أن الأسباب التى أدت إلى زوال ملك بنى إسرائيل تتمثل فى المقام الأول فى المفاسد الأخلاقية التى انتشرت بين جماعة بنى إسرائيل. فكان توبيخهم يقوم فى الأساس على الجوانب الأخلاقية؛ فالنبى عاموس مثلا يؤكد على أن خلاص إسرائيل لن يتحقق إلا من خلال العمل الأخلاقى، ولذلك يدعو جماعة بنى إسرائيل قائلا: "اطلبوا الخير لا الشر... أبغضوا الشر، وأحبوا الخير، وثبتوا الحق، وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم" (عاموس ٥: ١٤- ١٥، ٢٤). والنبى هوشع يؤكد أن الدمار سوف يحل بإسرائيل بسبب المفاسد الأخلاقية حيث انتشر فى عصره عدم الأمانة، وكثر الكذب، وتفشى الغش والزور (هوشع ٤: ١- ٢). ويضيف النبى إشعيا إلى هذه الأخطاء الأخلاقية طائفة أخرى من الأخطاء متمثلة فى اضطهاد الفقير وقبول الرشوة وسفك الدماء وانتشار الزنا، علاوة على خطيئة التكبر والتفاخر (إشعيا ١: ٢١- ٢٣؛ ٣: ١٦)، والسبيل الوحيد لتجنب الدمار وإنقاذ جماعة بنى إسرائيل يكون من خلال التمسك بالمبادئ والأسس الأخلاقية ، فيقول: "تعلموا فعل الخير ... اطلبوا الحق ... أنصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة...".

وينبغى أن أشير وأؤكد هنا أن إصلاح الأخلاق ضرورى، والتوراة وأسفار الأنبياء تركز على الجانب الأخلاقى ، بل إن الأخلاق هى أساس العبادة الصحيحة، فالسلوك الأخلاقى السليم يؤدى إلى نقاء العبادة، بمعنى أنه من الضرورى ربط العبادة بالسلوك الأخلاقى فكل منهما مكمل للآخر، فالعبادة دون أخلاق سليمة لا قيمة لها، ويجب تطابق السلوك مع العبادة، ويظهر ذلك بصورة واضحة فى مجموعة البركات واللعنات المشار إليها فى سفر التثنية الإصحاحين ٢٧ـ ٢٨.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم، نجد كثيرا من الآيات القرآنية تدعو إلى السلوك الأخلاقى القويم، وتعد الآيات القرآنية ٢٣ـ ٣٨ من سورة الإسراء أبرز نموذج شامل للمبادئ الأخلاقية ، ففى هذه الآيات أمر للإنسان باحترام الوالدين (وبالوالدين إحسانا) وفيها النهى عن القتل (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق)، ويفهم هنا أنه يجوز القتل فى حال القصاص على سبيل المثال، وقد أشارت التوراة إلى أن القتل العمد جزاؤه القتل. ويعطى القرآن الكريم أهمية خاصة لليتيم فيدعو إلى الحفاظ على حقوقه (وآتوا اليتامى أموالهم)، (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) بل يدعو إلى عدم الاقتراب من أموالهم (ولا تقربوا مال اليتيم) ثم يدعو القرآن إلى عدم القسوة معهم (فأما اليتيم فلا تقهر). ووجدنا مثل هذه الصور فى التوراة وكتابات الأنبياء.

ويؤكد القرآن الكريم على حفظ العهود، وكذلك حفظ الأمانات وردها إلى أهلها (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها). وينهى القرآن عن النظر إلى ما عند الغير (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) ويأمر القرآن بالعدل ويحذر من الظلم (وإذا قلتم فاعدلوا) وينهى عن شهادة الزور (واجتنبوا قول الزور) ويحذر أيضا من الرشوة (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم) كما يحذر كذلك من الأخذ بالظن (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم).

ويدعو القرآن الإنسان إلى عدم التفاخر والكبر (ولا تمش فى الأرض مرحا) ويوصى القرآن بحسن معاملة الجار (والجار ذى القربى والجار الجنب)، ثم يدعو

الإنسان إلى عدم السخرية من الناس (....لا يسخر قوم من قوم ... ولا تنابذوا بالألقاب)، وينهى القرآن عن الزنا (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة...).

وأخيرا وليس آخرًا فإن الكتاب الذى بين أيدينا يمثل نموذجا جيدا على تبنى الحوار بين الأديان الإبراهيمية. وقد انتهج مؤلف الكتاب منهجا علميا وصفيا استطاع من خلاله أن يقدم لنا شخصية إبراهيم عليه السلام، كما يفهمها أتباع الديانات الإبراهيمية. فجمع النصوص وسأل بعض علماء هذه الأديان للتعرف على حقيقة هذه الأديان، ونقل هذه الآراء كما سمعها وفهمها. وقد صاغ المؤلف كتابه على شكل حوار بينه وبين من قابلهم من علماء هذه الأديان. وقد كان علميا وموضوعيا إلى حد كبير فقد تكبد المؤلف مشقة السفر لبعض الأماكن التى تنقل بينها إبراهيم فى محاولة منه للتعرف عن كثب على شخصية إبراهيم وهويته وقيمته عند المؤمنين به. ويذكرنا هذا المؤلف بالمنهج والأسلوب الذى انتهجه البيرونى فى مؤلفه الأبرز "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة". وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى الأستاذ نشأت باخوم على جهده فى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

الهوامش :

١ ـ شاخت وبوزورث (مصنفان) تراث الإسلام، القسم الأول، ترجمة د. محمد زهير السمهورى، تعليق وتحقيق د. شاكر مصطفى، مراجعة د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٨، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، الكويت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨، ص ٦٥، محمود حمدى زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، ط٢ ،كتاب الأمة، العدد ٥، رجب ١٤٠٥ـ أبريل ١٩٨٥، ص ٣٢ـ ٣٤.

٢ ـ د. محمود فهمى حجازى: علم اللغة العربى ، مدخل تاريخى مقارن ، فى ضوء التراث واللغات السامية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٢٩ .

٣ ـ المرجع السابق: ص٨٥.

٤ ـ زالمان شازار: تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث، ترجمة أحمد محمود هويدى، مراجعة محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، عدد ٢٠٤، ص ١٢٨ ـ ١٤٨ .

٥ ـ د. أحمد محمود هويدى: تاريخ الآباء وديانتهم فى ضوء نظرية مصادر التوراة، حيث يعرض الباحث لموقف سفر التكوين من تلك الشخصيات، ووجود مصدر من مصادر التوراة أقرب إلى الرؤية القرآنية.

٦ ـ المصدر السابق: ص ١١ـ ١٢.

٧ ـ المصدر السابق : ص ١٢ .

٨ ـ محمد خليفة حسن: تاريخ الديانة اليهودية، دار الثقافة العربية، ص ٢٠١ . حسن ظاظا: الفكر الدينى الإسرائيلى أطواره ومذاهبه، مكتبة سعيد رأفت، ص ١٥٩ ـ ١٦٤ .

٩ ـ الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية، مكتبة وهبة، ص ٢٠٥. محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان: دراسة وصفية مقارنة، القاهرة. ٢٠٠٠ ، ص ٢٣٦ .

١٠ ـ صدرت دراسة هامة حول وضع الأقليات المسلمة فى العالم؛ ومن بينها الأقليات المسلمة فى العالم، انظر:

M.Ali Kettani;Muslim Minorities in the World Today, London 1986

١١ ـ تعتبر دراسة يوهانس رايسسنر من الدراسات الهامة التى تتحدث عن المؤسسات الإسلامية الدولية وعلاقتها بالأقليات المسلمة فى أوربا ، انظر Johannes Reissner ; Internationale islamische organsationen ، وهى مقالة نشرت فى كتاب الإسلام فى العصر الحالى تحرير فيرنر إنده وأودوشتاينباخ ، ميونخ ١٩٨٣ .

١٢ ـ انظر عن ذلك Heribert Busse ص : ١٦٨ ـ ١٧٠.

١٣ ـ المرجع السابق : ص ١٦٦ـ ١٦٧.

١٤ ـ المرجع السابق: ص ١٤٥-١٥٧ .

١٥ ـ محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، الطبعة السادسة عشرة، دار الشروق، القاهرة ١٤١٠ ـ١٩٩٠، ص ١٠ ـ ١١.

١٦ ـ محمود شلتوت: ص ٢٤ ـ ٢٥، Heribert Busse .

إبراهيم

إهداء

إلى

جيسيكا كورن

وماكس ستير

فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك

وتكون بركة

وأبارك مباركيك

ولاعنك ألعنه

وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض

تكوين 12: 2-3

صخرة إبراهيم

الموطن

ها هم يشرعون فى السير بعد الفجر مباشرة. يتدفقون عبر الشوارع، بادئين فى تسلق التلال وفى إلقاء بعض من العملات النقدية فى الأكف الممدودة لأصحابها المعوزين. يهجرون منازلهم وحياتهم وجيرانهم ويأتون بأنفسهم فرادى أو فى جماعات مثنى أو ثلاث. رؤوسهم متشحة وعيونهم خاشعة. يشعرون بالوحدة والتوحد. ولكن عندما يعبرون البوابات ويرفعون عيونهم ليجدوا أنفسهم بصورة مفاجئة فى مكان ساطع منير لامع؛ مكان مألوف وعائلى أيضا. إنهم فى موطنهم. ليس هناك من يشعر بالوحدة فى أورشليم: حتى الحجارة تعرف من هو أبوك.

تتفرق تلك الحشود المتدفقة فور دخولها. يتحول المسيحيون تجاه المشرق؛ فاليوم هو الجمعة الأخيرة قبل الميلاد، وفى هذا المساء سيقود الرهبان موكبا جنائزيا حزينا حاملين الصلبان نازلين فى طريق الجلجثة. ويتحول اليهود إلى الجنوب؛ فاليوم يوم الجمعة الأخيرة من أيام عيد حانوكا[1] (عيد التجديد للمعبد اليهودى)، وعند الغروب سيقيم الحاخامات مراسم وطقوسا ابتهاجية موقدين ست شمعات على الحائط الغربى. ويتحول المسلمون نحو المشرق؛ فاليوم هو الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وفى المساء سيقوم

(١) يسمى هذا العيد أيضا عيد الأنوار، وعيد الشموع، وعيد المشاعل، ولهذا العيد مناسبة تاريخية هى ذكرى انتصار الحشمونائيم على اليونان وتدشين هيكل سليمان من جديد عام ١٦٥م. ويحل هذا العيد فى ٢٥ كسيلو العبرى (الذى يقابل شهر ديسمبر) ويستمر ثمانية أيام. ويحتفل بهذا العيد فى إسرائيل على أنه عيد دينى قومى، فتوقد المينورات فى الميادين العامة، وتنظم مواكب من حملة المشاعل وأثناء الاحتفال يصعد آلاف الشبان إلى قلعة المسادا (المراجع).

الأئمة بقيادة جموع المصلين البالغ عددهم حوالى مائتى ألف سيركعون شكرا لله وكأنهم شخص واحد.

- ليس اليوم باليوم الفذ أو الغريب. فما أشبه اليوم بالبارحة. فأورشليم هى المحك الحقيقى للإيمان والعقائد وقد كانت كذلك قبل بدء التاريخ. فأساطير التوحيد واضحة فى شىء واحد: قبل أن يكون هناك تاريخ كان الماء هناك، وغمر الماء الأرض. ثم ظهرت بقعة من اليابسة من وسط الغمر. كانت تلك الأرض هى الصخرة، والصخرة هنا. لقد صلى المسيح هاهنا. وصعد محمد فى إسرائه من هنا.

وجاء إبراهيم إلى هنا ليضحى بابنه. واليوم تمثل الصخرة جاذبية التوحيد، محفورة، قناع متآكل من الحجر الجيرى، شوهد بواسطة عدد قليل من الأحياء اليوم، ولمس بواسطة عدد أقل، مختبئ تحت قبة ذهبية، واكتسب المزيد من القوة بواسطة التوهج الذى يبدو وكأنه يحيطه فى كل ساعة. تقول الأساطير: إن الله أمر أول شعاع من الضوء أن يخرج من تلك الصخرة. خرج الضوء ساطعا وقويا واخترق الظلمة وملأ أرضه المجدة. يبدو الضوء الساطع المرئى فى أورشليم مناسبا ومتناغما ومطابقا لهذا الوصف بصورة كاملة مغسولة بأمطار الشتاء، كما هى فى ذلك الصباح، يكتسى الهواء باللون الذى لضوء الشموع: الأحمر القرنفلى والزعفرانى والوردى ولون الفيروز والياقوت والبرونز. من دواعى السخرية الشديدة أن يكتسى النور بكل تلك الألوان بينما يرتدى العباد الحجيج الأبيض والأسود فى معظم الأحيان، كما لو كانوا قد اتفقوا على تحقيق الغنى الذى للمصدر والأصل والمنشأ.

ما يهمنا فى المقام الأول هو لماذا يأتون؟ فالصخرة تعتبر صرة العالم ومركزه والعالم غالبا ما يبدو أنه يريد أن يزحف عبر هذا الثقب ويدخل مرة أخرى من حيث خرج. كما قال لى عالم الآثار وصديقى ورفيق رحلتى أفنر جورين Avner Goren بينما كنا نسرع عابرين الشوارع ومتسلقين ربوة عالية تشرف على المدينة، "أن تعيش فى أورشليم يجعلك تشعر بأنك حى بصورة محسوسة وتشعر بأنك أنت نفسك. إنه شرف ولكنه عبء وحمل ثقيل أيضا".

قف هنا، يمكنك أن ترى الخلود. قف هنا، يمكنك أن تلمس أصل الكون ومصدره. قف هاهنا، يمكنك أن تشتم رائحة اللحم المحترق.

فى منتصف الصباح يمتص انفجار الحياة وينتزعها انتزاعا ويبتلعها من الهواء. وأستدير أنا بدورى نحو أفنر: "قنبلة؟ صوت انفجار؟" يرد قائلا: "إنها ليست طائرة". يخترق إطلاق النار الهواء ويحدث دويا. تزعق وتنعق صفارات الإنذار مدوية. تصبح تلك المشية الراسخة المتئدة عرضا للنظرات المترقبة الغاضبة. يتحول كل شىء إلى إثارة واستفزاز. كل حجر ما هو إلا خطر كامن وسلاح نائم. يحوم الرجال بأسلحتهم ورشاشاتهم الآلية وأجهزة اللاسلكى المعلقة على آذانهم وسجائرهم المدلاة. يتوقف أفنر ليسلم معانقا أحد السكان العرب وهو صاحب محل. يقول عبدول معلقا: "إننا اليوم غاضبون، إن أكثر ما نخشاه أن يقوم الجنود الإسرائيليون بإثارة بعض الشباب ما يؤدى إلى اندلاع المواجهات وتفجر الموقف. دائما ما تكون المواجهات فى رمضان هى الأسوأ ويكون العنف هو الأشد".

من هنا ومن أعلى شرفة إحدى المدارس الثانوية اليهودية حيث جلسنا نراقب تطور اليوم، أتى ولد فى سن المراهقة فى ملابس سوداء ويدعى يشوع ليشاهد الحشود الإسلامية. سمعته يقول: "إننى أقدر حقيقة كونهم مؤمنين ومتدينين، وكونهم يعبدون نفس الإله الذى نعبده. ولكن كون تلك الصلوات التى من شأنها أن تعرض حياتى للخطر - حجارة وسكاكين وقتل لرجال الشرطة وإثارة للدم والكراهية والقتل. فذاك اليوم فقط بينما كنت أسير فى المدينة سمعت صوت انفجار. استدرت وفررت ثم كان هناك انفجار آخر. بدأت فى الجرى فى الاتجاه الآخر وعندها انفجرت السيارة المفخخة. كنت أقبض بقوة على معدتى. كنت أشعر بالغثيان وأنى على وشك التقيؤ. كانت تلك أول مرة أفكر فيها بحق أنه يمكن أن يحدث لى مكروه".

تقول الأساطير: إن الحكمة والألم يشكلان عمودى الحياة. فالله جعل تلك الصفات فى قمعين متماثلين مخروطى الشكل ثم يجاور بينهما عند طرفيهما لكى ما تلتقى هوة الألم بجسم المعرفة. والنقطة التى يتلامس فيها كلا القمعين تكون مركز الكون. تلك النقطة هى الصخرة وهى فى المكان الذى تاق الملك داود(*) بشدة لبناء قصر السلام فيه. ولكن داود أخطأ: فقد حرك الصخرة وبعمله هذا حرك مياه الأعماق. وأعلنت الصخرة قائلة: "لا يمكنك نقلى ولا تحريكى؛ فقد تم وضعى هاهنا لأحجز الهاوية خلفى".

تساءل داود: "منذ متى؟"

منذ أن أعلن الله "أنا هو الرب الإله"

حفر داود اسم الرب على الصخرة وأعادها إلى موضعها. انحسر القمر. المحك بحق هو القمة: أبعده عن موضعه وسيندفع الموت بقوة للأمام.

يسود المكان هدوء حذر؛ ذلك الهدوء الذى يسبق العاصفة وذلك فى الوقت بين الصبح والظهيرة. نطل أنا وأفنر على الخمسة والثلاثين فدانا التى يغطيها الحجر اللوحى والتى تشكل ساحة الحرم الشريف. فى طرفها الجنوبى يقف المسجد الأقصى وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين عند المسلمين. وفى الشمال توجد قبة الصخرة الرائعة، بناء مثمن الزوايا والأضلاع من أزرق الكوبالت تم بناؤه فوق الصخرة وتم تتويجه بقبة مصفحة بصفائح نحاسية مطلية بالذهب أربعة وعشرين قيراطا تطل على الأفق المسكونى لأورشليم. وفى الأعلى جبل الزيتون وعنقود الكنائس الذى يذكر بخطى المسيح الأخيرة. وفى الأسفل البقايا المنحدرة لمحيط المعبد الثانى المعظم والمكرم كالسور الغربى، فالحقيقة الروحية المعروفة والمؤكدة عن أورشليم هى أنها: أية مشاهد وأية زاوية للكاميرا وأى سجدة أو ركعة تلك التى تحوى واحدا من تلك الأماكن المقدسة سيتضمن بالضرورة واحدا على الأقل من مقدسات الآخرين.

(*) ينظر الكتاب المقدس إلى نبى الله داود على أنّه ملك، بينما يتكلم عنه القرآن على أنّه نبي ملك. (المحرر).

ولكن لا يمنع هذا الأمر الناس من محاولاتهم المتكررة لمحو وإزالة المواقع الأخرى المنافسة، ففى أى يوم يمكن لأى مراقب أن يقابل مصلين بنوايا مدمرة فى قلوبهم. فها هو يشوع، ذلك الصبى اليهودى الورع الذى يجلس معنا، ماضغا بعض الكعك، يعترف بالوهم قائلا: "إننا نؤمن أن المسيح سيأتى ويعيد بناء الهيكل الثالث وسيأتى كل اليهود وأنا أنظر إلى الجبل وإلى كل هؤلاء المسلمين وأحاول أن أتخيل ذلك".

ونتيجة لمثل تلك الأحلام، فلم نكن وحدنا فى المكان. فقد تم دفعنا للخلف من على السور عن طريق أربعة رجال يرتدون الجينز بأجسام ضخمة ليتسنى لهم مراقبة المشهد عن كثب مستخدمين المناظير. وبنظرة سريعة عبر أسطح المنازل تبرز للناظر هوائيات التلفزيون والأطباق التى لا حصر لها، وتظهر أيضا أعداد لا حصر لها أيضا ممن يراقبون المشهد عن كثب، ربما يتساوى عددهم مع عدد الهوائيات المنتصبة فوق الأسطح. إن كل يوم مقدس إنما ينبئ عن حرب مقدسة.

ولكن يسود المكان إيقاع الصلاة. فباقتراب الظهر، تدفق آلاف المصلين داخلين إلى الحرم الشريف واصطفوا فى صفوف فى ساحته تحت أشجار الصنوبر والنخيل. يؤذن المؤذن وبينما هو ينادى المؤمنين للصلاة تقرع الأجراس فى كنيسة جثسيمانى عازفة ترنيمة عيد الميلاد. لا يبدو أن هناك من لاحظ الاشتباك، وربما لا يكون هناك أى اشتباك على الإطلاق: بل تناغم، فوق كل شىء، هو الذى يضبط ويحكم تنافر النغمات. يبدأ الإمام شيخ المسجد الأقصى فى إلقاء خطبته، ويقوم رئيس الدائرة الأمنية بترجمة المثيرات والمحرضات. اليوم هو يوم أورشليم، عندما تعلن المساجد فى المسكونة كلها دعمها وانحيازها لهذه المدينة المحطمة المدمرة "القدس الشريف".

أخيرا تأتى اللحظة الحاسمة وتصل لحظة الذروة. تنتهى الخطبة، ويصطف موكب المصلين فى صفوف مستقيمة. يقرأ الإمام الفاتحة، ويركعون، ثم ينتصبون واقفين، ويركعون، وتمس جباههم الأرض، وتمسها مرة أخرى، ثم ينهضون. ويصبح الأثر المتصاعد مخيفا ومرعبا كموج فى بحر من لبن: فالناس المصطفون للصلاة فى مكان واحد أكبر كثيرا ممن يمكنهم احتلال معظم المدن. تنبثق وقفة

قصيرة، بعدها يبدأ المد الثانى: انحناء، فوقوف، فركوع، فلمس الجباه بالأرض، بعدها تلاوة لآيات مقدسة. لا إله إلا الله، محمد رسول الله. بعدها يقوم الإمام بالتبريكات: اللهم "صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم".

بعدها تحبس المدينة أنفاسها.

كنت قد اعتدت على القدوم إلى أورشليم بصورة مستمرة فى السنوات الحالية. كانت زياراتى تلك جزءًا من تجربة أوسع فى محاولة لفهم الجذور والأصول التى لهويتى عن طريق العودة للمناظر التى ذكرها الإنجيل، ولروح المكان عله يساعدنى على الفهم. قمت بمعظم تلك الزيارات والأسفار فى أثناء فقاعات السلم النادرة، عندما يكون السفر والتنقل من مكان إلى مكان سهلا وميسرا تقريبا. أما الآن وقد انفجرت تلك الفقاعات، والعالم الذى بدا وكأنه قد اتحد وارتبط معا بواسطة الصرة انحل وتفكك فجأة من حول نفس تلك الصرة وذاك المحور: الشرق والغرب؛ العرب والإسرائيليون؛ اليهود والمسيحيون والمسلمون. بدأت تردد أصداء لكلمات كالرؤيا النبوئية، وصدام الحضارات، والحملات الصليبية وتصدرت عناوين الصحف. كما كان قد قال عبد الله، وهو صاحب محل: "إننا فى حرب عالمية، حرب دينية، تلك التى تدور رحاها على عتبة دارى".

علمتنى تجربتى وخبرتى فى المنطقة بل وأقنعتنى أنه من الممكن ـ وربما من الضرورى ـ لتكوين رؤية حكيمة للموقف الحالى المعاصر بالهروب من الحاضر والابتعاد عنه الحاضر والنظر والتمحيص فى الماضى إلى مصدره التاريخى. خاصة فى الأمور المتعلقة بقضية الإيمان والمعتقد الدينى، حتى أكثر الأعمال تحضرا وحداثة تمت معرفتها عن طريق دول من مزيج وخليط من الإيمان أو المعتقد، والدم، وسوء الفهم.

وفى هذا الحريق الهائل؛ لأنه لديه ولمدة أربعة آلاف سنة، اسم واحد يتردد صداه خلف كل حوار وحديث. شخص واحد يقف عند كل محاولة لكل جهد لاحق. شخص واحد يمسك اتساع الماضى ـ وربما الأبعاد التى للمستقبل ـ فى قصة حياته.

إنه إبراهيم.

أبو الآباء والمؤسس الأعظم فى الكتاب المقدس العبرى[٢]. وهو أيضا الجد الروحى الذى فى العهد الجديد والمخطط الأعظم فى القرآن. إن إبراهيم هو الجد المشترك لكل من اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وهو محور الصراع العربى الإسرائيلى. وهو واسطة الحرب الدائرة بين الغرب والمتطرفين الإسلاميين. إنه الأب - فى حالات عديدة وأوجه كثيرة، هو الأب البيولوجى الوهمى أو المزعوم - لاثنى عشر مليون يهودى، وبليونى مسيحى، وبليون مسلم فى العالم أجمع. إنه أول موحد عرفه التاريخ(*).

ويعتبر مبهما ومجهولا بصورة عامة وكبيرة.

وددت أن أعرفه. أردت أن أفهم تركته ودعوته. رغبت فى أن أكتشف كيف نجح فى أن يبقى الأصل المعروف لكل هذا العدد الضخم من الأحفاد، حتى وهم منشغلون ومنهمكون فى دفع وإزاحة كل منهم للآخر بعيدا مدعين أنه أبوهم هم فقط. أردت أن أستنتج ما إذا كان مجرد ينبوع يائس للحرب أم وعاء ممكنا وواعدا للمصالحة.

---

(٢) تجدر الإشارة بأن المؤلف يستخدم كلمة Bible بمعنيين. الأول عندما يكون خاصا باليهود، وفى هذه الحالة يترجم الكتاب المقدس العبرى، والثانى: عندما يقصد المفهوم المسيحى، ويترجم فى هذه الحالة الكتاب المقدس فقط. فالمعنى الأول يقصد به الأسفار التى دونت بالعبرية وهى تخص اليهود والمسيحيين، أما المعنى الثانى يقصد به الأسفار التى دونت بالعبرية بالإضافة إلى أسفار العهد الجديد، والتى لا يزال يوجد اختلاف بشأن اللغة الأصلية التى دونت بها أسفار العهد الجديد وتختلف تسمية النص العبرى عند المسيحيين عنها عند اليهود، فاليهود، يطلقون عدة مسميات على كتابهم المقدس منها: المقرا أى النص المقروء، والتناخ حيث تشير حروف التاء والنون والخاء إلى أقسام النص العبرى المقدس. كما يسمى أيضا التوراة من باب إطلاق الجزء على الكل. أما المسيحيون فيطلقون على النص العبرى اسم العهد القديم، مقابل تسمية الأناجيل والرسائل باسم العهد الجديد، ويعرف الاثنان معا باسم الكتاب المقدس. ويرفض اليهود التسمية المسيحية لأنها تعنى أن العهد المعطى لبنى إسرائيل انتهى وحل محله العهد الجديد المعطى لعيسى لذلك آثرنا هنا فى الترجمة الكتاب المقدس العبرى بدلا من التسمية المسيحية. وكذلك المسميات اليهودية المختلفة (المراجع).

(*) ذكر القرآن عدَّة أنبياء قبل إبراهيم كانوا جميعًا على التوحيد، منهم إدريس، ونوح عليهما السلام. (المحرر).

ولكن أين يمكنني أن أجده، فإبراهيم إذا كان موجودا بحق، لم يترك لنا دليلا - فلا مبان ولا سجاد ولا رسائل غرامية لزوجته. مقابلة أناس عرفوه كان شيئا مستحيلا، من الواضح؛ رغم أن نصف الناس الأحياء يدعون أنهم أحفاده وأنهم من نسله. يناقش ويشرح الكتاب المقدس العبرى قصة حياته، ولكن كذلك يفعل العهد الجديد والقرآن أيضا، وغالبا ما يختلفون معا حتى فى مسائل جوهرية وأساسية. إذن فالذهاب إلى أماكن زارها، ستكون مثمرة لى وللآخرين أيضا، ولها أيضا حدودها ومحدوديتها، لأن خط سير إبراهيم ورحلته تغير من جيل إلى جيل ومن دين إلى آخر.

كان على أن أخطط للقيام برحلة غير تقليدية وغير عادية. إذ كانت تجربتى السابقة فى المنطقة قد تضمنت رحلة عبر مكان- ثلاث قارات، وخمس دول، مناطق شهدت أربع حروب - فهذه الرحلة ستكون رحلة عبر الزمان والمكان - ثلاث ديانات، أربعة آلاف سنة، حرب لا تبدو لها نهاية أبدا. سأقرأ وأسافر وأبحث عن دارسين وأحاورهم، وأتحدث مع قادة دينيين، أزور ميدانه الطبيعى، حتى أعود لموطنى، لأنى أدركت بسرعة أنه لكى أفهم إبراهيم وأعرفه على أن أفهم ورثته وأحفاده.

وهناك البلايين من هؤلاء. برغم الثورات التى فى تاريخ الأفكار التى لا تحصى ولا تعد، يظل إبراهيم الوجه المعروف والشخص المعروف لنصف المؤمنين فى العالم. فالمسلمون يذكرونه فى صلواتهم كل يوم، وكذا يفعل اليهود. وهو يظهر مرارا وتكرارا فى الطقوس الدينية المسيحية. من أكثر القصص الساحرة التى لحياة إبراهيم هى قصة تقديمه ابنه لله - وهى قصة تلعب دورا محوريا بالغ الأهمية فى أكثر أسبوع قدسية فى السنة المسيحية، فى عيد القيامة، "الفصح". كما تتم تلاوة القصة فى بداية الأربعة عشر يوما المقدسة فى اليهودية، فى روش هاشانا [٣]. أو عيد رأس السنة العبرية كما أن القصة تلهم اليوم الأكثر قدسية فى الإسلام، يوم عيد الأضحى المبارك، فى ذروة الحج.

(٣) روش هاشاناه أى عيد رأس السنة. يحتفل بهذا العيد فى أول وثانى يوم من شهر تشرى (سبتمبر/ أكتوبر). وقد اكتسب هذا العيد أهمية دينية وقدسية خاصة حيث ذكر فى المشنا أن هذا هو اليوم الذى بدأ فيه الله خلق العالم، ولذلك هو يوم الحساب السنوى الذى تمر فيه المخلوقات جميعها أمام الله (المراجع).

ومع ذلك لم تستطع الديانات حتى فى الاتفاق حول أى من الابنين أراد إبراهيم التضحية به.

إن ما اتفقوا عليه فى الرأى هو أن إبراهيم(*) يشغل هذه المكانة المقدسة لكونه أول شخص يفهم أن هناك إلها واحداً فقط. ويعتبر هذا هو إسهامه العظيم فى الحضارة الإنسانية والمنحة المشتركة التى هى للإيمان والعقيدة الإبراهيمية. إنها تعطيه القوة والسلطان ولكنها أيضا نقطة مضيئة لأن كل واحد يريد السيادة على تلك اللحظة وامتلاكها. فربما يكون محمد أكثر أهمية للمسلمين، وكذلك المسيح للمسيحيين، وموسى لليهود؛ ومع ذلك فكل من الديانات الثلاث ينحرفون عن مسارهم، ليربطوا أنفسهم فى علاقة وليجدوا رابطة مع أبيهم المشترك والمؤسس الأول للإيمان. إن الأمر يبدو وكأن إبراهيم هو الصخرة، جاذبا كل شخص إلى المأوى والبيت المشترك، المكان الأعلى، المكان الأقدس الأول. المكان الأقرب جدا لله. اضبط الصخرة وسيطر عليها عندها تفحص إبراهيم وتعرفه وعندها يمكنك فهم ومعرفة العتبة والمستهل للمقدس والسماوى.

ولذا عدت إلى أورشليم. أتيت وحيدا - كما يفعل أى شخص، بمعنى آخر - إلى وجهة غير محددة. أتيت إلى هنا لأنه المكان الأفضل لفهم إبراهيم، ولفهم ما أظهره وما قاله عن الرب الإله.

ولأن أورشليم هى المكان الأفضل لأفهم نفسى.

هبط الغسق مبكرا على أورشليم فى تلك الجمعة. خلفت الشمس وراءها خيطا من اللون الأرجوانى الشاحب والأحمر الداكن والياقوتى الذى كان متعلقا ومتشبثا بالغيوم واهبا إياهم الطلعة التى لعرق اللؤلؤ. بحلول الرابعة مساء كانت الظلمة قد عمت المكان تقريبا. مشيت قدما نحو الساحة التى للمسجد أمام الحائط، حيث اجتمع مجموعة من المتحمسين من أجل إشعال المينوراه the meno-rah[4] مر اليوم بقلق وإزعاج ولكن بدون سفك دماء، تاركا المدينة ممتنة ومنشرحة

(*) سبق أن ذكرنا أن القرآن يعترف بوجود أنبياء قبل إبراهيم كانوا على التوحيد، مثل إدريس، ونوح (المحرر).

(٤) كانت المينوراه الذهبية وهى شمعدان سباعى أحد أهم أدوات الطقوس فى هيكل سليمان الحكيم وهى ترمز للتراث اليهودى (المترجم).

ولكن منهكة ومستنفذة. أيقنت أن الانفجارات تمثل جزءا من مظاهر المدينة تماما مثل أشجار الزيتون وحكايا الأولين (قصص ألف ليلة وليلة). سيستيقظ كل شخص غدا مرة أخرى ويواجه مرة أخرى مرارة القلق ووجعه .

.ولكن قد حان وقت الاحتفال ووقف رجل أبيض اللحية، مرتد لمعطف أسود وعلى رأسه قبعة مستديرة من الفراء، على رصيف أسفل القبة بقليل. كان أمامه مينورا من الحديد يبلغ طولها عشرة أقدام وثمانية أقدام ارتفاعا، مع تسع علب زيت مستديرة فى حجم علب الدهان. أشعل بطارية (كشافا) ورفعها فى الهواء مسلطا الضوء لأعلى. وبدأ الحشد فى الترتيل: المجد لك كل المجد، أيها السيد الرب الإله، ملك الكون، الذى صنع عجائب لأجدادنا، منذ القدم.

وعندئذ تأتى اللحظة التى من أجلها أتى المصلون خمسمائة رجل أو ما يقارب هذا العدد قد اجتمعوا فوق أطلال المعبد الثانى (الهيكل الثانى)، مكان قد انتهى قبل ألفى عام، ثم تم إصلاحه بواسطة جماعة أصولية متطرفة قليلة من اليهود، بدأوا فى الترتيل والغناء "صخر الدهور" كانت هى الأغنية نفسها التى كانت تجعلنا أمى نغنيها كعائلة، بوهن وبصورة مربكة محكمين بأيدينا القبض حول مئات من الشموع الملونة أثناء ليال لا تحصى فى طفولتى. ولكن فى هذه المرة لم أستطع الغناء على الإطلاق؛ كل ما كنت أستطيع فعله هو الإنصات ـ للأصوات، والحجارة، التى كانت مرتعدة من الخوف الذى شعرت به مبكرا فى الصباح ـ بينما كنت أسمع الكلمات من جديد. وكسرت الكلمة سيوفهم عندما وهنًا وضعفنا وخارت قوانا.

وبينما كنت واقفا هناك، متذكرا ومتأملا، محملقا فى المصلين معانقين الحائط، أيقنت أنه فى الشتات الذى للتوحيد نعتقد فى كون تلك الأيام المقدسة مشعة ومتوهجة فرحا، ولكن هنا تبدو الأيام المقدسة متألقة ولامعة فى ألم أيضا. إن رمضان هو قصة عن الصوم والإفطار، وعيد الميلاد قصة النفى والميلاد، والحانوكا قصة عن الدمار والتسليم. نفس المعتقد لهذا المكان، الصخرة، ذلك المكان حيث تلتقى الحياة بالموت فى صرة العالم، فقد عرج محمد من الأرض إلى السماء ثم عاد، ترك المسيح الأرض أيضا ثم عاد، وطرح إبراهيم ابنه أرضا مزمعا ذبحه وتقديمه كقربان.

هل هذا هو نموذج القدسية، ميراث إبراهيم وتركته: أن يتم إعدادك للقتل من أجل الله.

بعد دقائق قليلة اقترب منى رجل. كان قصيرا مقصوص اللحية بلون رملى وغطى رأسه بطاقية سوداء. كان هو، دافيد ويلنا، الذى كان قد حضر مدرسة يوم اليهود فى لوس أنجلوس، ثم جامعة الرومان الكاثوليك. وبعد أن ربح أربعة عشر ألف دولار فى عجلة الحظ، قرر أن يأتى إلى إسرائيل لمدة عام. وبعد خمسة عشر عاما من هذا التاريخ كان لم يزل هناك ولم يغادر إسرائيل. سألته لماذا؟ فرد على ساردا لى قصة.

كان هناك أخوان يعيشان على جانبى التل، كل على جانب، أحدهما غنى وليس لديه أسرة، أما الآخر فلديه عائلة كبيرة ولكنه محدود الثراء وقليل الغنى. يقرر الأخ الغنى فى ذات ليلة أنه مبارك ولديه الكثير، وأخذ جوالا من الحنطة من مخزنه، يحمله إلى مخزن أو معلف أخيه. يقرر الأخ الآخر أنه مبارك وأن الله وهبه الكثير من الأبناء. ولأن أخاه يجب أن يكون على الأقل لديه ثروة وغنى، يأخذ من مخزنه جوالا من الحنطة ويحمله إلى مخزن أخيه. استمرا فى هذه العملية كل ليلة، وفى كل صباح يندهش كل واحد منهم حين يكتشف أن لديه نفس الكمية من الحنطة التى كانت فى اليوم السابق. أخيرا التقيا معا ذات ليلة فوق قمة التل وأيقنا بما كان يحدث فى الليالى السابقة. احتضن أحدهما الآخر وقبل بعضهما البعض.

فى هذه اللحظة بالذات يجلجل صوت سماوى معلنا، "هذا هو المكان حيث يمكننى أن أبنى بيتى على الأرض".

قال دافيد: "إن تلك الرواية تقاسمتها واشتركت فى سردها الأديان الثلاثة." "ويقول تقليدنا أن هذا هو التل، قبل المعبد بزمن طويل. وقبل إبراهيم بزمن طويل أيضا. والحكمة من وراء تلك القصة هى أن هذه الدرجة من الحب الأخوى ضرورية جدا قبل أن يظهر الله نفسه للعالم."

"لذا هل يمكن أن يظهر الله نفسه للعالم؟"

"لا يمكنك أن تكتب اليوم نصا يقول هذا، أو أن ذلك يحدث بعد آلاف من السنين، برغم التكنولوجيا والتعقيد الذى يغلف حياتنا، فما زلنا نحارب حربا من أجل هذا المكان وعلى هذا المكان، على ميراث إبراهيم. ولكن السبب هو أن هذا المكان هو مكان العلاقة. ليست فقط لأن هذه البقعة حيث من المحتمل أن تتصل فيها بالله، إنها البقعة التى يمكنك فيها الاتصال بالله فقط لو تفهم ما الذى يعنيه أن ترتبطا وتتحدا معا.

إن العلاقة بين إنسان وآخر إنما هى التى تخلق وتسمح بعلاقة مع الله. فإن لم تستطيعوا أن تعيشوا معا وتتصلوا وتتواصلوا معا، فلن تكون لديكم القدرة على الحصول على علاقة مع الله. "أشار إلى الحائط، وإلى القبة، وإلى الكنائس. كانت تضيئهم أنوار من صنع البشر الآن، ولمعانهم حاد بصورة قليلة".

عندئذ التفت إلى قائلا: "لذا فالسؤال ليس ما إذا كان الله يستطيع أن يجلب السلام للعالم، إنما السؤال هو: هل نستطع نحن؟"

إله إبراهيم

(١)
الميلاد

هو رجل عجوز، ويحتل حيزا صغيرا. يبدو أنه بالكاد يستطيع أن يقوم بإجراء انتقامى، ولكن عندما يثير طرفة فى عينه، لم يزل بإمكانه أن يهب الحياة لمن لا حياة فيهم - ويجلب الشباب للموتى. يستطيع أيضا أن يحطم التماثيل و الأصنام.

"لذا، أقول متسائلا: ما الذى نعرفه عن حياة إبراهيم يا بروفيسور؟".

يرد قائلا: "كل ما نعرفه عن إبراهيم هو ما ذكر فى الكتاب المقدس". "لا يوجد شىء على الأرض".

يجلس إفراهام بيران فى مكتبه المطل على المدينة القديمة، فى نفس المكتب الذى يشغله منذ ثلاثين عاما، منذ أن تقاعد من وظيفته كدبلوماسى وأصبح عميدا غير رسمى لعلماء آثار الكتاب المقدس. يجلس مرتديا معطفًا أخضر.. يبلغ الثالثة والتسعين من العمر، مقتربا فى عمره من الرجل الذى قضى حياته ساعيا وراءه ومقتفيا آثاره، عندما يظهر هذا الرجل لأول مرة فى التاريخ. فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين.

"لذا، هل يعنى هذا أنه ليس موجودا؟"

أتيت لأول مرة لأرى البروفيسور بيران قبل سنوات فى بداية جولاتى للبحث عن الكتاب المقدس وها أنا أعود مرة أخرى فى بداية رحلة أخرى. أنا هنا لكى ألقى الضوء ببعض التركيز على حياة إبراهيم المبكرة الغامضة المبهمة ولأحاول الإجابة على السؤال الذى يلح ويزعج فى بؤرة بحثى: هل ولد إبراهيم على الإطلاق (حقا)؟ إذا كان قد حدث، فمتى؟ وأين؟

"نعم إنه موجود"، قال بيران "لتنظر من حولك فقط. ولكن تذكر جيدا أن علم الآثار لا يمكنه أن يثبت أو ينفى حقائق الكتاب المقدس. وأنا فى ذلك أتبع وأتفق مع أولبرايت، مؤسس علمنا والحقل الذى نبحث فيه، فى ذلك فالكتاب المقدس هو كتاب موحى به ولا يحتاج لأى دليل. فى الوقت نفسه، لا تستطيع أن تقوم بأعمال بحث أثرية فى أرض الكتاب المقدس ولا أن تدرس الكتاب المقدس دون أن تكون عالما بالاكتشافات".

" لذا أين أنظر، وأين أبحث؟".

"أنت تفتش عن دليل، عليك بالنظر للثقافة التى أتى منها، وأن تنظر إلى النص".

"وما الذى سأجده وأكتشفه؟"

"انظر، بالنسبة لى، هؤلاء الأشخاص حقيقة لا تقبل أى جدال. فليس لدى أى سبب يدعونى للشك فى حقيقة وجودهم. أما ما إذا كانت كل التفاصيل صحيحة، فلا أدرى، ولا أهتم فى الحقيقة بذلك. إذا كنت تبحث عن التاريخ، ستواجه خيبة أمل أما إذا كنت تبحث عن إبراهيم فلن تواجه تلك الخيبة."

ليس لدى إبراهيم أم نعرفها، وليس له ماض، ليست له هوية شخصية، فهذا الرجل الذى سيعيد تعريف العالم وتشكيله من جديد يظهر فجأة، كفكرة تلوية تقريبا، بدون صخب ولا جعجعة ولا أبواق، بلا حمائم مرفرفة، فى سفر التكوين، والعدد ١١ : ٢٦ : "عندما عاش تارح سبعين سنة، وولد إبراهيم وناحور وحاران.." من تلك البداية البطولية، أبرام (إذ إن الاسم يعنى فى العبرية "الأب القوى أو الممجد") يذهب هاجرا والده عندما كان فى الخامسة والسبعين من عمره، تاركا موطنه الأصلى فى حاران منتقلا إلى كنعان، ثم إلى مصر، وينجب ولدين، ويغير اسمه، ويختتن، ويختن ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته وكل ذكر من بيت إبراهيم، ويبعد ابنه الأول، ويحاول أن يذبح الآخر(*)، ويحارب حربا

(*) فى هذا الموضع يرى المؤلف أن الذبيح هو إسحاق الابن الثانى لإبراهيم كما يعتقد اليهود والنصارى، بينما يرى المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل الابن الأول لإبراهيم (المحرر).

عالمية، واشترى قطعة أرض، دفن بها زوجته، صار أبا لعشيرة أخرى ويموت عن عمر يناهز المائة والخمسة والسبعين.

هل هو؟ لأنه ولمعظم الأربعة آلاف سنة الماضية، كانت قصة إبراهيم مصدقة عالمية تقريبا ـ ككلمة الموروث، أو كلمة الكتاب المقدس أو كلمة الله، أو جميعهم. بدأ البحث منذ حوالي مائتى عام تقريبا عندما طافت موجة من الدارسين اليهود والمسيحيين باحثين عن آثار كدليل وبرهان وانتهوا إلى أنه ليس ثمة أسانيد قوية للقصة ولكن فى الواقع لها أسس ضعيفة وبدلا من أن يطيعوا كلام الله ويأتمروا بأمره تراصوا معا في معارضة الكتاب. "لم نحصل على أيَّة معرفة تاريخية عن الآباء[٥] "كان هذا ما كتبه يوليوس فلهاوزن، الباحث والدارس الألمانى فى الكتاب المقدس والقرآن. فإبراهيم بصورة خاصة عصى على التفسير.

رد علماء الآثار على ذلك بسحب المعاول والتوجه إلى التلال. حفروا فيما يسمى اليوم بالعراق، المكان الذى شهد مولد إبراهيم طبقا لما جاء بسفر التكوين. نقبوا فى جنوب تركيا، حيث عاش قبل رحيله إلى كنعان. حفروا فى شكيم وبيت إيل وبئر سبع، حيث استوطن فى أرض الميعاد. وبينما لم يجد علماء الآثار دلالة ما على أن إبراهيم استقر هنا، فقد وجدوا دليلا يكفى لربط إبراهيم ببداية الألفية الثانية قبل الميلاد. ذلك فى عام ١٩٤٩ أعلن ويليام أولبرايت: "يمكن أن يكون هناك شك ضئيل فيما يخص المادية أو الواقعية التاريخية التى لروايات الآباء."

لم يدم مثل هذا الاقتناع طويلا. فقد رفض جيل جديد من الباحثين والدارسين أدلة الرواد من أساتذتهم واعتبروها غير كافية وأن دعاواهم عاطفية وغير واقعية وتفتقر للتجريب. فلم يتم الكتابة عن إبراهيم وتسجيل سيرة حياته فى الوقت الذى عاصر الأحداث ولكن الكتابة تمت مع تدوين الكتاب المقدس العبرى أى بعد إبراهيم بخمسمائة سنة، فى الألفية الأولى قبل الميلاد. "تعتبر

(٥) المقصود بالآباء: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وبالفعل ليس لدينا أى معلومات تاريخية عن تلك الشخصيات باستثناء ما ورد فى الكتب الدينية. وتختلف هوية تلك الشخصيات فى الكتاب المقدس عن هويتهم فى القرآن الكريم. فهم فى الكتاب المقدس ليسوا أنبياء، ووظيفتهم أقرب إلى وظيفة زعيم العشيرة القبلية، ورغم ذلك فإنهم موحدون بذاتهم ولذاتهم، أما فى القرآن فهم أنبياء ودعوا أقوامهم للتوحيد. (المراجع).

مسألة البحث عن إبراهيم التاريخى عملا غير مجد وغير مثمر بصورة أساسية" كان هذا ما كتبه ت. ل. تومبسون فى عام ١٩٧٤. فالقصة لا تزيد عن كونها تراثا أدبيا"، وأفضل مقارنة لها أن تتم مقارنتها بالروايات الأخرى، مثل هاملت أو الملك لير." من تراب أتى وإلى تراب عاد.

ولكن إبراهيم رد وناضل عائدا إلى السطح مرة أخرى.فقد تم العثور على ألواح فى نوزى شمال العراق، وفى أماكن أخرى توضح أن هناك مجموعة مختلفة من العادات التى ذكرت فى قصة إبراهيم، مثل زواج الجارية للحصول على طفل منها، كانت شرعية ومعروفة جيدا وشائعة فى ذلك الوقت. كما لوحظ حدوث هجرات جماعية من ميزوبوتاسيا Mesopotamia (بلاد ما بين النهرين) إلى كنعان حوالى ١٨٠٠ قبل الميلاد. ظهر إجماع جديد ولكن ببطء فحواه أنه وبينما هناك قصور فى إيجاد دليل قاطع ودامغ على إبراهيم، فإنه لم يزل هناك الكثير مما يدعم القصة، هناك أمثلة لا حصر لها تلك التى توضح جذورا لفظية عميقة تلك التى ترسخ إبراهيم وتؤصله فى تربته الأصلية.

يتفق معظم الدارسين فى هذه الأيام أن إبراهيم ـ سواء أكان شخصية فعلية حقيقية أم مؤلفة من الخيال(*) ـ بزغت من عالم القبائل السامية Semitic على الذراع الأعلى للهلال الخصيب. رغم أن الكتاب المقدس العبرى، وهو أكثر الأشياء التى توضع فى الاعتبار فيما يخص تنشئته، لم يذكر مطلقا مكان ميلاد إبراهيم، يقول النص الكتابى إن أخاه هاران ولد فى أور الكلدانيين. يربط علماء يهود ومسيحيون هذا المكان بأور، عاصمة سومر القديمة؛ أما المسلمون فيربطونه مع سانليورفا Sanliurfa فى جنوب تركيا. أما المكان الحقيقى فهو غير معروف.

يموت هاران؛ ويتخذ إبراهيم وأخوه الذى بقى على قيد الحياة أزواجا لهما؛ بعدها يجمع تارح كل أفراد العائلة (العشيرة) ويرتحل فجأة إلى كنعان. حتى يصلوا إلى مفارق حاران القديمة، بالقرب من سوريا، حيث استقروا هناك. بعيدا عن العشوائية، فإن خط سير تلك الرحلة كان ثابتا ويتمشى مع حياة الرعويين من البدو الرحل، الذين كانوا يجولون المنطقة بقطعان الأغنام، ويقضون أوقاتهم

(*) لا يقبل الفكر الإسلامي مجرد افتراض أن تكون قصة إبراهيم، عليه السلام، مؤلفة من الخيال، ولا يتطرق إليهم أىُّ شك في صدقها وصحتها بعد ورودها في القرآن الكريم. (المراجع).

بالقرب من الأرض المسكونة والمناطق المستقرة، بعدها كانوا يهاجرون إلى أماكن أخرى. تصف الوثائق القديمة مجتمعا تفاعليا، حيث لم تكن القبائل الرعوية الرحالة بعيدا عن المناطق الحضرية المستقرة، حيث كانوا يتمكنون من بيع وشراء البضائع والسلع، يشير الكتاب المقدس العبرى إلى أسلوب الحياة هذا، مطلقا على إبراهيم لفظا عبريا وأراميا. تلك الألفاظ والتهجئة المختلفة للكلمة، أرامو إبو، كانت مصطلحات معروفة وشائعة تطلق على ال "نصف بدوى"، حتى تم استبدالها بلفظة عرب.

ولكن فى الأخبار عن قصة إبراهيم، نجد أن الكتاب المقدس العبرى يهتم بالشخص أكثر من التاريخ المجرد. القصة تأخذ عناصر التاريخ، تخلطهم مع عناصر الأسطورة، وتبدأ فى تشكيلهم وقولبتهم وصياغتهم فى موضوع قصة. لم يكن إبراهيم رجلا مستقرا فى مكان، ولم يكن رحالا بصورة دائمة. ولكنه كان يجمع بين الاثنين، الذى يجسد فى تربيته وتنشئته رسالة سيأتى ليقدمها: المتغرب على الدوام فى أرض غريبة، الغريب الذى يشتاق دائما لأن يكون من أهل البيت، الذى لا يملك أرضا ويرغب جدا فى امتلاكها، التقى الذى يجد المسكن فى الله لحياته المؤلمة ألما لا نهاية له.

حقيقة أن شخصية إبراهيم مبهمة يجعل هذه النقطة بحق أكثر فرضا أو إجبارا. يجب علينا أن نقبل قصته بالإيمان لا بالعيان ولا بالعلم. يجب أن ننظر إليه لا كشىء يمكننا إثباته والتدليل عليه ولكن كشىء يجب أن نصدقه ونؤمن به، تماما كما ننظر إلى الله.

إنه رجل بلا أولاد، متقدم فى العمر ملتصق جدا بحياته فى حاران. فقد عاش إبراهيم تقريبا نصف حياته، ولم يقم بأى شىء يجعله يشد انتباهنا . لماذا يجب أن نهتم؟

إذا كانت مواجهة قصور التاريخ هى الخطوة الأولى فقد كنت فى حاجة لفهم إبراهيم، معتبرا القصور فيما يخص طفولته يأتى تاليا لذلك. معظم الشخصيات الهامة فى الخط التاريخى الذى للكتاب المقدس يتم تقديمهم كأطفال، كنشء فى المراحل الأولى، أو حتى فى حالات قبل الولادة. فأجزاء كبيرة من سفر التكوين

تناقش وتتناول إسماعيل وإسحاق قبل أن يولدوا. فيعقوب وعيسو تصارعا فى رحم أمهما. يوسف أيضا يناضل ويتصارع كمراهق مع الكثيرين بسبب قميصه الملون. والطفل الرضيع موسى يتم وضعه فى سفط من البردى وإخفائه بين الحلفا على حافة النهر.. الطفل داود يقاتل جليات. . وحديث ولادة يسوع يتم تقميطه ولفه فى قماش.

يصل إبراهيم إلى الخامسة والسبعين من العمر قبل أن يحدث شىء له. الشىء الوحيد الذى نعرفه هو أنه ينحدر من أسرة عريقة النسب (فالنص يتتبع والده حتى يصل نسبه إلى نوح) ولا يستطيع أن ينجب أطفالا من صلبه. بالنسبة لسفر التكوين، فقد استهلك سرد القصة مع الرجال، النسب والنسل، والقوة، لذا نرى أن الأثر المتناقص لهذا الضعف أو الوهن عند إبراهيم مذهل. فرد فعلنا الرئيسى عند مقابلته ليس الإعجاب؛ ولكنه إما اللامبالاة وإما الشفقة. فهو سجل خال مطلقا من الأعمال والأحداث: فهو شخص بلا أطفال ولا طفولة.

ولأن كل شىء آخر فى الكتاب المقدس العبرى له غرض وغاية، فيبدو من القول بأن هذا القصور والنقص فيما يخص طفولة إبراهيم يجب أن يكون له غرض، أيضا. لذا ما عسى أن يكون هذا الغرض؟

الله يبحث عن شخص. هو يفتش عن شخص بصفات خاصة. ففى بداية سفر التكوين، فى حالة من الإثارة، والإبداع الخصب، يخلق الله العالم، يخلق النور والظلمة؛ والأرض والبحار؛ والشمس والقمر؛ والمخلوقات من كل نوع. وبعد كل خلق يعلن أن خلقه "حسن". ثم يخلق الإنسان، ويأمرهم أن يتناسلوا ويكثروا، ويعطيهم السلطان على باقى المخلوقات، ولأول مرة يعلن أن خلقه "حسن جدا" البشر كما يبدو واضحا مهمون جدا ويعتبرون مركزا لعالم الله. فالله اختارهم، ويريدهم أن يكونوا خليفته على الأرض.

ولكن البشر مخيبون للآمال. فآدم، بتذوقه للثمرة، يوضح أنه قدم طاعة حواء على طاعة الله، لذا عاقبهما الله. تمر عشرة أجيال، ليجد الله خلالها أن الأرض مكان فاسد ومملوء بالشر والعنف. ويفكر فى أن يمحو الإنسان ولكنه يقرر أن يبدأ من جديد. فى هذه المرة يختار الرب نوحًا، وكان رجلا صالحا وبارا وكاملا

فى أجياله(*). ولكن نوحا، بشربه الخمر وسكره بعد إبحاره بفلكه، يوضح أنه قدم الخمر على طاعة الله. ومرة أخرى، الله. تمر عشرة أجيال أخرى، التى يصبح الرب خلالها فى سخط وغضب برغبة الناس فى الاتحاد وبناء برج يناطح السماوات. الله لا يحب أن يتم تحديه. يريد أن يتم تقليده. يريد أن يحب كما أحب.

يريد الله نوعًا جديدًا من البشر. يريد شخصا مخلصا. شخصًا يطيعه. شخصًا لن يعصه أو يتمرد عليه. شخصًا يقدر ويثمن النعم والبركات التى سيهبها الله له. وفوق كل شىء، الله يريد شخصا يحتاجه هو والذى سيتسامى لمقاييسه النبيلة الرفيعة.

إنه يريد إبراهيم.

يدشن إبراهيم الجيل العشرين للبشرية. ومع ذلك، فمنذ البداية، فهو يختلف عمن سبقوه: فلم يكن صالحا، ولا به خصوصية، وليس بالتقى ولا الورع بأى حال من الأحوال[٦].. بالإضافة، إلى أنه قلق لا يهدأ. فهو وأسرته التى ولد بينها وزوجته، سارا (التى ستغير اسمها فيما بعد، مثل زوجها). يغادر المكان إلى مكان آخر ولكنه يتوقف قبل أن يصل ويستقر فى مكان جديد. يبدو وكأنه غير متأكد ولا واثق. فحياته معطلة ومعلقة ـ والأسوأ، ممزقة. فلا وريث له، وما من سبيل أمامه ليخلق العشرة أجيال القادمة، ولا حتى الجيل التالى. كما يقول النص فى سفر التكوين، فى تفصيلته الوحيدة عن سيرة حياتهم عن تلك السنوات، "والآن كانت سارا عاقرا، ولم يكن لها طفل (ولد)" .

إن حاجة إبراهيم إلى طفل سوف تحكم حياته وتسيطر عليها. فمعظم القصص البطولية تبدأ بولادة، بأمل قادم. أما قصة حياة أبى الحضارة الغربية

(*) المؤلف متأثر بطريقة الكتاب المقدس في الحديث عن الأنبياء قبل موسى، فلا يتحدث عنهم كأنبياء، بل يتكلم عنهم كرجال صالحين، كما سبق ذكره قبل ذلك. (المراجع).

(٦) لم يذكر لنا سفر التكوين أى شىء عن تقوى أو عصيان إبراهيم، قبل ظهور ملاك الرب له، أو قبل الرؤى التى رآها، لكن لا يعنى ذلك أنه لم يكن تقيا ورعا، غير أن المشكلة التى نصادفها فى روايات سفر التكوين عن إبراهيم أنها لم تقدم أى معلومات عن شخصية إبراهيم قبل أن يأمره الرب بالابتعاد عن أرض موطنه (المراجع).

تبدأ بغياب الولادة (العقَر)، يأس مثبط للهمة. يستحق إبراهيم وينال اهتمامنا بواسطة القصور الشديد من السيطرة التى يبذلها ويمارسها على حياته هو. ففى قصة كقصة الخلق، لا يمكنه الخلق، فهو ليس إلها.

التى ربما تكون النقطة.

فى قصص الشباب البطولية، يشرع البطل ليؤدى أعمالا بطولية ويقوم بها ليفوز بيد وقلب محبوبته. فهو أكثر غموضا، يتطلع من الداخل للمغامرة بصورة أكثر تلك المغامرة التى تقترب من الجنون فى محاولة وصولها للقمة والسمو. فكر فى دون كيشوت وأوديبس. فى منتصف الحياة، يبدأ الشاب يكبر، ويدرك حتمية موته. كما لاحظ جانق، أن منتصف العمر شد بين التولدية، وهى الشعور بأنك جزء من عملية القدرة المستمرة على الخلق، والركود، وهو الإحساس بكونك عاجزا.

يعتبر سفر التكوين بصفة أساسية قصة التولدية، (الإنجاب). وإبراهيم كما يظهر فى الإصحاح الحادى عشر فى سفر التكوين يخاطر بتعطيل وإيقاف تلك القصة، فليس لديه حياة فى داخله.

تلك المشكلة سمحت بظهور الاختلاف الرئيسى بين إبراهيم وأجداده: فعلى عكس آدم ونوح، يحتاج إبراهيم إلى الله. خاصة أن إبراهيم يحتاج للقدرة على الخلق، ولكى يحصل عليها فإن عليه أن يتوجه إلى الخالق ويطلب وجهه. رأى نيللى ساتشز الحائز على جائزة نوبل فى عام ١٩٦٦ إبراهيم ووصفه على أنه إنسان نموذجى. يطل من نافذة على منظر عشرى، محملقا فيما وراء اللهيب والتوهج، مشتاقًا للقدوس.

لقد أسميتنى أبرام.

وأنا أشتاق جدا إليك.

إذ ليس إبراهيم رجلاً متميزًا ولا متفردا، ولا هو بالرجل التاريخى. ولكنه الرجل الأصل Ur man الرجل الذى يذكرنا أنه حتى ولو قطع الله الحبل السرى بينه وبين البشر، فلم يزل البشر فى حاجة للقوت والغذاء من الله. وهذا هو،

تحديدا، الشىء الذى جعله يناشد الله ويلجأ إليه. فهو ليس إلها؛ إنه ليس سوى بشر. إن الدرس المهم الذى لحياة إبراهيم الأولى المبكرة هو أنه لكونك إنسانا فأنت غير آمن وغير مرتاح وقلق. بكونك إنسانا فأنت غير متأكد وغير واثق ومتردد، وسالك فى طريق غير معروف، طريق يؤدى إلى المجهول، بكونك إنسانا فأنت فى سعى إلى الله، وسائر فى الطريق إليه. يعتبر الفراغ الذى لشباب إبراهيم غير المرئى نصر لمعرفة تلك الضرورة. فسنواته المبكرة مجال للشك والريبة، واشتياق وتوق، ويأس متنامى ومتعاظم. وأخيرا التماس وطلب متواضع للمساعدة، ساعدنى.

فيما بعد وبينما كنت أتحدث مع إفراهام بيران، أخبرنى بقصة، ففى المرة الأولى التى أتى فيها إلى أورشليم كشاب، قام بزيارة العديد من الأماكن التى سبق وقرأ عنها كصبى. لمعت عيناه كما لم تلمع من قبل. "ولم أشعر بشىء"، قال لى: "فلم تمسنى الأماكن ولم تؤثر فى كثيرا. الذى مسنى حقا وأثر فى هو القصص".

وهناك المئات من القصص عن إبراهيم.

لقد أورث اليأس الذى صاحب السنوات الأولى فى حياة إبراهيم إحباطا لأحفاده وأسهم فى واحدة من أكثر الحقائق المؤكدة فى حياة إبراهيم: تطوره ونموه الذى لا ينتهى. معظم الأشخاص التاريخيين يخلفون وراءهم كما هائلا وكبيرا من المعرفة التى تدل عليهم ـ رسائل، يوميات، ذكريات مع الرفاق ـ التى تتبدد وتتناثر بصورة تدريجية حتى إذا أتى أناس يريدون أن يستحضروا أسماءهم بعد قرون لا يجدون سوى آثار ضئيلة. أما إبراهيم فهو على العكس من ذلك: فكم المعلومات والمعرفة التى عن حياته تتضخم عبر الزمن، بصورة كبيرة وواضحة.

من المحتمل أن يكون أقل من ١٪ من القصص المتداولة والمعروفة عن حياة إبراهيم تظهر فى الكتاب المقدس العبرى. الأغلبية العظمى منها لم تأت حتى للتداول والانتشار بعد مرور مئات، أو حتى آلاف من السنين بعد أن كان قد مات.

لو مثلت بيانيا كل القصص التى رويت عن إبراهيم طبقا للتاريخ الذى دخلت فيه إلى العالم، فالشكل الناتج سيكون كشكل بوق بفم غير مرئى نشأ أحيانا فى الألفية الثانية قبل الميلاد ذاك الذى قد تمدد ليصبح بوقًا متسعًا مفتوحا اليوم.

مثلت لى تلك الوفرة تحديا كبيرا. فالبحث عن إبراهيم لم يعن مجرد النظر إلى الوقت الذى ولد فيه؛ ولكنه عنى النظر إلى أى وقت قام أى شخص بإعادة سرد القصة. لم تزل تلك هى الطريقة الوحيدة لرؤية وفهم إبراهيم. كنتيجة لذلك، وقبل أن أتوجه سائرا فى الطريق وبالتأكيد قبل أن أجلس مع أى من المتطرفين، كان على القيام برحلات كثيرة جيئة وذهابا من وإلى مختلف المكتبات. كان على أن أقلب فى الكثير من الصفحات المغلفة بالمعرفة التقليدية، والأسطورة، وأحيانا بالكراهية. كان على أن أميط اللثام عن ذلك اللغز الذى بناه إبراهيم وترسخ عن طريق كل تقليد.

انضمت الديانات الثلاث جميعها فى عملية التفسير والتأويل تلك، رغم أن اليهودية أتت أولا بالضرورة، إذ من المحتمل أنها بدأت فى القرن الثالث قبل الميلاد. فكل مظهر من مظاهر حياة إبراهيم كان مفتوحا لإعادة روايته. الأول من بين تلك المظاهر تأتى: طفولته. تجاهل سفر التكوين تلك الطفولة، ولكنه يحصل على واحدة فى الموت؛ فى الواقع، يحصل على أكثر من واحدة، فى إحكام وبإتقان، فطريقة التحليل النفسى التاريخية يعيد أبناء إبراهيم ببطء خلق قصة حياة جدهم المبكرة فى جهد من أجل فهم أفضل لحياتهم هم. ومن هذه الناحية أو فى تلك الجزئية فإن إبراهيم يشبه يسوع المسيح - حيث إن الروايات التى رويت عنه بعد وفاته لها نفس الأهمية لما روى عنه فى حياته، هذا إن لم تكن لها أهمية أكبر. تستهل تلك العملية وتدخل مفارقة غنية: إن كان الله قد عمل الإنسان على صورته وكمثاله[٧]، فنحن البشر جعلنا إبراهيم على صورتنا نحن وكمثالنا.

بينما تذهب الروايات التى رويت عن إبراهيم بعيدا جدا فى هذا المجال لدرجة تبدو وكأنها مؤلفة، فإن معظم المفسرين يجتهدون لتزويد رواياتهم

---

(٧) لا يوافق القرآن على تشبيه الله بشىء من المخلوقات، حيث جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١). (المراجع).

بالأسانيد والآيات الكتابية. فعدم وجود أدلة ولا حجج عن طفولة إبراهيم، على سبيل المثال، جعل المفسرين يتحولون إلى سفر يشوع، حيث يخبر الله الإسرائيليين، "لقد عاش أجدادكم منذ قديم الزمان - تارح وأولاده إبراهيم وناحور - فيما وراء الفرات وعبدوا آلهة أخرى. بعدها أخذت أباكم إبراهيم من وراء النهر وقدته عبر كل أرض كنعان".

"آها!" قال المفسرون. لابد وأن إبراهيم قد كان مختلفا عن أقاربه؛ لأنه الوحيد الذى تم أخذه من وراء الفرات. إذ إنه بطريقة ما عرف أن عبادة الأوثان منطوية على سلوك خاطئ. من هذا الخطاف البسيط تم نسج المجلدات. ففى سفر اليوبيل[٨]، نص يهودى غير معترف به من القرن الثانى قبل الميلاد، يتم تقديم الولد إبراهيم وهو يسأل والده، الكاهن: ما فائدة خدمة الأصنام وتقديسها والتبخير لها، على اعتبار أنهم صم وبكم؟ "أنا أيضا أعرف ذلك يا بنى"، يرد تارح قائلا: "، ولكن ما الذى سأفعله بقوم أمرونى أن أخدم وأكهن أمامهم؟"

فى أبو كاليبتى[٩]. إبراهيم، من القرن الأول -------- يأتى إبراهيم الصغير ليشاهد من الأصنام الموجودة فى حانوت أبيه إلها من حجر سقط على وجهه. عندما يرفع الصنم يسقط مرة أخرى، لتنفصل رأسه. ما من مشكلة: يشرع الأب فورا فى نحت جسد جديد ويثبت الرأس عليه. "ما تلك الأشياء التافهة عديمة الفائدة التى يفعلها أبى؟" يتمتم إبراهيم مازحا مستنكرا" أليس هو بالأحرى الإله لآلهته؟" إنه لمن الأفضل لتلك الآلهة أن تنحنى ساجدة له".

بينما تبين تلك القصص والروايات روعة الاختراع وبداعته، فإن منحتهم الحقيقية تكمن فى الطريقة التى يظهرون فيها فى النمو بصورة تفوق كثيرا

(٨) سفر اليوبيل هو أحد الأسفار الخارجية التى كتبت بعد إعادة بناء الهيكل، وفيه تفصيل حسابات اليوبوليم والأحداث التى حدثت آنذاك، وعرف سفر اليوبيل بأسماء أخرى منها أسفار الإنسان الأول وبالآرامية سرا، د. آدم هارشون. (المراجع).

(٩) أبو كاليبتى/ أبو كالبسى نوع من الأدب يعنى بالرؤى المستقبلية للعالم، وظهر هذا النوع من الأدب فى سفر دانيال فى العهد القديم، ثم وجد بعد ذلك فى العهد الجديد كما فى رؤيا يوحنا (المراجع).

النص وتتجاوزه بصورة لا توصف. فسفر التكوين يوضح أن عائلة إبراهيم قد عاشت فى أور الكلدانيين. وأخذ علماء الآثار هذا الاقتراح بصورة حرفية وذهبوا باحثين عن أور، ولكن المفسرين حديثا أخذوا الكلمة بصورة إيتومولوجية (إعادة الكلمة إلى أصلها ومعرفة معناها) ولاحظوا أن كلمة أور، فى العبرانية، تعنى نار أو "لهيب" (١٠). . فجأة أصبحت الآية "أنا هو الرب الله الذى جلبك من (نار) الكلدانيين" وقد اكتسبت معنى ومنحى جديدين.

دأب المفسرون على عملهم وساروا فى نهجهم. فبعد أن يواجه إبراهيم والده فيما يخص الأصنام، يبلغ تارح الملك نمرود ملك بابل بالأمر، الذى يأمر بدوره أن يحرق الولد وأن يلقى فى فرن متقد. يأتى الملايين لمشاهدة المنظر المروع. يتم نزع ملابسه عنه ويربط بالكتان. ويلقى إبراهيم فى أتون النار المتقد. ولمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال يسير إبراهيم فى وسط النيران، قبل أن يخرج سالما أخيرا. "لماذا لم تحترق؟" يسأل نمرود. "الرب إله السماء والأرض سلمنى"، يرد إبراهيم قائلا.

لم تكن أور هى الكلمة الوحيدة التى ألهمت كتاب السيرة. فكلمة كالديا التى فى ميزوبوتاميا السفلى(١١). كانت تعرف قديما على أنها موطن لعلوم الفلك والتنجيم. وتلك الحقيقة لا يمكن أن تعنى سوى شىء واحد للمفسرين وهو: من المؤكد أن إبراهيم كان فلكيا! كما يبلغنا سفر اليوبيل "جلس إبراهيم أثناء ليلة الشهر السابع كى ما يتمكن من ملاحظة ومراقبة النجوم من المساء وحتى طلوع الفجر ليتمكن من معرفة طبيعة السنة فيما يخص المطر".

هناك تقاليد موروثة أخرى جعلت إبراهيم ينتقل إلى فينيقية ليعلم أهلها علوم الفلك. كما جعله الكثيرون معلما للرياضيات ومختلف العلوم الأخرى للمصريين،

---

(١٠) يظهر هنا التأثير القرآنى على عمل المفسرين حيث أشار القرآن إلى حادثة وضع إبراهيم فى النيران من قبل قومه. (المراجع).

(١١) يقصد هنا جنوب بلاد الرافدين. وكلمة كلديا/ الكلدانيون مشتق من قبيلة كلدى، ويعدهم المؤرخون فرعا من الآراميين نزحوا من سوريا إلى جنوب العراق. وقد ظهروا لأول مرة فى التاريخ فى عهد شمسو إيلونا خليفة حمورابى. وقد مارست سلالتهم سلطة غير ثابتة على إقليم سومر، وأكد حوالى قرن ونصف قرن. (المراجع).

والذين نقلوا بدورهم ما تعلموه منه إلى اليونانيين، إذن فجأة ودون مقدمات تحول إبراهيم، البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما، هذا الشيخ البدوى الرعوى، ليصبح ألبرت أينشتين عصره. متجولا فى قاعات المحاضرات الدولية، ناشرا المعرفة، وحائزا على جوائز تعادل جوائز نوبل فى عصرنا فى علوم الفلك، والرياضيات، والأرصاد الجوية بالإضافة إلى نوبل للسلام - لأجل قوة تحمله فقط.

الشيء المهم فى تلك العملية هو أنه، ومبكرا جدا وبعد سنوات قليلة من كتابة الكتاب المقدس العبرى، يبدأ إبراهيم فى اكتساب أبعاد لم يرد أى ذكر لها فى الكتاب. والشيء المعقد فى هذه العملية هو أن كل كاتب يحاول أن يجعل إبراهيم يخاطب جيله وعصره، أو مستمعيه المستهدفين بصورة خاصة. فلو كان أحد الكتّاب فيلسوفا، فهو يريد أن يؤكد على عقلانية إبراهيم ورجاحته وقوة حجته. وآخر (رجل دين) حبرا أو حاخاما، فهو يريد أن يؤكد ويركز على تقوى إبراهيم وورعه . وبينما تحاول تلك التقاليد والتعاليم الموروثة جاهدة وربما تنجح فى أن تجعل إبراهيم يروق كثيرا لقرائهم، فإنهم ربما يخاطرون فى جعله لا يروق آخرين. فالتنجيم، على سبيل المثال، علم يسخر الكثيرون منه بصورة واسعة؛ والقول بأن إبراهيم كان منجما يمكن أن يشوه صورته ويضعف مكانته بالنسبة لجيلنا وعصرنا.

يتركنا هذا الموقف فى موقف التحدى - محاولين اكتشاف وإدراك إبراهيم بصورة أكبر وأوسع قابلين فى الوقت نفسه، وعالمين أننا نفعل ذلك عبر منشور ربما يخبرنا عن الكاتب أكبر بكثير مما يخبرنا عن الموضوع. وجدت أن هذه المعضلة رغم أنها رائعة فى جانب واحد إلا أنها مروعة ومثبطة للهمة. انتظر، ها أنت تخبرنى أنه إذا كنت أود أن أفهم إبراهيم وأعرفه حق المعرفة فإنه يتحتم على أن أفهم إبراهيم مختلفا لكل جيل ولمدة أربعة آلاف سنة؟ حتى بحسابات سخية لجيلين كل مائة سنة، فهذا يعنى أنه يجب على أن أفهم وأتدبر ثمانين إبراهيم مختلفا. ياله من عمل مضن. وياله من عمل مؤد للجنون.

بل ياله من عمل مشوق. ولكن القصة الحقيقية أسوأ بكثير.

فالثمانون إبراهيم المختلفون ـ الممتدون منذ القدم إلى اليوم ـ هم فقط الذين تم نسجهم بواسطة اليهود فقط. أما المسيحيون والمسلمون فلهم الإبراهيمون (جمع إبراهيم) الخاصة بهم. وبسرعة يصبح الثمانون مائتين وأربعين. ويصبح إبراهيم بسرعة غير مرئى وغائم. لوضعها فى مصطلح يمكن أن يفهمه الكلدانى: فإبراهيم هو درب اللبانة وليس مجرد نجم قطبى.

مرة أخرى، لا أجد أمامى أى خيار سوى مواجهة الأجمة. ليس لدى سوى التنقل بين مجموعات من المكتبات والالتقاء بمجموعات أخرى من الدارسين. وقد وجدت تلك العملية من وجوه كثيرة، فالهوس الذى بداخلى ـ وأخيرا حتى المغامر الذى بداخلى ـ وجدتها عملية مثيرة ومبهجة. كان الأمر كما لو كنت مشاركا لعملاق، فى مطاردة ثلاثية الأبعاد، حيث كل دليل فى اليهودية يقودك إلى بعض الطرق الصحراوية فى المسيحية، التى بدورها تقود إلى بعض أشجار النخيل فى الإسلام، التى تحتها نبع ماء ـ نعم ـ أزال هذا فجأة بعضا من التشابك تم وصفه فى الصفحة الأولى من جريدة ذلك الصباح.

ما جعل تلك المطاردة بتلك الإثارة هو أنه لكى ما تستطيع أن تفهم كل تلك المئات من الروايات والشخوص الإبراهيمية (التى لإبراهيم) ـ لكى تفهم كيف تطورت وتغيرت عبر الزمن ـ هو أن تفهم القيم التى لكل ديانة من الديانات الثلاث. وبينما ينقلب كل إبراهيم من أولئك ليتحول إلى نقيض لإبراهيم الآخر إلا أنه هناك اتفاق عام رغم كل التناقض على شىء واحد: أن إبراهيم كان موحدا بمعنى أنه لا خلاف على كون إبراهيم مؤمنا بإله واحد. وتتفق معظم الروايات على أنه وصل إلى هذا اليقين فى سن مبكرة وهو لم يزل بعد صبيا. تلك التفاصيل الخاصة بسيرته تم تداولها والتيقن منها، وتصديقها بصورة واسعة حتى تحولت بالفعل إلى نصوص قدسية مكتوبة.

لم يول المفسرون المسيحيون، بما فيهم هؤلاء المتضمنون فى العهد الجديد أمثال يوحنا وبولس الرسولين اهتماماً بطفولة إبراهيم سوى اهتمام قليل أقل من

أحداث أخرى لاحقة فى حياته. على العكس تماما فقد فتن الإسلام وسحرته طفولة إبراهيم. لقد نزل القرآن على محمد بن عبد الله، وكان تاجرا عربيا من أشرف قبائل قريش، واستمر نزول الوحى لفترة تناهز اثنين وعشرين عاما، بداية من عام ٦١٠ للميلاد.

كان الوحى يأتى مباشرة من الله إلى محمد وكان هذا شيئا مؤلما للنبى، الذى تم أسره لا شعوريا برسالته. وكما قال النبى "لم يحدث مرة وتلقيت الوحى دون التفكير والشعور بأن روحى تؤخذ منى"(*). لم يؤمن محمد أنه كان يؤسس دينا جديدا وعقيدة جديدة، بل كان يؤمن أنه يحيى إيمانا قديما متأصلا بإله واحد. كما أوضح أيضا أنه أتى بالعقيدة الصحيحة والإيمان الحق لأمة العرب الذين، على عكس جيرانهم فى المناطق الخصبة التى فى الشرق الأوسط، لم يكن قد أرسل إليهم نبى بعد.

أوضح لى بيل جراهام Bill Graham، وهو رئيس قسم لغات الشرق الأدنى فى جامعة هارفارد ومؤرخ بارز عن الإسلام، قائلا: "إنى أنظر إلى الإسلام وأراه كحركة إصلاح فى سياق التوحيد" كانت لهجته متأثرة بشدة بلهجة نورث كارولينا مما يجعل كلماته قريبة لى وفى نبراته ذلك الصوت، الأمر كما لو كان لقاض من الجنوب. "إن الرسالة الواضحة هى أن محمدا قد جاء بالقرآن ليعيد إحياء العالم ويجعله مستقيما، مبتدءا هذا الأمر بالعرب."

وعلى حد قول جراهام "إن القرآن مكتوب بأسلوب مرجعى، فهو لا يعيد قص الأحداث أو روايتها من جديد، بل يشير إليها. فهو يستخدم أدوات السرد البلاغية المعروفة والشائعة مثل، تذكر عندما ...... كما فى تذكر عندما فعل إبراهيم ----- وعليك أنت أن تستمد تلك ال عندما." وبسبب هذا القصور فى السرد القصصى المستقيم فإن تجربة تناول القصص وسردها فى القرآن تختلف عن مثيلاتها فى سفر التكوين. ولكن يبقى الأثر كما هو، ويبقى للطريقتين الأثر

(*) لا يوجد في كتب السير والأحاديث النبوية حديث بهذا اللفظ في صفة الوحي، وأقرب شيء إلى هذا المعنى ما روي في قصة نزول جبريل عليه لأول مرة فى غار حراء، وفيه قال رسول الله ﷺ "فاخذني فغطنى حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلنى" ثم أخبر خديجة رضى الله عنها بخير الوحي، وقال: "لقد خشيت على نفسي". انظر "البداية والنهاية" لابن كثير (٤/ ٦). (المحرر).

نفسه: فإبراهيم قليل كشخصية تاريخية، ولكنه كبير جدا كشخص حى هذا الذى يصنع مراحل عن التاريخ الإنسانى. ويؤثر فى التاريخ الإنسانى.

أضاف جراهام شارحا "أن القرآن يميل للتعليم أكثر من كونه ساردا للقصص. فكل شىء مكرس لخدمة فكرة كوننا جميعا عبيدا لله. لذا، فكل ما قيل عن إبراهيم يبين أنه ورغم كونه يعيش فى وسط عالم وثنى كان مثالا يحتذى فى عقيدته وإيمانه وتوحيده.

حتى وهو صبى صغير.

فطفولة إبراهيم تلك التى تم تجاهلها من قبل التوراة ولم يمسسها الإنجيل من قريب أو بعيد، تعلن عن أول ظهور لها فى نص دينى مقدس (القرآن). وتتشابه تلك الطفولة بصورة ملحوظة مع الأساطير التى تناقلتها الألسن عبر آلاف السنين السابقة. ففى سورة الأنعام، يسأل إبراهيم أباه لماذا يتخذ آلهة من الأصنام. وفى الخارج، ينظر إبراهيم إلى النجوم ويقتنع أنها آلهة حتى تختفى. ثم يحدث الشىء نفسه مع القمر والشمس. وأخيرا، يصل إلى قناعة أنه لابد أن يكون هناك إله وراء كل تلك الأشياء. "إنى أتبرأ من أصنامك. سأحول وجهى إلى الذى خلق السموات و الأرض. وسأحيا حياة صالحة . ولن أكون عابدا للأوثان"(*).

يبدو الظهور الثانى لإبراهيم أكثر ألفة. ففى واحدة من الأساطير اليهودية الشهيرة، يحطم إبراهيم الأصنام بعصى ويحاول أن يلصق التهمة لواحد من الأصنام .

"يسأله أبوه قائلا" لما تهزأ بى؟هل تعلم تلك الأصنام شيئا؟" نرى الرواية نفسها فى سورة الأنبياء؛ إذ نرى إبراهيم يحطم الأصنام ملقيا اللوم على واحد من تلك

(*) يشير المؤلف إلى قوله تعالى في القرآن : ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٢، ٦٣). (المحرر)

الأصنام. ويحاجج أباه قائلا "اسألها إن كانت تستطيع الكلام، ويأتى الجواب" أنت تعلم أنها لا تستطيع الكلام"(*).

يوصلنا التشابه المطلق بين هاتين الروايتين إلى خيار من اثنين. أولها أن الرواية حقيقية. فاليهودية، من ناحية، تؤكد على أن التقليد الشفاهى عن إبراهيم والشخصيات الكتابية الأخرى قد تم تسلمها بالفعل من الله على جبل سيناء مع الوصايا المكتوبة فى منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد. يؤكد الإسلام أيضا على أنه كتاب موحى به من الله، وعلى ذلك تكون قصة تحطيم الأصنام التى قام بها إبراهيم هى كلام الله وأنه كلام منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. الخيار الآخر أن تكون تلك الأساطير المنسوجة حول إبراهيم وعنه ليست من عند الله وإنما ألفها رجال سكارى بحب الإله . ثم تطورت تلك الأساطير وتناقلتها الألسن وتم تداولها فى الشرق الأوسط. والتقطها محمد من التجار اليهود والمسيحيين فى جزيرة العرب. سيعزز هذا الموقف وجهة النظر التى لبعض الدارسين الذين يرون أن الإسلام استقى من عناصر كانت موجودة بالفعل فى المنطقة وجعل تلك العناصر مقبولة لشريحة جديدة وواسعة من المستمعين(١٢).

فى أى من الحالتين، فإن الدلالة التى للتراث المشترك واضحة وجلية: إذ إن الديانات الثلاث تصور إبراهيم وتراه فى طفولته بصورة متشابهة ومتماثلة تماما وبقوة. ويمكننا أن نلمح بسهولة هذا التناغم والانسجام بين الأحفاد جميعا على

(*) يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآيات من ٧٤ إلى ٧٩ من سورة الأنعام. (المحرر).

(١٢) هنا يتناقض المؤلف مع نفسه فقد أشار بل جراهام إلى أن الإسلام جاء مصلحا للتوحيد. فإذا جاء مصححا للتوحيد فإنه أيضا صحح كثيرا من المعلومات عن الشخصيات الكتابية ولا يعنى التشابه بين القصص الكتابية وقصص القرآن أن الأحداث أخذ أو تأثر بالأقدم، والدليل على ذلك ما أشار إليه نفتالى فيدر فى كتابه «التأثيرات الإسلامية فى العبادات اليهودية» حيث أشار إلى أن احتكاك اليهود بالمسلمين أعاد اليهود إلى كثير من الطقوس التى كانوا قد هجروها تأثرا بالمسيحية. ومن أبرز الطقوس التى أعادها اليهود إلى عباداتهم «الطهارة والجلوس على هيئة البارك فى الصلوات، والاصطفاف فى الصلوات وغير ذلك» (المراجع).

أصل وأساس سيرة إبراهيم . لا يمكن أبدا أن يستهان بالميزة التى لهذا الإجماع وهذه الصبغة العالمية. فإبراهيم، عبر كل الديانات وفى كل الأزمان، ورع وتقى ومخلص ومتفان، وله القدرة على الاستدلال والاستنتاج المنطقى العقلانى وتواق للجهاد من أجل إيمانه وللدفاع عن عقيدته، وبارع فى استخدام الذكاء والحجة والمنطق لنشر رسالة لم يفهمها سواه.

إنه ومع تمتعه بصفات عدة منها أنه ساحر للجماهير ونبوئى وبطولى، أنه مستحق لله.

لا يجب أن يتم إغفال أو التغاضى عن المشكلة الكامنة وراء تلك العالمية، فأحد الدروس غير المقصودة من طفولة إبراهيم هو أنه على الأفراد أن يشعروا بالحرية ليحرروا أنفسهم من الأديان الطوطمية أو الديانات الأرضية الكاذبة، حتى فى مواجهة ومقاومة عائلاتهم أو دولهم أو قادتهم وساستهم. إن هذا الدرس الأخلاقى المستفاد يخلق توترا كان ولم يزل موجودا حتى يومنا هذا، بين شباب يرفضون آلهة آبائهم مفضلين آلهتهم هم. بهذا يصبح إبراهيم نموذجا يحتذى ليس فقط فى الأصول المشتركة ولكن أيضا لأجل التأسيسية، من حيث فكرة أنه أنت يامن تسمع الله بصورة أكثر وضوحا تسمعه بصورة أكثر صحة. لقد تم رفض إبراهيم ومعاقبته بسبب معتقداته ووصل الأمر لحد حرقه بسبب إيمانه. وصورة أخرى لا يعد إبراهيم أول الموحدين فقط بل هو بحق أول الشهداء أيضا.

(٢)
الدعوة

فى صباح يوم سبت ناضر من أواخر عام ١٩٧٧، خطوت غير حليق نحو منبر الوعظ الذى للمعبد الإسرائيلى فى سافانا بولاية جورجيا. كنت وقتها أرتدى بدلة زرقاء مخططة، وقميصا أبيض، ورباط عنق كبيرا مرقطا وبه خطوط قطرية بألوان حمراء وزرقاء، كان شعرى الأشقر المموج يغطى أذنىّ، كنت غاضبا ومتوترا.

كان الضوء المتسلل عبر النوافذ الزجاجية غير الشفافة ساطعا وواضحا، حملت بين يدى التوراة من صندوق مفتوح إلى مقدمة واحدة من المنصات الصغيرة. أزلت المؤشر الفضى من المقابض وبعدها التيجان ودرع الصدر، وأخيرا الغطاء القماشى. أديت كل هذه الحركات بتأن وتؤدة وبتدقيق شديد بحيث كل حركة نالت وقتا أطول مما يجب. فككت المشبك ونشرت الكتاب فوق المنصة. بعد تلاوة الصلاة، قبضت على المؤشر الفضى فى راحتى، متبعا الاتجاه الذى للحاخام، وبدأت التلاوة والتلعثم وبعبرية ركيكة: "وقال الرب لإبرام".

كنت فى الثالثة عشر من عمرى وقتها.

كانت الآيات[١٢] التى قرأتها حينئذ هى الآيات الأولى من سفر التكوين الإصحاح الثانى عشر" قال الرب لإبرام، اذهب من أرضك ----"

---

(١٢) لا تستخدم الأدبيات العبرية مطلقا كلمة آية بل تستخدم دائما الكلمة العبرية «باسوق» والتى تعنى عبارة أو فقرة، وكلمة آية هنا هى ترجمة للمصطلح الإنجليزى Vers. (المراجع).

فى عائلتى، كان فى ال Bar Mitzvah (١٤) أن تستخدم اللغة التى لصبى الذى كنته فى ذلك الوقت، "أمر جلل". كنت قد بدأت فى دراسة العبرية قبل سنوات من ذلك. مارست نصيبى فى معسكر صيفى، تجمعت الأسرة والأصدقاء من كل أنحاء الدولة(١٥). كان الاحتفال التقليدى ببلوغ السن للمراهقين اليهود يعنى الكثير بالنسبة لى؛ لأن نصيبى من القراءة كان الجزء الذى كلم الله إبراهيم فيه قائلا له أن يترك بيت أبيه ويتوجه إلى أرض الموعد ـ كان هو نفس الجزء الذى كان أخى قد قرأه فى نفس الاحتفال ببلوغه السن قبل ثلاث سنوات من ذلك التاريخ. تلك الرواية، التى يبدأ منها وبصورة مؤثرة الخط البيولوجى لإبراهيم، إن له أيضا صدى ورنينا مع الاسم الذى لعائلة والدتى وهو Abeshouse بيت إبراهيم.

لقد ذكرت هاتين العلاقتين لما كان له بالنسبة لى الجزء الأكثر أهمية فى المراسم الاحتفالية. بعد تلاوة الصلوات والقراءات المباركة والتلاوات، جلس الحاخام واقتربت من المنصة بمفردى لتلاوة صلاة قصيرة من الشكر كنت قد أعددتها مسبقا. عم الصمت المعبد بينما كنت واقفا بمفردى، فى مواجهة ثلاثمائة شخص فى حجرة استخدمتها عائلتى كمكان للصلاة لفترة تربو على قرن من الزمان. عم الحدث والتوقع، الهواء كثيف مع الشمس وذرات من التراب، بريق خشب الجوز، المقاعد الخشبية وذكريات الطفولة، كانت ملموسة وواضحة، ولكن أيضا الدفء وحرارة الترحاب، التعانق المتملق للتقليد.

وشعرت فجأة بموجة من الغضب والتوتر تجتاحنى. بينما كنت واقفا حيث أنا ناظرا بخلسة من فوق رؤوس الحاضرين، بنفس الطريقة التى علمتنى إياها والدتى، قارئا من صفحات مهترئة وممزقة من رقعة صفراء كلمات مكتوبة بحبر

---

(١٤) وتعنى حرفيا «ابن الوصية» وهى طقوس البلوغ للصبى فى سن الثالثة عشرة وتعنى بدء تقيده بالتعاليم الدينية (المترجم).

(١٥) الدولة: مصطلح صهيونى تستخدمه الأدبيات الصهيونية؛ للتعبير عن أرض فلسطين بهدف طمس التسمية الأصلية لأرض فلسطين التى كانت تسمى قديما أرض كنعان (المراجع).

أخضر، فجأة لم يعد لبدلتى من وجود، ولا لشعرى من أناقة ولا تشذيب، لقد ذاب بحق جسدى وتبخر بينما هممت بفتح فمى وأصبحت، فى تلك اللحظة، صوتى.

إن كان هناك درس يمكننا أن نتعلمه من حياة إبراهيم المبكرة فلن يكون سوى هذا الدرس: إن الله يسمع عندما يصرخ البشر إليه. لقد سمع دعوة إبراهيم وشكواه فى حاران، ورد بدعاء ونداء من عنده. إن كلمات الله التى نطق بها فى بداية الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين لكلمات مؤثرة وآسرة فى آن، بل من أشد الكلمات أثرا فى النفوس فى الكتاب المقدس العبرى، ونقطة تحول وانكسار فى التاريخ الإنسانى. فكل أبناء إبراهيم، أيما كانت توجهاتهم، يتفقون على شىء واحد، أن الله لم ينطق بتلك الكلمات لإبراهيم فقط، ولكنه يتكلم بتلك الكلمات لكل شخص يتوق لسماعها.

ولكن ما الذى يقوله بدقة؟ لقد حير هذا السؤال اللاهوتيين، ورجال الدين، والمرشحين لـ Mitzvah Bar (سن التكليف الدينى) لأجيال طويلة فالنداء يبدو مشفرا، كمخطط ملغز للإنسانية. لنحل شفرة تلك الكلمات ونفك رموزها وغموضها وسنعيش ناعمين ببركات الله؛ أو لنتجاهلها وسنسقط كما سقطت بابل ويكون سقوطنا عظيما.

الكلمات نفسها بسيطة ومباشرة. قال الله لإبراهيم: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك،".

فأجعلك أمة عظيمة،

وأباركك؛

وأعظم اسمك،

وتكون بركة،

وأبارك مباركيك

ولاعنك ألعنه؛

وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض".

بتلك الكلمات، أراد الله أن يخلق العالم من جديد. كما كان منذ البدء في الخلق الأول، يستخدم الكلمة ليدعو العالم للوجود، ليخلق أرضا ثابتة ويوجدها ويستحضرها من وسط اللاتكون والفوضى. في هذا الوقت فقط، يعد إبراهيم صرة العالم ومركزه، نقطة البداية المقدسة. الصخرة.

على الرغم من وضوح الكلمات وسلاستها، فإنه يبدو الكثير من الأشياء فيها صادما ومحيرا: أول تلك الأشياء، ما الذى تطلبه من إبراهيم؟ والأكثر من ذلك ما الذى تعد به فى المقابل. فالمعاهدات كانت شيئا معروفا جدا فى منطقة الشرق الأدنى كعقود رسمية بين طرفين أو حزبين، عادة ما كانت تتضمن تعهدات والتزامات متبادلة وتوقيع ويتم ختمها تحت القسم. فى الأشكال الصارمة والثابتة التى تتبعها تلك المعاهدات، لو تم إنجاز الواجبات والتقيد بالتعهدات تعم البركة، أما إذا لم تنفذ التعهدات أو حدثت أية خروقات فذلك تتبعه اللعنات.

على الرغم من أنه غالبا ما يشار إلى ذلك الأمر باعتبار أنه عهد وميثاق، فإنَّ كلمات الله ودعوته لإبراهيم تبدو وللوهلة الأولى أنها لا تتضمن أية تعهدات ملموسة من جانب إبراهيم وهو يمثل الطرف المستقبل، على عكس العهد الذى سلم لموسى على جبل سيناء، على سبيل المثال، فهذا الاتفاق أتى ولا يحمل معه أية وصايا أو قوانين أو نواميس، تلك التى يتعين على إبراهيم اتباعها لينال بركات الله مرسلها. إن الأمر يبدو وكأنه تعبير عن الكرم المطلق من جانب الله، كعقد من جانب واحد (١٦).

(١٦) تجب الإشارة إلى أن التوراة تشمل أنواعا مختلفة من العهود الدينية التى تم صياغتها فى ضوء المعاهدات السياسية للشرق الأدنى القديم، وتقسم العهود الدينية فى التوراة إلى قسمين: عهود الالتزام، وهى تلك العهود التى منحها الرب لإبراهيم وإسحاق ويعقوب حيث ألزم الرب فيها نفسه بأن يتملك أبناء هؤلاء الآباء أرض كنعان، ولم يلق على تلك الشخصيات الأبوية أى التزمات دينية أو أخلاقية. أما النوع الثانى من العهود فهى تلك التى ألزم فيها الرب بنى إسرائيل بالوصايا والأحكام =

وبنظرة فاحصة، فما يطلب من إبراهيم هو أن يقوم بشيئين اثنين ليتمم جانبه ونصيبه فى هذا العقد. أولهما أنه يتحتم عليه أن يترك أرضه وعشيرته وبيت أبيه. ويبدو هذا طلب غير عادى على أى مستوى من المستويات، بل ويبدو أكثر غرابة بحقيقة أن إبراهيم رجل مسن، وأن زوجته عاقر، وأنه لا يعرف حتى إلى أين سيذهب. فوجهته التى سيذهب إليها لم يتم وصفها إلا بتلك الكلمات "الأرض التى سأريك." رغم أن الله فيما بعد سيعد إبراهيم ونسله بأنهم سيكونون من الكثرة كعدد نجوم السماء، وأنه سيرث كل الأرض ما بين النيل والفرات.

تقود تلك المراوغة والحيرة إلى الشىء الثانى الذى ينبغى على إبراهيم إنجازه ليتمم الاتفاق: إنه يتحتم عليه أن يقبل التركة من الطرف الذى يعرض الصفقة. وهذا ليس بالتحدى السهل ولا اليسير، ويبدو أنه أكثر صعوبة على إبراهيم، لنقل أكثر من، الإسرائيليين عند جبل سيناء. فهناك كان الله قد أرسل الطاعون بالفعل، وشطر البحر وأمطر عليهم المن والسلوى، وأخيرا آوى بصورة عامة الشعب الذى كان مستعبدا سابقا فى البرية. بعد ذلك يظهر لهم كبرق ورعد على الجبل نفسه، ومع ذلك يصر الإسرائيليون على سبك العجل الذهبى مقاومين الدخول فى عهد مع الله واحترام مواثيقه.

على العكس من ذلك تماما، إذ لم يشهد إبراهيم أية ظهورات تجسدية تعبر عن وجود الله ـ ولم ير عليقة مشتعلة، ولا ضفادع ميتة، ولا ألواح كتلك التى تلقاها موسى، ولا عيون ماء متفجرة من قلب الصخر. بل والأسوأ من ذلك، لم يقدم هذا الصوت نفسه. تتعلم الشخصيات الكتابية فيما بعد أن تلك الفصاحة المجردة تنتمى إلى "إله إبراهيم"، ويسمعون عادة سيرة ذاتية مختصرة. لم يحصل إبراهيم على مثل تلك الاعتمادات ولا تلك الضمانات.

= الدينية والأخلاقية، ليحقق لهم امتلاك أرض كنعان أو ما يعرف باسم أرض الميعاد. ومن أبرز تلك العهود عهد سيناء. وقد أشار كثير من الباحثين منهم جورج متدنهل بأن تلك العهود وبخاصة عهود الإلزام أو العهود المستقبلية التى منحت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب تم صياغتها أثناء وجود اليهود فى بابل لتشجيع اليهود على الهجرة من بابل إلى فلسطين وإعادة توطينهم واستقرارهم مرة ثانية فيها بعد الغزو البابلى لفلسطين وتدمير الهيكل عام ٥٨٦ ق. م. (المراجع).

لذا من كان يظن أنه يعطيه هذا الوعد؟ استنتجت الأجيال فيما بعد أن إبراهيم فهم أن الصوت هو صوت الله، وبصورة أكثر دقة الإله الواحد الأحد. تجمع الديانات الثلاثة على ذلك وبصورة واضحة لا لبس فيها. ولكن فى الحقيقة لم يكن الكتاب المقدس العبرى هكذا. وإن كان هناك ما يحاول إيضاحه، فإنه يقترح آلهة مختلفة، فالصوت الذى نادى إبراهيم إلى كنعان كان صوت يهوه، وعادة ما يترجم بـ "السيد الرب". فيما بعد يجرى إبراهيم الختان بطلب أو لنقل أمر من " إيل شداى" أو " الله القدير" . ويزرع إبراهيم الطرفاء تلبية لأمر من "إيل عولام" أو "الإله السرمدى الأزلى". وهنا يبدو أن إبراهيم، بعبارة أخرى، كان يعبد آلهة متعددة (١٧).. حتى يهوه يؤكد هذه التعددية، حين يخبر موسى النبى أنه ظهر لإبراهيم باسم "إيل نداى" أو الإله القدير(١٨).

ما تقترحه مثل تلك الفقرات والذى يفهمه المتلقى أن إبراهيم كان أبعد ما يكون عن ذلك التوحيد الذى كان عليه موسى، فلم تعد هناك أصداء للشرك الذى كان عليه أجداده تظهر فى الأفق. يعتبر إبراهيم شخصية انتقالية، واضعا قدما فى هذا العالم والأخرى فى ذاك. لو كان هناك أى شىء، يجعل هذا الوضع ثقته فى يهوه أكثر وضوحا. إن إبراهيم الذى تأصل وتربى فى مجتمع وثنى ـ فى عالم حيث نرى الآلهة لها شكل، ومجسدة ويمكن أن يتم التعرف عليها ورؤيتها بأوجه ملموسة وموجودة فى الحياة اليومية، كالصخور و الأشجار ـ يتم إعداده ليضع كل ثقته فى إله يتعذر تمييزه أو تجسيده، أو إثبات وجوده بالمنطق الوثنى. يعد إبراهيم رائيا.

---

(١٧) فى الواقع لم يرد فى سفر التكوين ما يشير إلى أن إبراهيم عرف آلهة مختلفة لكن يتضح من القصة فى سفر التكوين أن الرب ظهر لإبراهيم بأسماء وصفات مختلفة منها إيل شداى «الإله القدير» وإيل عولام «إله العالم أو الإله السرمدى الأزلى «إيل بيت إيل» إله بيت إيل»، وغير ذلك، ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن إبراهيم قد عرف تعدد الآلهة، بل إن التنوع والاختلاف فى أسماء الإله وصفاته فى قصة إبراهيم يعود إلى تعدد مصادر القصة (المراجع).

(١٨) إن ما أشار إليه المؤلف بأن موسى قد أخبر أن إبراهيم عرف الإله القدير «إيل شداى» ولم يعرف الاسم «يهوه»؛ لأنه طبقا للمصدر الكهنوتى ـ أحد مصادر التوراة الأربعة الأساسية ـ لم يعرف الإله بهذا الاسم إلا فى عصر موسى. فقد ورد فى سفر الخروج ... أنا يهوه إله آبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأما باسمى يهوه فلم أعرف لهم » ونفهم من هذه العبارة بداية عنصرة الديانة، وتحول ديانة الآباء من ديانة توحيدية عالمية إلى ديانة توحيدية خاصة (المراجع).

ربما يكون ذلك من أكثر وأهم النقاط أهمية. فعلى الرغم من أنه فهم الصوت، فلم يعد النداء والدعوة كاختبار تذكارى ضخم لإبراهيم. إذ هو دون سابق معرفة عن قواه ومصدر طبيعته الخارقة، أو قضاء طفولته دارس لتاريخه، ودون أى ارتباط أو اتصال به من أى نوع، يتم إجبار إبراهيم على أن يعبر عن تقديس بشرى خارق وعال لهذا الطلب التجريدى. كذلك الشاب الصغير فى القصص البطولية البدائية، فعلى إبراهيم لكى يفوز بيد محبوبته، أولا أن يعلن حبه ويظهره، بالأعمال لا بالأقوال.

ولكن يا له من حافز! إذا كان الله يطلب العالم من إبراهيم فإنه يعرض أن يعيد العالم إليه ـ فالله الذى كان قد أظهر نفسه بالفعل على أنه شديد الغضب والقسوة، ها هو يظهر نفسه ليكون الملتمس لمفاتن ساحرة بصورة هائلة. فهو حقا يريد من إبراهيم أن يقبل عرضه. فى الحقيقة، يبدو من السخاء والكرم الذى يظهره عرضه أنه يريد إبراهيم بنفس القدر الذى يريده هو.

وكدليل على التزامه وتعهده يعد الله إبراهيم أنه ستحدث له أربعة أشياء: ستنشأ أمة عظيمة من صلبه، سيكون مباركا، سيكون اسمه عظيما، سيكون اسمه سبب بركة للآخرين. ومن أجل حسن النوايا يقسم الله أن يبارك مباركى إبراهيم ويلعن لاعنيه. ما يلفت النظر فى تلك القائمة هو كيف أنها تتحرك مما هو محدد وضيق لما هو عالمى واسع. فهى تبدأ من حاجة إبراهيم الملحة، الشىء الذى يريده بشدة وهو: الخصوبة. يقول الرب "سأجعل منك أمة عظيمة". ها هو بحق وبصورة مؤثرة يعد أنه سيهب إبراهيم ابنا. الخالق ـ الرب الإله ـ سيجعل إبراهيم خالقا، أيضا وبفعله هذا سيحيل بعضا من مجده إلى الأرض.

يثير انتخاب الله لإبراهيم مقدس كما يبدو واضحا مخاطر هائلة. فعندما خلق الله العالم مصمما إياه، كان قد أعطى للإنسان السلطة على كل المخلوقات ولكن ليس على بعضهم البعض. ها هو الآن قد قدم لنا فكرة الكهنوت السلطوى. "سأبارك مباركيك/ ولاعنك ألعنه. "مجموعة من البشر يحصلون على بركة الله؛ وآخرون لا يحصلون عليها بل على العكس، لم يزل هناك إله واحد ولكن هناك

مجموعتان من البشر. حتى قبل أن تنشأ أية توترات بين نسل إبراهيم، توجد مشكلة أبدية، وأكبر من أية مشكلة بين كل نسله وأى أحد آخر.

يبدو علم الله الواضح لتلك من هذا الإخفاق التام المحتمل، والذى كان قد قدمه، يحاول بسرعة أن يحسنه. فبعد أن يعد بأن يتمم حاجة إبراهيم الماسة والشخصية للخصوبة البيولوجية، يقتحم الله الخيمة ويقدم لإبراهيم الفرصة ليوفر خليفة وخصوبة روحية للعالم أجمع. إنها فى تلك الكلمات - "وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض." - التى يرفع الله بها إبراهيم إلى المكانة العالية الرفيعة التى سيشغلها إلى الأبد.

لم يعد إبراهيم مجرد شخص، باحتياجات شخصية. لقد أضحى وكيل الله على الأرض. تلك الرمزية العميقة لدرجة أن صداها يظل يدوى عبر القرون، يقوى هذا الصدى متصاعدا من جيل إلى جيل، حتى يسمع هذا الصدى فى بلايين من الصلوات اليومية حتى يومنا هذا: لقد تم اختيار إبراهيم ليس لأجله هو بل من أجل العالم أجمع.

تلك هى القوة الحتمية المطلقة التى لتلك الدعوة ولهذا النداء: إنها دعوة للعالم ليكرس نفسه لله. مرة أخرى يرسل الله غصنا من الزيتون للبشرية. ويقول مقترحا، لو وضعت حياتك بين يدى، ستتم مجازاتك وتنال البركات. وحيث إن البشر أهانوا هذا الغصن فى الماضى واستخفوا به، فالله يطلب الآن عربونا؛ افعل هذا اليوم لتحصل على ذلك غدا.

يقدم هذا الطلب الدليل على فجوة هائلة وهوة عظيمة. ففى دعوة الله، التضحية معروفة، والمكافأة أيضا معروفة، ولكن السبيل، الموقع، وحتى مسلم الرسالة غير معروف. أن تكون من نسل إبراهيم هو أن تعيش فى تلك الفجوة - أن تنظر خلفك إلى أرضك الأم، أن تحدق النظر لأعلى إلى بغيتك المجهولة، وأن تتعجب، وتتسائل، هل أمتلك الشجاعة لأقوم بتلك القفزة الهائلة؟

يقوم إبراهيم بعمل تلك القفزة مما يؤمن له مكانة رفيعة وسمعة طيبة على مر العصور. يعتبر النص واقعيا وعمليا لدرجة تجعله يخفى الدلالة: "يتجه إبراهيم شرقا كما أمره الله". يفعل هذا فى صمت، منضما للوصية بقدميه لا

بكلماته. يفعل الرجل البدوى الرحال ما يفعله بأحسن صورة، فهو يسير ويمشى متنقلا من مكان لآخر. وبعمله هذا يترك إبراهيم مجموعة من آثار الأقدام التى لا يمكن محوها. فهو لا يؤمن بالله؛ ويؤمن بالله. لم يطلب دليلا؛ ويقدم الدليل.

عهد إبراهيم لله غير المنطوق به ليس سوى عهد مهيب جدا، وهو يشكل بندا مركزيا فى كل الديانات الثلاث الإبراهيمية. تعتبر علاقة اليهود بالدعوة أو النداء من أكثر العلاقات تعقيدا. يتسائل المفسرون هل الله هو الذى بدأ العلاقة أم إبراهيم؟ يبدو أن الأسفار المتأخرة فى الكتاب المقدس العبرى تضع المجد مع الله. إذ يتحدث نبى الله إشعياء عن تحرير إبراهيم وتخليصه؛ ويمجد نحميا النبى الله ويسبحه على اختيار إبراهيم وجعله يتحول شرقا تاركا أرض أور.

تقليديا، يبدو النداء كاستهلال لعملية الهجرة التى ستتأصل فيما بعد وتتكبد فى إبراهيم لكونه تم وعده بالأرض نفسها. كما يضيف نحميا "أنت هو الرب الإله الذى اخترت إبراهيم وأخرجته من أور الكلدانيين. ووجدت قلبه أمينا أمامك وقطعت معه العهد أن تعطيه أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين وآخرين. وقد أنجزت وعدك لأنك صادق" [١٩].

فيما بعد، عندما تم نفى اليهود من أرض الميعاد، بدأ المفسرون اليهود يؤكدون أن ذهاب إبراهيم وتقدمه إنما قدم رحلة داخلية بصورة أكبر وروحانية بصورة أكبر أيضا ليصبح إبراهيم الآن الملتمس لله. وعلى سبيل المثال، قال الحاخامات فى العصر الوسيط إن كلمة lech-lecha يجب أن يتم تفسيرها على أنها "اذهب إلى نفسك، كما فى ارجع إلى جذورك، ولتجد قوتك الكامنة الحقيقية. كما شرح لى دافيد ويلنا David Willna عند الحائط: "إننا كيهود يجب أن نكون متعهدين

(١٩) ورد هذا النص فى سفر نحميا ٩: ٧ ـ ٨ ويشير إلى أن الرب اختار إبرام، وأمره بالخروج من أور وغير اسمه إلى إبراهيم. ووجد الرب إبراهيم أمينا صادقا لذلك قطع معه عهدا ولنسله بامتلاك أرض كنعان. غير أن المؤلف أشار إلى أن نحميا كان نبيا، وهذا غير صحيح فلم ترد أى إشارة فى العهد القديم بأن نحميا كان نبيا، كما أن سفره فى النص العبرى والترجمات لا يوضع ضمن أسفار الأنبياء أو أسفار النبوات (المراجع).

ومسلمين بالحراك والنشاط والنمو، ولكن يجب أن يكون هذا من أجل الأسباب الصحيحة. لا يحتاج الله لمساعدتنا. يجب أن نفعل هذا من أجلنا نحن."

فى حين يؤكد الإسلام ويشدد على خضوع إبراهيم الكامل لإلهه، وينظر إلى الوعد و النداء على أنه مكافأة له على ورعه وتقواه. كما تقول سورة النحل **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتبيناه وهديناه إلى صراط مستقيم. وءاتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾**. كان إبراهيم مثالا للطاعة. وهو رجل صالح مطيع لله" فى الواقع أن كلمة مسلم نفسها تعنى" الشخص الذى يخضع لله". ويقول النص القرآنى إن إبراهيم كان مثالا أخلاقيا يحتذى لدرجة أنه حتى وهو صبى صغير فى بابل كان حنيفا، وهو الشخص الذى يمارس التوحيد المطلق. أى أن إبراهيم كان موحدا وبصورة قاطعة.

يوضح القرآن أنه بسبب تلك المعرفة لتلك السمات والميزات اختار الله إبراهيم، وجعله قائدا لأمة عظيمة كما جاء فى سورة البقرة **﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾** يطلق النص على تلك اللحظة عهدا، ويعتبرها بداية لأمة المسلمين التى تزدهر وتصل لثمارها فى محمد.

"يتم النظر إلى إبراهيم واعتباره مؤسس الإسلام كما نفهمه" كان هذا ما قاله الشيخ فيصل عبد الرؤوف، إمام مسجد الفرح فى مدينة نيويورك؛ وهو مفكر ومحاضر دولى عن الإسلام. وهو رجل هادئ وشيخ وقور جليل، ذو شعر أبيض متراجع خلف رأسه، ولحية قصيرة دقيقة، ويتمتع بأسلوب هادئ ولكنه ساحر فى الحديث، ولهجته خليط من الإنجليزية الإكسفوردية متأثرة بلكنة أمريكية فى بعض الأحيان. رحب بى فى غرفة معيشته فى مانهاتن، تلك الحجرة التى كان يغطيها سجاد يدوى يميل إلى الأحمر الداكن، وتربع الشيخ على أحد الكراسى.

واستمر الشيخ قائلا "إنى أعتبر عهد إبراهيم مع الله لم يكن عهدا شخصيا إلى حد كبير. إنها الفكرة التى سيؤكدها إبراهيم أن الإيمان بإله واحد لن يموت بموته. وأنه سيورث رسالته وينقلها لنسله ويقيم أمة من الناس قائمة على أساس التوحيد والتسليم لله. وفى هذا تتشابه فكرة إبراهيم مع الفارق مع دستور الولايات المتحدة، أمة واحدة تحت الله.

ولأن إبراهيم سلم هذا التسليم الكامل، فقد اختار الله إبراهيم ووضعه على الطريق المستقيم، وقام بإخراجه من بابل وأوصله سالما إلى سورية، التى تتضمن كنعان جغرافيا. يسمى القرآن وجهته بالأرض "المباركة لكل الجنس البشرى" ويقترح أن إبراهيم وافق على الذهاب ليعبد الله كما عرف أنه واجب حتمى.

ينظر الإسلام، كما اليهودية للرحلة على أنها ليست مجرد رحلة خارجية ولكنها داخلية بنفس القدر. فكل المسلمين أصحاب الأذهان الروحانية يقولون إنه عندما نصلى يجب أن نحاول أن نكون فى حالة إبراهيم "على حد قول الشيخ عبد الرؤوف"، يجب أن نحمل رسالة إبراهيم ووجهة نظره ونقدمها للعالم أجمع. يجب أن نحاول أن نكون إبراهيميين فى كينونتنا ووجودنا.

ووصف كيف تكون إبراهيميا؟

" أولا التفانى والتسليم الكامل لله، حتى وإن تضمن هذا أن تترك أهلك وعشيرتك وتغادر مدينتك. وبصورة أخرى، أن نجعل من أنفسنا عهدًا، ويكون لنا اتفاق تعاقدى خاص بنا مع الله. فلدى كل منا عهده الخاص الذى ينبغى أن يقطعه مع الله"، سأعبدك؛ لأنك إلهى وأنت بدورك ستعتنى بى وتعيننى.

"وأخيرا أن تعرف نفسك بصورة أعمق. فالهدف الأول من الدين هو أن تعرف الله، ولكن السبيل الوحيد إلى ذلك أن نكتشف الله من داخلنا وعبر وعينا الخاص. لقد حدث هذا لإبراهيم، ويمكن أن يحدث لنا. ولأى شخص يحدث وأن يختار أن يعيش حياة متفقة مع أوامر الله وشرائعه.

يعتبر اليهود والمسلمون النداء مهما جدا، أما المسيحيون فيرونه عملاً معروفًا لحياة إبراهيم. فقبل المغادرة إلى أورشليم، ذهبت لزيارة بعض أصدقاء الاسرة القدامى فى مدينتى. كان أول شخص قمت بزيارته هو جون ليونز John Lyons

الذى كان يسكن فى مقابل البيت الذى نشأت فيه. كان جون الطفل الأكبر من بين تسعة أطفال من كاثوليك أيرلندا، كان قد قرر بعد مشاورات ومداولات مطولة أن يدخل إلى الكهنوت. كان لوالدتى الأثر الأعظم فى اتخاذه لهذا القرار وقد رسمت صورة تصور صراعه مع نفسه كانت معلقة فى حجرة طعامنا حين كنت طفلا صغيرا.

قال الأب جون: "إن النداء شىء حاسم لكل. كان الأب جون يقترب من الخمسين بشعر أحمر قليل، وكان يرتدى قميصا جعله أقرب لقاطع أخشاب منه لكاهن. "أما قبوله لهذا النداء هو الذى جعله أبا الإيمان".

كنت قد أتيت من أجل الحديث عن تلك الفكرة من الإيمان فى المسيحية، والتى كنت قد قرأت عنها ولكنها لم تكن مفهومة إلى حد ما. ففى رأى الكثير من المسيحيين الأوائل أن الإيمان فى قصة إبراهيم تأصل فى سيره أمام الله. تلك العلاقة التى أوجدها وتحدث عنها بولس، وقد كان يهوديا فى القرن الأول للميلاد وكان يضطهد المسيحيين ثم أصبح رسول المسيحية الأعظم. ويرى بولس أن الصدارة التى لإبراهيم فى عهده مع الله قد تم تأسيسها على الإيمان، وبصورة خاصة "فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء" فى وعد الله بأنه سيصير أبا، ويكون له نسل رغم كبر سنه. يكتب بولس عن إبراهيم فى رسالته إلى أهل رومية "وإذ لم يكن ضعيفا فى الإيمان لم يعتبر جسده وهو قد صار مماتا".

يؤكد بولس أن الأمميين أيضا كانوا قادرين على مثل هذا الإيمان، ويمكن أن ينسحب هذا على ساحة الخلاص الإلهى المقدس. لكى تكون ابنا لإبراهيم عليك أن تستجيب لنداء الله ودعوته، وتبدأ الرحلة وتصبح غريبا. بنفس السهولة التى تنسى بها اليوم - حيث المسيحية هى الديانة المسيطرة على نصف سكان العالم - فالمسيحيون الأوائل كانوا يشعرون بإحساس قوى بأنهم غرباء. فلدى الرحيل أهمية قصوى للهوية المسيحية.

استمر الأب جون شارحا، بصوت عاد مستو لم يتأثر بسنوات من المنبر، قائلا: "إن الدرس المستفاد من إبراهيم هو أنه يجب عليك أن تكون تواقا للمخاطرة بكل شىء. يجب أن تتخلى عن كل شىء من أجل الله. حتى فى العهد

الجديد يقول السيد المسيح: إذا لم تكن راغبا فى التخلى عن الزوج والزوجة والأم والأب والأولاد من أجل ملكوت السموات، فأنت لا تستحق أن تتبعنى. والخط القابع فى الأعماق هو أنه إذا كنت مستريحا جدا، وآمنا جدا وكل أشيائك تحت السيطرة، عندها لن تكون راغبا وتواقا لأن تثق فى الله.

والكتاب يقول "أريدك أن تضع ثقتك الكاملة فى يا إبراهيم". فلن تعرف من أين تأتيك الوجبة التالية. ولن تعرف أين يكون موطنك التالى. إن دخلت فى عهد معى، يجب أن تثق بى بكل ذرة (خلية) من جسدك. وإن تفعل ذلك، أباركك."

كما هو الحال بالنسبة لليهود والمسلمين، يرى المسيحيون أن الدعوة تتضمن رحلة داخلية. كما أخبرنى الأب جون "لن يتم دعوة معظمنا للقيام بمثل تلك المخاطرة، ولكن علينا أن نكون راغبين فيها وتواقين لها. يجب أن نقول إن دعوتنى يا رب فيجب على أن أصلى لنوالى نعمة القبول. ربما لا يجب عليك القيام بها بصورة جسدية، ولكن على المستوى الروحى يجب أن تقول لله، باتباعى لك وحفظ وصاياك سأجد السلام الذى للمعرفة، والفهم الذى سيجعل حياتى مختلفة."

"إنها كالصلاة الربانية. فعندما أعظ الناس أقول لهم إنها صلاة مخيفة جدا. لأنك عندما تصلى قائلا "لتكن مشيئتك" فإنك تقول، حسنا يا إلهى، إننى مستعد لأن أفعل مشيئتك. ومع ذلك يريد معظمنا أن يفعل مشيئتنا نحن، إن معظمنا تحكمه النزوات. نريد الأمان الذى سنجنيه بأن نمتلك بيتا، ويكون لدينا وظيفة، ونضمن حماية لمستقبل أبنائنا، ويكون لدينا حسابات توفير فى البنوك. لكن الله يقول إن كل تلك الأشياء لن تجلب لك الأمان الذى تحتاجه بحق لحياتك".

سألته قائلا: "ولكن كيف تعرف حين يدعوك الله؟"

"سيكون الأمر جميلا أن أتلقى رسائل إلكترونية من الله تقول لى، أريدك أن تصبح حاخاما، أو كاتبا، أو كاهنا. أحاول أن أخبر الشباب الصغير أنه إن أردتم أن تفهموا ما يقوله الله، فأنت فى حاجة ماسة لأن تكون هادئا ومُركزا فى حياتك.فى أحد الأيام كنت أقود سيارتى لتوصيل ابنة أختى للمدينة. كانت طالبة

فى السنة الثانية فى المدرسة الثانوية ولم تعجبها الأقراص المدمجة (ال سى دى) التى كانت بحوزتى. فقلت يمكننا أن لا نشغل أيا منها ويعمنا الصمت. فردت قائلة: "لا. لا الصمت شىء ممل وقاتل!".

"فمعظمنا لا يشعر براحة مع الصمت. فنحن نعود للمنازل لنضغط على أزرار أجهزة التسجيل، ونوقظ شاشات التلفاز، ونخلد للنوم على تلك الأصوات، إننا دائما ما نملأ الدنيا صخبا بالموسيقى والكلمات. أما المسيح وإبراهيم فقد خرجا للصحراء. لقد هربا من كل الانحرافات.

أتت إلى سيدة مؤخرا لتقول لى: "أنا فى حاجة للمساعدة؛ لأقرر ما إذا كان ينبغى أن أجرى عملية زرع قلب أم لا. قلت لها لا يمكننى أن أعطيك أية نصائح. الشىء الوحيد الذى يمكننى أن أقوله لك هو أنك فى حاجة للهروب فى عطلة نهاية الأسبوع. اصمتى وصلى.يجب أن تتحدثى مع الناس- ومع طبيبك ومع زوجك. ولكن فى التحليل النهائى، الطريق الوحيد الذى ستجدين فيه السلام فى اتخاذ قرارك ـ السبيل الوحيد الذى ستجدين فيه السلام مع الله- يكمن فى الصمت."

"لذا فرسالة إبراهيم هى فى الهروب!"

"رسالة إبراهيم هى أن تكون وحيدا بمفردك، هادئا، وأن تنصت. إن لم تسمع النداء فى المقام الأول، لن تعرف أى الطرق تسلك."

بعد أن تركت الأب جون، توقفت بمعبد يهودى، وهو ثالث أقدم معبد فى القطر، وواحد من الأماكن البارزة والمؤثرة فى حياتى. لم يكن أرين بلزار حاخام طفولتى، ولكن فى السنوات التى كان قد قضاها فى سافانا قام بمراسم عقد قران أختى، ومراسم تأبين جدتى وذكرى خالى. وأرين رجل لطيف جهورى الصوت، ومولع بالسيارات الفارهة وزخرفتها. جلسنا فى صحن المعبد، كان دافئا كعهدى به، والآن بوسائد على المقاعد الخشبية. كانت العقود القوطية لوزية اللون حديثة الدهان. فتحنا الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين.

"إن ما أراه هنا، دائما، هو استجابة إبراهيم لتلك الدعوة من، ولم يتم ذكره من قبل أمامه. ولم يسأل. ولم يطلب أدلة ولا براهين. أرنى شيئا! أى شيء! ما اسمك؟ حتى موسى سأل الله هذا السؤال. إنه شيء قوى - ومثال للثقة المطلقة العمياء. ولكنها لا تبدو يهودية بصورة شديدة. إننا نركز كثيرا ونؤكد على إبراهيم الذى فيما بعد. ولكن ما يعتبره الإسلام مثالا عظيما هو قبوله وإذعانه لله. والمثال الأعظم الذى تراه فيه المسيحية التى تضع الأولوية للإيمان.

قلت: "دائما ما أتسائل ما إذا كان مثالا جيدا للحياة، فراره من عائلته وجلبه لعائلته."

قال الحاخام بليزر: " لن تنضج أبدا حتى تهرب، بدأت تزحف اللهجة النيوجرسية على حديثه العذب بلهجته الغربية، عندما كنت فى مدرسة الأحبار أخبرنى واحد منهم أن اللحظة التى تنضج فيها هى تلك اللحظة التى لا تبالى فيها برأى والديك فيك. كانت تلك الكلمات كالظهور بالنسبة لى. حسنا، قال لى، أنت تحب والديك وتبقى دائما وأبدا على هذا الحب، ولكن لن يكون الأمر سيئا إذا لم يوافقوا ويحسن فى أعينهم ما تفعله. سيكون الأمر طبيعيا إن تركت بيت أبيك لتذهب إلى مكان آخر، ربما يشعرون بالإحباط. ربما يفتقدونك كثيرا. ولكن عندها تكون أنت رجلا ناضجا.

"أعرف رجلا فى الخمسين من عمره، ولم يبلغ هذا المبلغ حتى الآن. حسنا، لقد انتظر إبراهيم طويلا حتى وقت متأخر من حياته لينضج وأخيرا نضج. ولكن يجب علينا جميعا أن نهرب من آبائنا، حتى ولو بصورة مجازية. لا أريد أن أخبر هذا الشخص، حالا، لن يهم، والداك سيتفهمون الأمر ويعتادون عليه.

ولكن بطريقة أو بأخرى يحتاج شخص ما ليقول له: اذهب وهى بالعبرية ليخ لاخاه Lech- lecha

لذا يصبح إبراهيم نموذجا ومثالا.

"سأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك كل أمم الأرض". من الواضح هنا أن البركة المقصودة هى بركة التوحيد وهى التى يدور عنها الحوار هنا. يقول

الرب، عن طريقك أنت يا إبراهيم ستصل معرفتى ورسالتى للعالم أجمع. أشعر أن تلك الكلمات إنما تكتب لى ولك ولكل شخص ينظر للوراء ويرى ويفهم، إننى جزء من تلك السلسلة المتصلة. لم أزل بركة لبقية العالم.

سألته إن كان يعتقد أن إله إبراهيم كان إلها واحدا أو ربما شيئا آخر.

"لا يهم. فدائما ما أضع الإله غير المرئى، والإله الواحد معا. فالدلالة التى نفهمها من الله غير المرئى هى أنه لا يرتبط بمكان محدد؛ إنه متحرك ومتنقل بصورة تامة وكلية. إنه يسمح لك أن تذهب إلى أى مكان فى العالم. وتجده فى أى مكان ولن تتركه. ستجده دائما معك. كنا نبنى دينا متنقلا بصورة مطلقة وكاملة. "وتلك الديانة هى "الإبراهيمية". فهو يقول إنه من الطبيعى أن لا تكون فى وطنك الأم، ولا يكون لك أرض مطلقا. لقد ترك بيت أبيه، وهو يعلم علم اليقين أن والده سيظل دائما فى قلبه. سأذهب إلى مكان آخر، وأجرب شيئا جديدا. سألقى بزهرى مع إله متنقل، إله كل أحد وكل مكان.

قلت: "لذا إذا كان كل ما تقوله صحيحا، عندئذ يكون النداء هو الممر العالمى الأكثر أهمية فى قصة إبراهيم كلها".

"إنها كذلك. فالنداء يقول إن العلاقة مع الله ليست علاقة الانتماء، ولكنها علاقة الغربة. كلنا غرباء فى هذا العالم. وإبراهيم مبارك ـ وكل أمم العالم مباركة ـ لأنه امتلك الشجاعة ليذهب إلى مكان آخر ويجعل نفسه غريبا، لأنه، صدقنى، فى بعض الأحيان فى حياتنا، يجب علينا جميعا أن نذهب إلى مكان آخر، أيضا، ونجعل أنفسنا غرباء.

بينما كان ينتهى من كلامه، كانت عيناى تتجولان فى الحجرة. كان النور مضاء فوق تابوت العهد، كان الضوء المتسلل عبر النوافذ الزجاجية غير الشفافة ساطعا وواضحا، وصف من الألواح المعلقة على الجدار مكتوب عليها أعضاء من أفراد عائلتى الذين فارقوا الحياة. لم تزل أمى تحب أن تجلس بالقرب من تلك الألواح التذكارية.

رجعت بذاكرتى إلى الوراء إلى يوم "سن التكليف الدينى" Bar Mitzvah من بين الأحداث الكثيرة التى صاحبت عطلة نهاية الأسبوع تلك. حدث واحد ظل فى مخيلتى. ففى مساء ذلك السبت، وبعد انتهاء المراسم الاحتفالية، دعا والدى ما يربو على السبعين شخصا من الأصدقاء والعائلة إلى منزلنا. كنت أرتدى حلة بنية بصدرة، وبينما نحن فى منتصف الطريق للحفل المقام من أجلى نادانى أبى واصطحبنى إلى البار القابع بالقرب من المطبخ . وطلب مشروب الجن ومعه منشط. عندما أصبح المشروب جاهزا، أحاطنى أبى بذراعه، ووضع المشروب فى يدى وقال: "يا بنى، إنك من الآن رجل، ومسئول عن أفعالك وتصرفاتك".

بينما كنت جالسا فى المعبد مرة أخرى، متذكرا ومتفكرا فى تلك اللحظة، وممعنا النظر والفكر فى طفولتى، بدأت فجأة فى تثمين تلك القوة الراسخة التى لتلك الحجرة المهيبة، الرنين الذى لنصيبى من التوراة ذلك الذى قمت بقراءته فى ذلك اليوم المخزى الكامن خلف كلمات أبى. جزء من الميراث الذى لإبراهيم، الذى كنت أكتشفه، كان أتيا من مكان دافئ ولكن كنت معدا أيضا لمغادرة هذا المكان. إن السبيل الوحيد لتكون لك عائلة خاصة بك فى يوم ما هو أن تترك عائلتك التى نشأت فيها وترعرعت بين أحضانها، والذى يجذبك ويجعلك قريبا جدا للأسرة التى تركتها خلفك. فبالنسبة لى على الأقل، ساعدتنى صدمة الفراق والانفصال أن أقدر مشاعر الاتصال والارتباط الذى ربما كان من نوع آخر قد بدا أنه خامد ومكتوم. لقد فرض على ألم الوحدة أن أكتشف الميراث الذى للبيت الذى حملته بداخلى وأنا جائل. ولكونى بعيدا عن والدى سمح لى أن أدرك أنه أن تكون أبا فأنت مبارك ـ وأن شعورك بالاستقلال لا يقارن أبدا بشعورك بالحماية.

لم أفهم كل الطبقات التى للرسالة المتضمنة فى قصة إبراهيم حتى أعدت قراءة القصة مرة أخرى وأنا بالغ، ولم أفهم أيضا غرضها فى حياتى إلا بعد ذلك. لحسن الحظ أن والدى قد فهم ذلك أولا. كنت يوما ما صبيا فى هذا المكان، وكان والدى نفسه الذى أصر قائلا: "اذهب من أرضك".

أولاد إبراهيم

(٣)
إسماعيل

تبدو الصحراء مكسوة باللون الأخضر هذا الصباح. اللون يؤثر فى العين. طابور من الجمال يتجول على غير هدى بلا هدف. صقر يدور فى السماء متفائلا. ولكن فى الأسفل حيث مجرى النهر، الذى تيبس وتصلب على أثر نصف سنة من الجفاف تحت أشعة الشمس الحارقة. ولكنه بدأ يصبح موحلا، كم هى مريحة تلك الخضرة للأرض العطشى: لقد أتى الشتاء ومعه أتى الماء. الماء هنا.

قال لى رامى خروبى Rami Harubi: "تلك هى صحراء بئر سبع، تلك هى صحراء إبراهيم".

ورامى خروبى واحد من الأنماط العالمية، شائع فى الشرق الأوسط بصورة خاصة: شخص ميال إلى التعجب بالشعر الطبيعى، بارع ومبدع ومثقف فى لغة الرمل، وغالبا ما يغطيه التراب. رجل صحراوى، نصفه مطور أيكولوجى ونصفه فيلسوف، وصديق قديم، يعيش رامى فى النقب، ويحلم بجنة من هذا القفر السرمدى، وهو رجل طويل أشيب .

"بإمكانك رؤية إبراهيم سائرا مثل هؤلاء البدو، "قال مشيرا لراع يرعى قطيعا من الأغنام. مضت ثلاثة أسابيع على أول هطول للمطر. "فلتشتم رائحته"، رفع بيده باقة من العشب والحشائش التى لم تكد تنبت، ولم تزل صغيرة وضعيفة وقصيرة، لها رائحة النزهة فى الهواء الطلق. "أطلق عليها اسما خاصا وهو سقوط العذراء. فمن الآن فصاعدا، يتملكنا شعور باستيقاظ الأرض من ثباتها.

فقد أضحت الأرض من الرطوبة بما يسمح للبذور بالإنبات. وهى أيضا مبللة بما يكفى للنمل بوضع البيض على الأرض. البعوض ينتظر تلك اللحظة وكذلك نحن. وسنقضى الستة أشهر القادمة فى سعادة وهناء وسعة من العيش".

لقد أحضرنى رامى إلى الصحراء القريبة من بئر سبع، حيث كان يعسكر إبراهيم خلال جولاته الكثيرة فى المنطقة، ليرينى ما يحدث أثناء الفيضان المندفع المفاجئ. ويريد أيضا التحدث عن الأسئلة التى فى قلب حياة إبراهيم: هل سيرزق بولد؟ هل سيكون لديه أكثر من ولد؟ إذا كان الأمر كذلك من سيرثه؟ ستتحكم محاولة الإجابات على تلك التساؤلات وتسيطر على حياة إبراهيم لبقية الكتاب المقدس العبرى، كما هو الحال للعهد الجديد والقرآن. كيف يتم حل تلك الأمور سيضع الأساس لكيفية العلاقة بين نسل إبراهيم وأحفاده نحو بعضهم البعض إلى الأبد.

قال لى رامى: "دائما ما أجلب عائلتى لقضاء أول ليلة لهطول المطر بجوار هذا المجرى الذى للنهر. لو تقم بوضع رأسك على الأرض تستطيع أن تسمع المياه القادمة من على بعد اثنين كيلومتر." قلد بصوته صوت الإعصار. "يمكنها دحرجة الأحجار، وتحريك السيارات، ولو يحدث هذا وأنت نائم بعمق لربما تجد نفسك فى البحر المتوسط، أو لا تجد نفسك على الإطلاق.

" لكن عندما تأتى المياه، فهى تستمر قدما وحسب. كل ما تريده وتتمناه هو أن تقبض عليها، وتتشبث بها. انتظرى، نحن فى أمس الحاجة لك! وهنا تأتى النقطة المهمة." يسير بى حول المجرى، حيث برك صغيرة تبقى مترسبة فى أحواض الحجر الجيرى، بقع صغيرة من البلور الصخرى لا يبدو فيها ماء على الإطلاق. مساحات كبيرة من الأرض مشققة بفعل الجفاف. " تروى الحيوانات ظمأها من تلك البرك لذا فهى لا تدوم طويلا. أما المياه الحقيقية فهى قابعة تحت تلك البرك. إن أردت البقاء حيا هاهنا، عليك أن تعرف قوانين الأرض وتسبر غور أسرارها".

يضع يده بصورة مستوية فى الهواء "تلك هى الصحراء"، ثم يضع يده الأخرى عليها "هؤلاء هم الناس الذين يقطنون هنا"، ما بين الناس والصحراء لابد من

وجود الماء. قصة إبراهيم هى قصة الماء، فهو يقوم بعمل شيئين هاهنا: يزرع شجرة ويحفر بئرا. هذا يبين أنه فهم الماء، وأنه أصبح ماء؛ لقد وهب الحياة لجميعنا.

إن يكن من الصعب إيجاد الماء فى الصحراء فالأصعب منه أن تجد إبراهيم فيها. فقد جفت واختفت منابع المياه التى كانت له، وغمرت روافده، ولكن فى الغمر الذى للمادة فيما يخصه، هناك حقيقة واحدة ثابتة وواضحة. فكل الديانات الثلاث تعتمد بصورة واسعة على نفس التقليد الأساسى القديم والمتأصل وفى حالات كثيرة، المصدر النصى الكتابى ذاته.

فأنبياء الكتاب المقدس العبرى يشيرون إلى إبراهيم الذى ورد فى سفر التكوين، وكذلك تفعل الأناجيل، حتى القرآن يشير إلى إبراهيم الذى ورد "فى الكتاب". إن سفر التكوين لهو بحق المكان الوحيد الذى يسبر السرد الذى لقصة حياة إبراهيم بأى صورة شاملة، أما الكتب الأخرى فهى تفترض أن يكون القارئ يعرف القصة الأساسية دون شك.

يعطى هذا الافتراض الرواية الكتابية أولية وأفضلية مؤكدة فى قصة إبراهيم، ولكنها توجد مشكلةً أيضا. فالكتاب المقدس العبرى لا يحاول أن يكون شاملا، فكل جزء من القصة يتضمن - حتى بالنسبة للقارئ العادى - يبقى هناك الكثير من التفاصيل غير واضحة. "انتظر" يريد القارئ أن يصرخ قائلا: "هل يمكننى أن أطرح بعض الأسئلة قبل أن تنتقل إلى جزء آخر؟ يفشل الكتاب المقدس كتاريخ؛ ويحبط من يريده كتحقيق صحفى. ولكن ربما يكون هذا الشىء تحديدا هو سر نجاحه كراو وسارد للقصة وكنص مقدس.

تعتبر القصة التوراتية لإبراهيم انتصارا للحذف والقطع الأدبى؛ فالنص يعطينا ما يكفى من التفاصيل فقط لتسلم عدد لا يحصى من الرسائل، ولا يزيد مقطع واحد عن ذلك. ونتيجة لذلك، فلو أردت أن أفهم إبراهيم، حتى إبراهيم الذى يظهر فى التقليد المسيحى أو الإسلامى، أيقنت بسرعة أنه يتحتم على أن أبدأ بقراءة متأنية للقصة كما تظهر فى سفر التكوين.

وهذه القصة تبدأ بجدية مع الدعوة (النداء)

ففى اللحظة التى يغادر فيها إبراهيم حاران تتحول القصة من النظرية ---" الأرض التى أريك إياها"--- إلى التطبيق العملى - إلى أين أنا ذاهب؟ يعكس النص هذا التغير فى الحال. يأخذ إبراهيم زوجته وابن أخيه لوطا وكل مقتنياتهم التى امتلكوها فى حاران، ويشرعون فى رحلتهم "نحو أرض كنعان". فى الآية التالية "واجتاز إبراهيم فى الأرض إلى مكان شكيم"، فى أرض الميعاد، ويظهر الله قائلا: "لنسلك أعطى هذه الأرض"، هذا هو التكرار الثانى للوعد، والأول الذى يربط إبراهيم بمنطقة معينة. يقدم هذا التحول أيضا منحى جديدا وبعدا آخر للقصة البعد الجيوبولوتيكى.

فقدرة إبراهيم على أن يجد نفسه فى مركز سياسات العالم ليس بجديد؛ فقد بدأ منذ القدم. النطاق الكامل من تاريخ الشرق الأدنى القديم لعب على شريط ضيق من المياه التى تغذيها الأرض تسمى منطقة الهلال الخصيب. تشكل المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات الذراع العليا لذلك الهلال الخصيب، والذى حوى إمبراطوريات بابل وأشور وسومر، أما الذراع السفلى فقد كانت مصر والنيل الذى قامت على ضفافه الحضارة الفرعونية.

بينهما المناطق فقيرة المطر على ساحل البحر المتوسط، تلك الأرض الفقيرة بلا أنهار عظيمة تفيض، وبالتبعية لم يقم هناك إمبراطوريات عظيمة ترهب جيرانها وتخيفهم. وإن كان من شىء هناك فلا يوجد سويت، الشريط الواقع فى مركز هذا الهلال الخصيب - وهو ما يعرف الآن بلبنان وسوريا وإسرائيل والمناطق الفلسطينية - كانت تمثل القلب الاستراتيجى لتلك المنطقة، وناضلت كلتا الذراعين من أجل السيطرة عليها. ولم تتمكنا لزمن طويل، مما ساهم فقط فى إشعال المنافسة.

إن قصة إبراهيم كما تبدو فى سفر التكوين لهى تجسيد تام لتلك المعركة. إنها قصة عن الصراع من أجل السيطرة على أرض الميعاد. معركة خصبة فى مهد الخصوبة. لقد ولد إبراهيم فى المنطقة المسماة ميزوبوتاميا Mesopotomia

أو بلاد النهرين أى: العراق التى تشكل الذراع العليا لمنطقة الهلال الخصيب. محروم من الأرض والبذرة، يسافر لأرض الموعد، حيث يوطد مطلبه بسرعة بتلك المنطقة. يحدث الجفاف ويضرب الأرض الجوع، فيطلب إبراهيم اللجوء إلى مصر ويتغرب فيها.

ما يتبقى من تلك القصة هو ذلك القتال الملحمى على نسل إبراهيم، والذى يتم شنه من امرأتين، واحدة تنتمى لموطن إبرهيم سارة، والأخرى من مصر - خادمة سارة - هاجر. ولكونه قد حرم من الأرض الغنية، لذا يتحتم على إبراهيم أن يستدعى القوة والقدرة على الإخصاب. ولكى يقوم بهذا فإنه يتحول بحياته كلها ويتسلمها بيد الله. كما يوضح ذلك رامى قائلا: "إن ابتكار إبراهيم يكمن فى مغادرة أرض الأنهار؛ ليذهب إلى مكان ما جديد، حيث يكون عليه أن يخلق عالما جديدا".

وعند وصوله إلى مصر، يخشى إبراهيم أن يقتله الفراعنة من أجل سارة، التى تبدو "حسنة المنظر" لذا يطلب منها وهى زوجته أن تقول إنها أخته، تفعل سارة ما قيل لها، وبسرعة تؤخذ إلى بيت فرعون لجمالها والذى يقوم بدوره بمكافأة إبراهيم بغنى واسع وماشية. عندها يكافئ الرب سارة بسبب معاناتها وذلك بضربه فرعون وبيته بضربات عظيمة، ويرد الفرعون بطرد الأسرة.

بعد العودة إلى كنعان تصبح عائلة إبراهيم كبيرة وضخمة بصورة تحتم معها أن ينفصل ولوط عن بعضهم البعض. يعطى إبراهيم للوط أفضل وأجود الأرض تلك التى تجاور سدوم وعمورة. وعندما يؤخذ لوط أسيرا فى الحرب التى شنها أربعة ملوك ضد خمسة، يقود إبراهيم تحالفا لإنقاذه. ليصبح مع تلك الحادثة هذا العقيم المستحق للرثاءالشيخ المتقدم فى السن بطلا فى الحروب.

ويسجل التاريخ. يبدأ إبراهيم فى عقد معاهدات مع القادة المحليين. يخرج ملكى صادق ويباركه ويمجد إلهه "مبارك إبراهيم من الله العلى مالك السموات والأرض". ويرد إبراهيم بأن يعطى عشر ما يملك لملكى صادق. شخص يريد أن يفرح ويتهلل، وهو شىء متأصل فى نمو إبرهيم، بالقوة التى يجمعها وتتراكم لديه،

بالكرامة. لم يكن إبراهيم مجرد رجل الإيمان وحسب، إنه رجل القوة والتسامح، أيضا. لم يكن ميكافيليا ولا دراكونيا ولا نابليونيا. بل إبراهيمى بالقياس الأخلاقى الوسطى.

لكنه لم يزل غير راض، ويتخلص من إحباطه ملقيا به على الله. إذ عندما يترائى له الله بعد حملته العسكرية ويعيد بفرح وابتهاج الوعد على مسامع إبراهيم: "لا تخف يا إبراهيم. أنا ترس لك. أجرك كثير جدا". يرد إبراهيم قائلا: "أيها السيد الرب، ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما" ويضيف بيأس قائلا "إنك لم تعطنى نسلا وهو ذا ابن بيتى وارث لى. "أخيرا ينطق الصامت، بكلمات إلى الرب تفيض يأسا، أو حتى يغلفها الشك(*).

يرد الرب الإله بسرعة، مصعدا بصورة درامية من وعده الذى كان قد قطعه مع إبراهيم منذ سنوات خلت. "سيكون نسلك غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة" ويضيف الرب قائلا: "لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات".

ينال إبراهيم جائزته أخيرا ـ فها هى أجود الأرض فى العالم تصبح ملك عائلته. ولم يحصل على تلك المكافأة بسبب صمته السابق ولكن ردا على صوته الذى استعاده بعد صمت طويل، معبرا عن إيمانه المتذبذب، يبدو إبراهيم بشرا عاديا بصورة أكبر، أو لنقل ملتمسا ومتوسلا. فهو مخلوق له الضعف الإنسانى، مخلوق من لحم ودم؛ شخص عاطفى. فرغم أنه يرتقى فوق العالم، فمع ذلك طلبه الوحيد والأعظم ليس سوى ابن.

ولذا يبدأ بالشك. ويخلق تذبذب إبراهيم منحى جديدا للقصة. إذ وقبل أن يصبح أبا لأمة عظيمة، فها هو يؤسس ويتبنى تقليدا عظيما متمثلا فى علاقة

(*) لا يليق وصف نبى الله إبراهيم باليأس أو الشك فى وعد الله له. وقد ذم القرآن تلك الصفات، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧) (المحرر).

تفاعلية مع الله، صراع. وحيث إنه كان قد دفع العربون، فها هو إبراهيم يطلب المقابل. "ثق، ولكن تحقق". "هبنى ابنا"، يقول مشيرا إلى الله، وإلا لن أثق فيك بعد(*).

فى حوارى مع رامى، سألته عن سبب اعتقاده أن قصة إبراهيم معنية لهذه الدرجة بالأبناء. رد قائلا: "عندما تعيش فى الصحراء فليس لديك من شىء. إذ يتحتم عليك التحرك والتجول طوال الوقت. لا تملك بيتا، ولا أرضا. عندها تصبح العلاقة الوحيدة والارتباط الوحيد الذى تملكه هو علاقتك بابنك، ابنه، وابنه ـ سلسلة. يجب أن يكون لك ارتباط بشىء ما لذا فأنت ترتبط بعائلتك".

ليس لدى إبراهيم عائلة. هذا ما يذكرنا به الكتاب المقدس العبرى بحدة وقسوة فى بداية الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين: "وأما سارة امرأة إبراهيم فلم تلد له. ولكن تأخذ سارة الأمور بيديها هى محاولة إيجاد حل. "انظر" تقول مخاطبة إبراهيم "هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . ادخل على جاريتى، لعلى أرزق منها بنين. "ورغم أن فعل سارة هذا يتماشى مع التقليد والسلوك القديم الذى يقر الأمومة البديلة، يظل هذا السلوك مزعجا أخلاقيا. هذا ما تقترحه اللغة. لم تذكر سارة جاريتها باسمها، ولم تعترف أن الطفل المولود نتيجة لقرارها ربما ينتمى بصورة أو بأخرى لتلك المرأة إذ تقول لعلى أرزق منها بنين".

علاوة على ذلك، تأخذ سارة جاريتها وتعطيها لإبراهيم بما يعيد على أذهاننا الطريقة التى تأخذ حواء التفاحة وتعطيها لآدم. مرة أخرى التضمين لا يمكن تجنبه، تحاول سارة جاهدة أن تلوى عنق الخلق وتتحكم فيه، الذى لربما يكون إبراهيم مهتزا فى إيمانه، ولكن ما يبدو جليا أن سارة تخلت عن إيمانها. ربما يكون تصرفها غير أنانى، ولكنه غير إيمانى (يخلو من الإيمان) أيضا.

(*) هكذا يتكلم المؤلف عن إبراهيم ويصفه بالتذبذب، وأن تعامله مع الله تعامل نفعي تفاعلي، يقدم عربونًا ليأخذ ما يريد، وهو متأثر في ذلك بموقف الكتاب المقدس من إبراهيم فإنَّه ينظر إليه كرجل صالح وليس كنبي رسول، وهذا خلاف ما يصوره عن علاقة إبراهيم بربه واستسلامه له (المحرر).

ما يبدو أكثر إزعاجا هو كيف يصبح إبراهيم بكل هذه السلبية. فهذا الرجل الذى وقف بجرأة يحاجج الله ها هو الآن يخضع ويستجيب لطلب سارة، بدون أى كلام. هذا الأسد المغوار فى الحرب يتحول ليصبح خاضعا فى البيت. "قال كارول نيوسوم Carol Newsom. وهو أستاذ مدرسة إيمورى كاندلر للاهوت فى أتلانتا: إن الشىء الذى يدهشنى بقوة فى تلك القصة هو التعاطف الأخلاقى الذى للقصة يبدو أنه يتجه نحو هاجر وإسماعيل، على الرغم من أن المؤلف يعرف أن تطابقنا الأول يجب أن يكون مع إبراهيم، وسارة وإسحاق. ويعرف نيوسوم هذا الأستاذ الجامعى، الأنيق ذو الشعر الأشقر والحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد، بأنه من أكبر و أهم المفسرين والدارسين لنساء الكتاب المقدس كما أنه قارئ شديد القرب بالعلاقات الأسرية فى النصوص." مع أن القصة تظهر باستمرار وبإصرار جهلهم، والأحقاد الغيرية المتدفقة. إنه أمر مذهل. فبدلا من تحديد تعريف بسيط، يطلب منا، إلى حد ما، لتعريف مضاعف".

تنشئ إشارة سارة صراعا سيظل يشغل التاريخ، ويحتل مكانا كبيرا فيه إلى الأبد. لقد تضاعفت أبوة إبراهيم المضطربة وبصورة أكثر عمقا مع الأمومة المضطربة. ومن حيث الرد الأدبى، لديك شخصيتان يحاولان جاهدين أن يحتلا نفس المكان، وأن يشغلا نفس الحيز.: قال نيوسوم. تقول سارة: "دعنا نجعل هاجر تحتل مكانى. ولكن لا يمكنك أن تجد مثل هذه الكتابة فى الوحى. فهى سريعا ما تثبت فشلها ويظهر عطبها عن العمل، ويمكنك بسهولة معرفة السبب".

فبمجرد أن تصبح هاجر حاملا، تزداد وتتصاعد غيرة سارة. تبدأ سارة كما هو متوقع فى جلد إبراهيم وتسديد سهام الكلام إليه. "فقالت سارة لإبراهيم ظلمى عليك. أنا دفعت جاريتى إلى حضنك. فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها. وهنا نجد إبراهيم مرة أخرى يرفض تحمل المسئولية. "فقال إبراهيم لسارة هى ذى جاريتك فى يدك. افعلى بها ما يحسن فى عينيك".

تقوم سارة "بإذلال" هاجر، كما يقول النص، مستخدما نفس الكلمات التى تم استخدامها فيما بعد ليصف كيف تم معاملة الإسرائيليين من قبل فراعنة مصر،

وترد سارة بالهرب بنفس الطريقة، إلى الصحراء. والمكان الذى تذهب هاجر إليه - برية شور - هو نفس المكان الذى يذهب إليه الإسرائيليون فور عبورهم للبحر الأحمر. نرى ها هنا كيف أن الكتاب المقدس العبرى ومرة أخرى يرسل رسالة خفية. فكل أولاد الله يتم إذلالهم بصورة أو بأخرى. وعندما يتم لهم ذلك، يعتنى الله بهم وينقذهم.

كما لو كان من أجل تأكيد هذه النقطة، ففى الآية التالية مباشرة نجد ملاك الرب يظهر لهاجر. فى تلك المرة فقط يعيدها الرب إلى يدى الإذلال. "ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها تتوقف الحماية التى يعطيها الله لهاجر عند حد أقل بكثير من تلك التى يعطيها لبنى إسرائيل. لكن لم يزل الله يهتم بها وبصورة واضحة: فتلك الجارية الخادمة هى أول شخص فى الكتاب المقدس العبرى يستقبل مثل هذا الرسول، وملاك الله هو أول من يستخدم اسمها (يناديها باسمها) . فى الحقيقة، يستمر الله فى الإعلان عن بركة تنافس تلك المعطاة لإبراهيم فى مداها وتعقيداتها.

أول ما يعد الرب به هاجر هو كثرة الأولاد. "فقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة". لكن الله كان محددا مع هاجر. أنها سوف تلد ابنا وتسميه إسماعيل أو "الله يسمع" ويستمر الرب فى قوله إن إسماعيل سوف يكون "إنسانا وحشيا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه".

اختلف الدارسون فيما بينهم فى تفسير تلك الكلمات وما تحويه من معان، رغم أن جميعهم يتفق على أن مصطلح إنسان وحشى، بدلا من أن يكون ازدرائيا، فهو يشير إلى الشخصية التى للإنسان البدوى، بصورة خاصة حمار الوحش البرى الذى يجوب الصحراء فى قطعان. أما السطر التالى "يده على كل واحد"، فهو بحق يؤكد على أن أسلوب حياة إسماعيل البرية ستجعله فى صراع مع العالم.

هنا أيضا لم تزل الرسالة لا تختلف إلا اختلافا طفيفا. تعلم هاجر أن وليدها سيعيش فى الصحراء (وليس فى الأراضى المروية بجانب ينابيع المياه التى لإسحاق)، ولكنها تعلم هذا من الله مباشرة. إن هاجر هى السيدة الوحيدة التى

تتلقى وعدا إلهيا ببركة مقدسة للأولاد والأحفاد وجاعلا إياها، بالفعل، أمّا مؤسسة، وكما صاغ نيوسوم الأمر كله قائلا: "إن هاجر التى تحتل من قبل المكان والمكانة التى تحتلهما سارة، ها هى الآن تحتل نفس مكانة إبراهيم".

كما لو كانت هاجر تود أن تحتفل بحالتها، تتحدث هاجر إلى الله مباشرة "أنت إيل رئى" أو إله رؤيتى. ومرة أخرى نرى أن هاجر هى الشخصية الوحيدة فى الكتاب ـ ذكرا كان أم أنثى ـ التى نادت الله باسم. ربما لم تزل سارة غير قادرة على خلق إنسان على صورتها، لكن هاجر تستجلب الله إلى صورتها .

هناك نقطة هامة تختبئ وراء كل الدراما التى تحيط سارة وهاجر: وهى أن إبراهيم الآن قد حصل على وريث له! كان هذا الأب الممجد فى السادسة والثمانين من عمره عندما ولد إسماعيل. أكبر بأحد عشر عاما من عمره عندما سمع وعد الله له للمرة الأولى. ها هى أمته العظيمة تحظى بأول وليد وأول مواطن بها.

وحتى لا يكون هناك خطأ: فأول مولود هو أفضل مولود فى الشرق الأدنى القديم. وطبقا للوصايا والنواميس التى أملاها الله على موسى على جبل سيناء، إن أول مولود ابن يرث ضعفا ويخلف والده كعميد للعائلة من بعده. تلك حقيقة، كما يوضح سفر التثنية، حتى ولو كانت والدة هذا الابن الأول جارية أو لا تحظى بالحب من رجلها، وفى سفر الخروج يذهب الله أبعد من ذلك: "أول فاتح رحم بين الإسرائيلين هو لى".

إذا كان الله قد منح تلك الأفضلية الواضحة الجلية للمولودين أولا، لماذا يبدو وكأن سفر التكوين يعاملهم وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية؟ إذ يقتل قابيل أخاه الأصغر، هابيل، ولعن من قبل الله بأن يظل تائها وهاربا فى الأرض. يتم أيضا خداع عيسو وسلبه من بكوريته من أخيه وتوأمه الأصغر يعقوب، ويتم نفيه ويحرم من أن يعيش فى أرض الميعاد. كذلك بكر يعقوب، رأوبين، يرتكب الإثم والفحش (سفاح القربى)، حين ينضم لإخوته ويبيع يوسف أخاه للعبودية، وينقلب عليه أبوه فيما بعد. تتشابه أقدار هؤلاء الأبكار بصورة واضحة مع بكر إبراهيم وأول مولود له، إسماعيل، الذى ينفى هو الآخر إلى الصحراء.

يقترح هذا الاتساق ردا. رغم كل الاهتمام بالأنهار والإمبراطوريات التى تظهر على ضفافها، فالكتاب المقدس البرى لا يثق بمثل تلك الأماكن المستقرة حيث المياه متوفرة. فى الحقيقة، يبدو أن هناك ازدواجا فى النص الكتابى فيما يخص الأراضى المجاورة للمياه بصفة عامة. على العكس، فالكتاب المقدس العبرى دائما ما يرسل الناس إلى الصحراء من أجل الخلاص، لأنه هناك، بعيدا عن الحياة السهلة الميسرة المستقرة، بعيدا جدا عن المياة الجاهزة، حيث يرفعون وجوههم إلى الله طالبين المعونه وهطول المطر.

يريد الرب الإله فى سفر التكوين أن يكون ماء الحياة للمؤمنين به ومحبيه. يريد الحماية لأمته ولكن يريدهم أيضا فى احتياج إليه ـ أن يملكوا الأرض وأن يتصارعوا أيضا. تتطلب تلك الرغبة مناورة وتخطيطا بارعا ومعقدا. يحقق (الأبكار) وأوائل الأبناء، المميزين بالطبيعة وأصحاب السطوة والنفوذ، هذا التوازن عن طريق سلبهم من راحتهم وإزاحتهم من مواضعهم بصورة دائمة. يحقق ثانى المواليد، الخاضعين بالطبيعة، هذا التوازن بإرثهم للأرض مع شعور أبدى ودائم بالغربة. كل الأولاد، أبناء الإنسان، يصبحون على ذلك أبناء الله، يقضون حياتهم فى حالة من الضيق التبادلى، وفى حالة من المواجهة إما مع من يحيطون بهم وإما مع ذريتهم، مشتاقين دائما للحماية المقدسة والتبرير المقدس.

لكن حتى هذا الاحتياج الخالد الدائم لم يكن كافيا ومرضيا لله. الله يريد لحم الإنسان أيضا . يظهر الله بعد ثلاث عشرة سنة فيما بعد ويأمر أن يختتن إبراهيم فى لحم غرلته. ليقرر فيما بعد أنه يتعين على كل الذكور عبر الأجيال أن يختتنوا فى لحم غرلتهم عند بلوغهم ثمانية أيام. لقد وصل الصراع على الخصوبة ذروته لمستوى الدم واللحم. يطلب الله قطعة من الخلق البشرى لنفسه؛ فهو يترك دلالته على كل ذكر. على ذلك يصبح الله متمما لكل فعل من أفعال الخلق.

لكنه لا يمكنه فعل ذلك بمفرده(*)، لذا يطلب الله من إبراهيم أن يجرى أول عملية ختان. يحتاج الخالق مساعدة من شريكه الإنسان، الذى، بكونه قد أصبح أبا، قد أثبت أنه بمقدوره أن يكون مبدعا.

ويفعل إبراهيم ما يؤمر به ـ بصورة سريعة. فقد ختن نفسه وهو فى التاسعة والتسعين من عمره، وختن إسماعيل وهو فى الثالثة عشرة، بعدها ختن كل ذكر فى أهل بيته، بما فيهم العبيد. غالبا ما تكون الدلالة فى هذا الترتيب واضحة وملحوظة. فإبراهيم أول من يتسلم الميثاق، ولكن إسماعيل يأتى تاليا له. لم يكن إسحاق قد ولد بعد. يذهب إبراهيم إلى أبعد من ذلك ويضع بصمته على كل من يدور فى فلكه وكل شخص فى محيطه، بغض النظر عن نسبه. هنا نرى أن بركة الله ليست محدودة و لا مقصورة على أبناء وأحفاد إبراهيم الذين سيرثون الأرض؛ ولكنها تذهب لكل ولدان بيته، وجميع المبتاعين بفضته، وكل من تربطه علاقة ببيت إبراهيم. والختان، الذى سيظل أحد الملامح المثيرة للجدل فى حياة إبراهيم، يبين إبراهيم فى قمة شموليته.

كدليل واضح على منزلته المتسعة ومكانته الكبيرة، إنه الختان الذى يكسب إبراهيم اسمه الجديد. "وتكلم الله معه قائلا. أما أنا فهوذا عهدى أقطعه معك وتكون أبا لجمهور من الأمم. . فلا يدعى بعد اسمك إبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم. "(وكلمة إبراهيم بالفعل تعنى "أبا لأمم عديدة") ، إبراهيم، ابن تارح، قد تم الآن إعادة خلقه من جديد كابن لله(**). أما وقد حصل على رضا الله فى حياته (وفى جسده أيضا) فها هو مستعد الآن ليتمم وعد الله ليصبح أبا للعالم.

واحد من أكثر المظاهر المدهشة والمحيرة فى حياة إبراهيم هو كم كان ضئيلا وصغيرا الاحتفاء بها. فلم يخلف إبراهيم تمثالا مخلدا فى تاريخ الفن والمتعة.

(*) من غير اللائق أن يصف المؤلف الله بأنَّه لا يمكنه فعل شيء بمفرده، وهذا وصف الله عز وجل بالعجز والضعف وعدم القدرة، ووصف له بالحاجة إلى إبراهيم، وأن إبراهيم شريك الله بمقدوره أن يكون مبدعًا، وكل هذا لا يقبله الدين الإسلامى ولا يقره. (المحرر).

(**) كثيرًا ما يطلق الكتاب المقدس على الطائعين الأتقياء الصالحين أبناء الله، وإن كان لا يريد المعنى الحرفي للكلمة، إلاَّ أن القرآن قد عاب ذلك عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدة : ١٨) (المحرر).

فليس هناك تمثال مايكل إنجلو لكى يتمكن كل شخص من تصوره، كذلك الذى لداوود؛ لا يوجد مثل تلك الأصابع الممتدة التى لا يمكن محوها على سقف كنيسة سيستاين الصغيرة، كتلك التى لآدم. لقد ربح يوسف كلا من ثلاثية توماس مان وموسيقى إندرو ليبود ويبر (بالإضافة إلى موطن لمشاهدة الفيديو الذى لدونى إذموند).

لقد تم إهمال إبراهيم من قبل هوليوود بصورة خاصة. استحق موسى ملحمة. سيسيل ب. ديملى[٢٠] مخرج أمريكى وعرض دريم ووركس (Dream works)[٢١]. لقد قضى المخرج الأمريكى ستيفن سبيبيرج وهاريسون فورد فيلما بأكمله يبحثان عن تابوت العهد. والمسيح، حسنا....

ولكن إبراهيم لا.

ومع ذلك فإن حياة إبراهيم تتناسب مع ما تريده هوليوود من عمل يحوى ثلاثة فصول. يتناول الفصل الأول الفترة المبكرة من حياته، تصل ذروتها بنداء الله له. ويتنأول الفصل الثانى قصة رحلته ومغامراته وتشرده فرحلته لمصر والعودة، فإحباطه المتنامى مع الله، ميلاد ابنه، تشوهه الذاتى الجنسى الدرامى، التى تؤشر ذروة رجولته ولكنها تلقى بظلالها على فحولته وتضعها موضع شك. أما الفصل الثالث فيقوم على ـ أهم وأقوى المشاهد ـ وفيه يتم حبس إبراهيم ويسقط فى فخ مثلث الحب القاتل، مواجها قرارا فى طياته مسألة حياة أو موت مع أول أبنائه. بعدها يتعين عليه القيام بنفس الاختيار الرهيب مع ولده الثانى.

تكمن المعضلة، بالنسبة لهوليوود، فى أنه فى كل الأحداث وتصاعدها فيما يخص إبراهيم، ونساءه، وأولادهم، فالقصة الحقيقية لإبراهيم تضيق لتتحول إلى صورة رفيق قديم تتضمنه هو والله. شخصان لا يجمعهما شىء مشترك يتم

---

(٢٠) سيسيل ب. ديملى مخرج أمريكى (ولد فى أغسطس ١٨٨١ وتوفى فى يناير عام ١٩٥٩) من أهم أفلامه كليوباترا، وشمشون ودليلة، وكان فيلم «الوصايا العشر» هو آخر أفلامه الذى لاقى نجاحًا باهرًا (المترجم).

(٢١) شركة لإنتاج وتوزيع الأفلام فى الولايات المتحدة (المترجم).

دفعهما معا تحت ظروف غاية فى الصعوبة ويتم إجبارهما على تصور طريقة، ضد فطرتهم الطبيعية، ليتعاونا من أجل إنقاذ العالم. يا لها من دراما! يا لها من أوسكار مضمونة! ولكن لأنه واحد من هذين الشخصين غير مرئى، فإن تصوير هذه القصة فى فيلم يصبح خداعًا(*).

ففى سفر التكوين، ما يعطى للقصة أثرا ويجعل لها طعما هو ذلك الأخذ والعطاء الرقيق، ذلك الإقدام والإحجام اللطيف، بين إبراهيم ومحاوره غير المرئى. وذلك الصراع الذى قد بدأ لتوه. فبعد عملية الختان، يظهر الله لإبراهيم فى هيئة ثلاثة رجال. يسرع إبراهيم إلى الخيمة ويفتحها على مصراعيها، ويذبح عجلا، ويطلب من سارة إعداد الطعام. وما يبدو كأنه مكافأة له، يعده الرجال بأن سارة سترزق ابنا(**).

لكنها تضحك. "أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ؟" يغضب الله تماما من هذا القول. "هل يستحيل على الرب شىء" وفى معرض ردها، سارة بحق على الله - "لم أضحك". - لكن الله لا يعنيه شيئا من هذا الكذب ويرد مؤكدا "لا بل ضحكت". وأخيرا ينطلق الرجال مغادرين.

بينما صغرت سارة فى عين الله، كبر إبراهيم وعلا مقامه وعظمت مكانته. وبينما كان الله مغادرا، يقرر أن يخبر إبراهيم بسر؛ فهو مزمع أن يدمر سدوم وعمورة من أجل خطايا أهلها. يبدأ إبراهيم فى فعل شىء كان من المستحيل التفكير فيه قبل سنوات قليلة: يبدأ فى توجيه لوما لله. متسائلا: "أفتهلك البار مع الأثيم؟" عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه؟" وينهى كلامه فى غضب واضح: "حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك. أديان كل الأرض لا يصنع عدلا؟"

(*) هنا يفكر المؤلف فى عمل هوليودى يتضمن إبراهيم، والله، ولكن يتدارك المؤلف على نفسه بأن الله لا يمكن تصويره، لأنّه غير مرئى وبذلك سيصبح تصوير القصة خداعًا، وكل هذا يتعارض مع مفاهيم الدين الإسلامى بصورة واضحة (المحرر).

(**) يخبر الكتاب المقدس أن الله ظهر لإبراهيم في هيئة ثلاثة رجال، وهذا المعنى لا يقره الإسلام وإنّما جاء إلى إبراهيم الملائكة وتكلموا معه، أمّا الله فلا يظهر للناس، ولا يمكن أن يراه أحد. (المحرر).

الأكثر إدهاشا فى ذلك، هو أن الله يبدأ فى التفاوض معه. لو يجد خمسين بارا، يقول الرب، فلن يفعل شيئا. ويرد إبراهيم قائلا، ماذا لو يوجد خمسة وأربعون؟ ويرد الرب بالموافقة لو يوجد خمسة وأربعون ويستمر الحوار والتفاوض نزولا: أربعون، ثلاثون، عشرون! حتى يتم الاتفاق على أن يصفح الله إذا وجد عشرة.

هذا التزايد العكسى الذى لحياة الإنسان هو المقطع المذهل الذى للحوار فى قصة إبراهيم كلها، بل ومن المحتمل فى سفر التكوين كله. فها هو إبراهيم، المحارب والمقاتل، قد أصبح فجأة ودون سابق إنذار من أكثر الدبلوماسيين جرأة وشجاعة وبلاغة أيضا فى العصر القديم: فها هو على المحك يخلق الحياة التى يوشك الخالق أن يدمرها. فإبراهيم، الذى كان من قبل رجلا بلا خصوبة، يتحول ليصبح قريبا فى المساواة فى الخصوبة مع الله. الرجل الذى لم يتمكن أن يصبح أبا لأحدها هو يقوم مقام الأب لأناس لم يسبق له رؤيتهم ولا يعرفهم، فقط لاحتمال كونهم أبرارا. ونتيجة لذلك حصل الإنسان على حام ثان على الأرض. فلو غضب الله عليهم وتركهم، يمكن للبشر الآن أن يتحولوا إلى إبراهيم. لم يعد الخلق بعد مقصورا على، ولا السلطان المتفرد للأنهار أوله.

يمكن لإبراهيم أن يخلق أيضا.

ومن المؤكد بصورة كافية أن منزلة إبراهيم المستحدثة تؤدى بسرعة إلى خصب أكثر. وللمرة الثانية يطلب إبراهيم من سارة أن تكذب وتقول إنها أخته، على ملك جرار هذه المرة. ويكافئها الله للمرة الثانية. "سارة تحبل وتلد ابنا لإبراهيم فى شيخوخته." (لقد أدى تقارب هاتين الحادثتين ببعض المعلقين للشك فى أصل إسحاق.) لم يزل، يسمى إبراهيم الطفل إسحاق - " يضحك" - يقوم باختتانه وهو ابن ثمانية أيام. ولكن هذا كل ما أراد النص الكتابى أن ينقله لنا. لقد انتظرنا تلك اللحظة خمسا وعشرين سنة، ويبتهج الكتاب المقدس بل ويكاد يطير فرحا لهذا الحدث. وتتراقص الفرحة فى عيون سارة. ونسمعها تقول: "لقد صنع إلى الله ضحكا. كل من يسمع يضحك لى." ولكن إبراهيم لا يطيق أن ينتظر ليأخذ الولد بعيدا عن أمه، أو حتى يصنع عيدا فى يوم أن يفطم إسحاق.

ولكن سارة لم تكن مستعدة للانحناء أو للتساهل. وإذا كانت راغبة وتواقة أن تقف لله، ومن المؤكد أنها تود أن تفعل ذلك برغبة - وأكثر - لإبراهيم. ففى ذات مرة تضبط إسماعيل وإسحاق يلعبان معا.

لقد اقترح بعض المفسرين أن اللعب هنا يشير إلى التحرش حيث إن إسماعيل كان مراهقا فى ذلك الوقت. لكن اسم إسحاق يشير إلى الضحك واللعب الطفولى.

على أية حال، تتصرف سارة بسرعة وبغضب قاتل. وقالت لإبراهيم: "اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق."

مع ذلك يمكننا أن نرى أن إبراهيم لا يشارك سارة بأن يهب التفضيل لإسحاق. فلم يزل إسماعيل هو بكره. وكما يقول الكتاب "فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم بسبب ابنه."ولكن الله يريح إبراهيم ويطمئنه بإعلان مفزع. "فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضا أجعله أمة لأنه نسلك".

مرة أخرى، يرسل الله رسالة مزدوجة. فمن ناحية نراه يأخذ جانب الظالم، ويشجع إبراهيم على ألا يجعل ابنه وبكره إسماعيل يرث مع أخيه. وينادى الله إسحاق باسمه فعليا وبحق، ويقول أيضا إنه بإسحاق يدعى لإبراهيم نسل. وبعبارة أخرى تذهب الأرض إلى الابن الثانى لا البكر.

على عكس ذلك إسماعيل، لم ينطق الله اسمه، رغم أن الله أقسم أن يجعله أمة عظيمة، الوعد المحدد الذى قطعه مع إبراهيم فى البداية. لم يحصل إسحاق على ضمان مساو. ويحمل إسماعيل أيضا بذرة ونسل إبراهيم. يعتبر الأثر النهائى لتلك التعقيدات والتشابكات شيئا غير مريح لكنه يبقى توازنًا مغرضًا: يحصل إسحاق على الأرض، ولكنه يفعل ذلك جزئيا من خلال مكر وحقد والدته، يذهب إسماعيل إلى المنفى، لكنه يفعل ذلك مصحوبا ببركة الله الفائقة وندم إبراهيم العميق.

فى الحقيقة، يبذل إبراهيم كل ما فى وسعه فى مواجهة إرسال ابنه إلى الصحراء. على عكس إجراء الختان، الذى نفذه إبراهيم فى نفس اليوم الذى طلبه منه الرب، هذه المرة يتباطأ إبراهيم. فى صباح اليوم التالى يأخذ إبراهيم خبزا وقربة ماء ويعطيهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها، ويفعل نفس الشىء مع الطفل الوليد.

تغادرهاجر وتتجول فى البرية المسماة برية بئر سبع حتى فرغ الماء من القربة ولم يبق لديها قطرة ماء، عند تلك النقطة تطرح إسماعيل تحت إحدى الأشجار. يمسرح النص الكتابى المهم من أجل الحصول على أقصى شفقة ورثاء. تقول هاجر منتحبة "لا أنظر موت الولد" عندها تنفجر فى البكاء.

ويسمع الله مرة أخرى ويستجيب. "لا تخافى" يصرخ ملاك الرب مخاطبا هاجر. "قومى احملى الغلام وشدى يدك به." ويظهر الله بئر ماء. نلمح هنا أن إسماعيل قد واجه الموت بصورة مباشرة، وتم له ذلك على يد والده، ولكن يتم إنقاذه فى اللحظة الأخيرة بيد الله. تلك هى نسخته التى للنداء: يطرد من بيت أبيه، يبقى على قيد الحياة فقط بسبب كرم الله وسخائه. يخلق من إبراهيم، ويعاد خلقه من قبل الله. الله يرفض أن يتخلى كلية عن قدرته على الخلق.

يقترح هذا الموقف درسا مهما يود تعليمنا إياه. واحدة تلك التى ستظل تدوى فى الحادثة التراجيدية القادمةعندما يوشك إبراهيم أن يقتل إسحاق أيضا. إسحاق وإسماعيل، والقوة المتحركة فى قصة إبراهيم لربع قرن قبل أن يولدا، يصبحان أقل أهمية بكثير بعد أن يصلا. فبعد أن يتوسل ملتمسا عطف الله لعقود عندما لم يكن أبا، لم يكن إبراهيم راغبا ولا تواقا فى تعريض هذا الاستحسان للخطر عن طريق اختياره أبناءه عن الله.

مرة أخرى، يبدو لدى سلوكه عواقب دائمة ومستمرة. فسيقضى أولاد إبراهيم بقية حياتهم محاولين أن يستحقوا ويطالبوا بالحب الذى لوالدهم. مع أن إبراهيم مشغول جدا ناظر لله ملتمس عطفه وبركته ليتحقق أن أبناءه يتوقون لنفس العطف منه.

ربما تكون من أكثر الملامح المدهشة واللافتة للنظر فى قصة إسماعيل وإسحاق هو توازنها: فلا يوجد بينهما من هو منتصر مطلق ولا خاسر فنسحق. ومع ذلك تسبب هذا العمل الأدبى الإبداعى فى مشاكل لا نهاية لها لأحفادهم.

لقد تحير المفسرون اليهود فيما يخص إسماعيل. فقد اتفقوا أنه، فى باكورة حياته، يعتبر مهما جدا لوالده. فعندما يجرى إبراهيم عملية الختان لإسماعيل ولكل أهل بيته، على سبيل المثال". أقام رابية من قطع الجلد الآدمى التى تقطع عند الختان، سطعت الشمس فوق تلك القطع وتعفنت، وصعدت تلك الرائحة إلى السيد الرب واشتم رائحتها كرائحة بخور جميلة. "يعلن الرب ، عندما يسقط أولادى ويسيرون فى طرق الخطية سأتذكر هذا العبير وتلك الرائحة التى ستجعلنى أفيض عطفا وشفقة عليهم".

لكن، عندما يولد إسحاق، يدير المفسرون اليهود ظهورهم لإسماعيل. وكما يذكر سفر التكوين أنه بعد أن يتم إنقاذ إسماعيل يتزوج بمصرية ويصبح أبا لاثنتى عشرة عشيرة. فى آخر الألفية الأولى قبل الميلاد أتى هؤلاء الأحفاد ليكونوا على علاقة مع القبائل البدوية فى محيط الشرق الأوسط، فى صحراء النقب فى البداية وفيما بعد فى الجزيرة العربية. قبل أن يدرك المسيحيون أو المسلمون تلك العلاقة أو تلك الرابطة. عرف الكتاب اليهود إسماعيل على أنه الجد الأعلى للعرب. فيوسيفوس، وهو أحد المؤرخين اليهود من القرن الأول قبل الميلاد، الذى عاش فى روما، كتب قائلا إن الاثنتى عشرة قبيلة المنحدرة من إسماعيل قطنت الأرض من نهر الفرات حتى البحر الأحمر. "فهم أمة عربية وأطلقوا الأسماء على قبائلهم من تلك، بسبب كل من فضيلتهم هم وأيضا بسبب كرامة أبيهم إبراهيم".

ولأن تلك القبائل كانت تعتبر عدوة لبنى إسرائيل، فقد نسب إليهم المفسرون اليهود كل أنواع الصفات السيئة والسمات الرديئة.. وبالتبعية لجدهم الأعلى. كما يتضح من تعليق كهذا": من بين كل عشرة أغبياء فى العالم هناك تسعة إسماعيليين وواحد من كل العالم." وعند توزيع نسب الغباء أعطى الإسماعيليين تسعة من كل عشرة ووزع الواحد الباقى على العالم كله. وبنفس الطريقة، تم

تخصيص تسعة من كل عشرة أشخاص غلاظ وقساة بينما خصص واحدا فقط للعالم كله".

لقد كان فى خضم تلك التقاليد التفسيرية الحاقدة حيث ولد محمد. بينما ربط المفسرون اليهود إسماعيل بالعرب، لم يفعل العرب ذلك. لم يذكر شىء عن أن العرب منحدرون من أصول إسماعيلية فى أى من المصادر قبل ظهور الإسلام. لقد تعقب، أوائل كتاب السير المحمدية نسل قبيلة النبى وأرجعوها إلى إسماعيل، ومنه إلى إبراهيم، رجوعا إلى آدم.

كان محمد يريد توحيد القبائل العربية تحت لواء قبيلته، قريش، ولكى يتم له ذلك فقد احتاج أن يربط تراثهم بمصدر مقدس.

كان إسماعيل يمثل الحلقة الأقوى والأهم فى تلك السلسلة، رغم أنه بالكاد يمكن اعتباره شخصية رئيسية فى القرآن، فقد ذكر إسماعيل اثنتى عشرة مرة فى القرآن كله المكون من مائة وأربعة عشرة سورة، وواحدة فقط تعطى إشارة أو دلالة لشخصيته. فسورة مريم تقول إن إسماعيل كان صادقا ورسولا ونبيا، **﴿واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا. وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾**.

لم يزل المفسرون المسلمون، فى غمرة جهودهم المبذولة لبيان سمو وعظمة محمد، يعظمون ويرتقون بإسماعيل. فيبدؤون بإحياء هاجر والارتقاء بها وتعلية مكانتها. فقد قال ابن سعد وهو عالم إسلامى بارز من القرن التاسع، إن هاجر كانت أكثر الخادمات المخلصات للفرعون، أو شخصية غامضة مقابلة للفرعون، أما القيسى، وهو مفسر أكثر إبداعا، يقول إن هاجر كانت بالفعل ابنة الفرعون.. كما نرى فكلا التفسيرين يريان أن هاجر الآن لديها علاقات ملكية. يتم تحميل هذا النسب الملوكى على إسماعيل. يعلق القيسى أنه بعد أن أنهى إبراهيم وهاجر لقاءهم الذى تم فيه الحمل بإسماعيل، نطق صوت سماوى معلنا" لا إله إلا الله وحده لا شريك له." تلك هى نفس الكلمات على حد قول القيسى، التى نطق بها إبراهيم فى لحظة ولادته.

أما الإسهام الأكبر فى حياة إسماعيل الذى صنعه القرآن والمفسرون المسلمون هو قصة إعادة توطينه فى مكة. فبدلا من إبعاد هاجر وتركها فى النقب، يأخذهما إبراهيم بالفعل إلى مكة. يوفر لهما إقامة هناك، ثم يعيد أدراجه عائدا لموطنه. وبعد أن تترك هاجر وحيدة فى الصحراء، تركض بين صخرتين باحثة عن الماء قيل إنه يظهر لها (ملاك) وينقذها. هناك تحول حيوى يحويه هذا الانتقال، نقل الموضع الذى للقصة وتحول مكانها من الهلال الخصيب إلى الجزيرة العربية، حيث يكبر إسماعيل ليصبح عربيا بارزا. يقوم إبرهيم أيضا بزيارة لإسماعيل فى موطنه الجديد. تسمح له سارة بالذهاب، شريطة ألا يترجل عن ظهر جواده.

فى الزيارة الأولى لإبراهيم، كان إسماعيل فى خارج منزله للصيد، لذا يتحدث إبراهيم مع زوجته، التى تبدو أنها سليطة وغير مضيافة. لم يكن أيضا لديها أى فضول، فهى حتى لم تسأله عن اسمه. يترك إبراهيم رسالة لابنه لكى "يغير عتبة بيته ."يرجع إسماعيل، يشتم رائحة والده، ويفسر الرسالة على أن والده لم يستحسن زوجته ولم تعجبه. يطلق إسماعيل زوجته فى الحال ويتزوج بأخرى.

يرجع إبراهيم مرة أخرى، ويقابل الزوجة الجديدة ويرى أنها جميلة وساحرة ومضيافة (رغم أنها لم تسأله هى الأخرى عن اسمه. بل إنها تذهب أبعد من ذلك بأن تغسل رجليه وتدهن رأسة بالزيت بينما يبقى هو ممتطيا ظهر جواده. يترك لابنه رسالة: "إن عتبة بيته جيدة وصالحة." يرجع إسماعيل، يشتم رائحة والده، يستمع لرسالة والده، ويعلم زوجته، "أن والدى يستحسنك".

يبدو على السطح أن التقاليد الإسلامية فيما يخص إسماعيل تتناقض مع العقائد اليهودية. لكن لا يراها اليهود بهذه الطريقة. فى الحقيقة، فى القرون التى أعقبت ظهور الإسلام ، بدأت الكثير من العقائد الإسلامية فى الظهور فى النصوص اليهودية. ففى القرن الثامن يأخذ إسماعيل زوجة من الصحراء. يزور إبراهيم ابنه. ويحدث نفس ما قمنا بسرده قبل مع الزوجة الأولى والثانية، مما أدى إلى أن يستنتج إسماعيل أن والده لم يزل يحبه.

يقترح التشابه أنه إما أن هذه العقائد متأصلة فى المصادر اليهودية وانتقلت من هناك إلى الإسلام وإما العكس. أيما تكن الطريقة، فليس لأصل القصة سوى

أهمية قليلة من الحقيقة الشاهقة أن كلتا العقيدتين تشعران براحة وراحتى أن تحتضنها وتتبناها.

فبينما تختلف التفاصيل فى قصة إسماعيل من ديانة إلى أخرى، ومن جيل لآخر، تظل الرسالة الضرورية المراد توصيلها هى نفس الرسالة. فإبراهيم يطرد إسماعيل من الأرض، لكنه لم يطرده من دائرة حبه وأبوته.

كما يبدو واضحًا منذ البداية حيث النداء هو أول شىء، فالرب الإله فى الكتاب المقدس مهتم بخلق أمة عظيمة، فى حيز معين من الأرض، مبتدئا تلك الأمة بإبراهيم. ويبدو جليا أن إسحاق هو وارث تلك العقيدة. فهو الفائز فى الصراع، هذا ما يبدو جليا، وإسماعيل المتنافس المزاح من مكانه. كما قال كارول نيوسوم، أعتقد أنه يبدو خداعا كبيرا أن نقول إن هذا أى شىء خلاف أن تكون قصة يهودية الأصل والأساس.

ولكن لأنها أعطيت تلك الوظيفة الأدبية الواضحة، فإن العناية والاهتمام اللذين تم تكريسهما لإظهار نبل مستقبل إسماعيل تصبح أكثر كبحا وشدا للانتباه.. ليس لدى الكتاب المقدس تاريخ للتعامل مع المرتد أو مع هؤلاء المنشقين. إذن يلعن آدم وكذلك حواء. يقتل هابيل. تتحول زوجة لوط إلى عامود ملح. أما إسماعيل فعلى العكس، يتم إنقاذه شخصيا بواسطة الله، ويصبح أبا لدستة من الأمراء، ويصبح قائدا لأمة عظيمة. الدرس الأخلاقى الواضح هنا هو أنه وبينما أرض الله ربما تذهب لأحد أبناء إبراهيم ، فإن بركة الله تذهب إليهما معا.

"رغم أن القصة تبدى عظيم الاهتمام بوريث إبراهيم"، على حد قول نيوسوم فلم تزل تؤطر أقارب آخرين، وتؤشر كلا من العاطفة والتنافس اللذين يوجدان بينهم. من هذه الناحية فهناك وصف أمين للتعقيدات الاجتماعية. ربما لا تكون القصة مشتملة كلية، ولكنها قريبة. فأى محاولة لادعاء تفرد إدارة إبراهيم تخالف القصة.

فيما بعد فى الصباح الذى قضيته مع رامى، وضعت صخرة صغيرة فى وسط مجرى النهر. . "قلت"، هذا هو إبراهيم."بعدها قمت بوضع صخرتين تحت

الصخرة الأولى على شكل شجرة العائلة. "وها هما إسماعيل و إسحاق. السؤال الذى حاول العالم الإجابة عنه لقرون هو، فى أى اتجاه يسلك وريث إبراهيم؟"

هذا هو النوع من التحدى الذى يعشقه رامى. "إذا كنت تنظر إلى الأرض"، قال لى" إلى المبانى والأحجار، يجب أن تختار بين هذه الطريقة وتلك."يمسك بعدها قبضة من الحصى ويحول شجرة العائلة التى رسمتها آنفا إلى دوائر متحدة المركز. "لكن إن كنت تنظر إلى عالم أو مملكة الأفكار فلا يهم."

"وهل تعتقد أن لهذه القصص نفس القوة التى لتلك الحجارة؟" " أكثر بكثير. فالقصة هى الغلاف الجوى المغلف لهذا المكان. إنها حولك وتحيطك طوال الوقت. . بإمكانك تحريكها. بإمكانك أن تأخذها معك. يمكنك أن تفعل بها أى شىء ما عدا أن تحفرها على حجر.

أخذ يده وأزاح صخوره، تاركا فقط صخرة إبراهيم. "غير إبراهيم العالم لأنه جلب فكرة واحدة للعالم." "ما الفكرة إذن؟".

"الفكرة هى أن ما هو مهم هو قوة الأفكار ـ أفكار الإنسان. لا الأنهار. ولا الأصنام. ولا الأرض. ذهب إبراهيم إلى الصحراء، إلى اللاشىء، وخلق شيئا جديداً بصورة كلية. ولقد بنى هذا الشىء الجديد على شىء غير مرئى. لقد جمع التكنولوجيا وعرف كيف من كل الأماكن التى زارها. خلطهم مع ذلك الكبير، غير المعروف الله الذى لا يمس، ونقل تلك الأشياء كموروث لولديه كليهما. وهذا ما غير العالم، إن كنا نتقاتل على الأحجار، فإننا نضيع الفكرة ونخطئ الهدف. ما كان يسعى إبراهيم وراءه هو فكرة واحدة، ولقد وهبنا جميعا تلك الفكرة.

(٤)
إسحاق

يبدأ شارع الملك داوود على بعد قليل من العمارات والمحال من بوابة يافا فى المدينة القديمة فى أورشليم، ويمتد جنوبا نحو بيت لحم. المنطقة تحوى الآن فنادق فخمة، وبنوكا، وجمعية الشبان المسيحية على الطراز الأرمنى الشاهقة، كان أول حى أقيم خارج الجدران التى من العصر الوسيط.

فى منتصف الطريق فى الشارع يقبع محل يهودى فى نهاية ساحة قصيرة ممهدة ومكسوة بأحجار من أورشليم. فى الداخل الأرفف بأكواب (الكيدوش) ومينونرات الحانوكا المختلطة بشيلان الصلاة التى تتدلى منها زرقاء وبيضاء، ومئات العقد، والكيبوت المطرز بغرز الذهب. فى ظهر المحل هناك صندوق من الكرتون عرضه حوالى ثلاثة أقدام يسكب وتتبعثر محتوياته على الأرض. مجموعة متشابكة من الحملان تبرز من القمة كحشد من الحبار المتحجر.

"ها هو واحد جيد"، يقول مالك محل كوهين وأولاده البالغ من العمر تسعة وسبعين عاما، مرتديا الأسود مع عقصة شعر رمادية تنثنى خلف أذنيه، وبنيامين كوهين محنى، رقيق الكلام، بلحية ساحرة ترتاح على صدره وتنتهى برأس مدبب. "الـ (الشوفار) الجيد يبلغ طوله حوالى طول اليدين"، يقول "هذا جيد؛ لأنه يميل لليمين".

"لليمين؟"

"منذ أن خلقوا العالم، كان هناك جدل وخلاف على اليمين واليسار. اليمين أفضل لأنه أقرب إلى الله".

لقد أتيت لأنظر إلى (الشوفروت) القرون المخريشة التى تم النفخ فيها فى الكتاب المقدس العبرى على جبل سيناء وفى الهيكل، والذى يسمع صوت نفيره حتى الآن سنويا فى رأس السنة اليهودية. ينتج الصوت خارجا - قاس، ومتلعثم، وجائر - من الشفاة والرئتين فقط. لأنه ليس للقرون لباقات ليحسنوا أنغامهم. تقترح العقيدة اليهودية الكثير من الأسباب لنفخ الشوفار[٢٢] : إذ يعتبر القرن تذكارًا لظهور الرب على جبل سيناء، ويذكر بدمار الهيكل، ويثير الوعى ببداية أيام التوبة. لكن هناك سبب يرن بنبرة أعلى. عندما سألت السيد كوهين عما يخطر بباله عندما يسمع ال (شوفار) أجاب قائلا: " ال (العقيدا) وثاق إسحاق".

وأردف قائلا: إذا أردت أن تذهب إلى المحكمة، فعليك أن تصطحب محاميا جيدا. والـ (شوفار) يشبه محاميا جيدا إنها تذكر الله بطاعة إبراهيم لكونه يقبل برضى أن يضحى بما هو أغلى عنده من الحياة نفسها. كما قال الحاخام أباهو: "عندما تسمع الـ (شوفار) استدع الـ (العقيدا) أضفها على حسابك كما لو كنت تربط نفسك إلى المذبح أمامى".

رغم أن بنيامين كوهين كان ولم يزل يبيع ال (شوفار) طيلة ثلاثين عاما . وهو يقوم بصناعتهم من حوالى ضعف تلك المدة. عندما كان فى السادسة من عمره، كان يعيش بجوار بحر الجليل، كان هو وأصدقاؤه يغارون من الرجال نافخى القرون فى المعبد. ذهبوا إلى قصاب محلى، وجلبوا قرن حمل، واتبعوا ممارسات لم تتغير منذ قرون، نقعوه فى ماء ساخن لساعات عديدة، بعد ذلك قاموا بإفراغ أحشائه . ما ترك كان صدفة مستدقة الطرف جوفاء، بعدها قاموا بتسخين مسمار وقاموا بدق فتحة على شكل فم. بعدها قاموا بصقلها باستخدام الخفاف (وهو زجاج بركانى يستخدم فى الصقل). استغرقت العملية كلها شهرًا ونصف الشهر. وشرح السبب قائلا: " كان يتحتم علينا الذهاب إلى المدرسة نهارا".

"وهل أخرجت صوتا عذبا جميلا ؟"

(٢٢) وهو آلة موسيقية على هيئة القرن كانوا ينفخون فيها فى الأعياد (المترجم).

رفع يديه ورفع أيضا أكتافه فى تعبير عالمى عن التواضع والحكمة والبراعة والرضا عن النفس: "يا هذا لست أنا من ينبغى أن يجيب. لكن إذا كنت حقا تريد أن تعرف الحقيقة..."

إن الوثاق الذى قام به إبراهيم لابنه حبيبه المفضل لديه ليعد أكبر الأقصوصات احتفالا فى حياة الأب المؤسس. فكل الديانات الثلاث تحييها معتبرة إياها التعبير الجوهرى والمطلق عن علاقة إبراهيم بالله. ولكن يبقى ما تقوله الحادثة، ومكان حدوثها، وحتى الابن المتضمن والمقصود فى الحكاية، كلها أمور مثيرة للجدل والنقاش لقرون منذ القدم. يجعل هذا كله موضوع الوثاق الموضوع الأكثر جدلا، والأكثر سوءا للفهم، والحدث القابل للاشتعال فى قصة إبراهيم كلها.

فى الكلمات الافتتاحية فى الإصحاح الثانى والعشرين فى سفر التكوين يظهر الله مناديا مرة أخرى وفجأة وبدون مقدمات ـ على المختار من قبله، ينادى قائلا: "إبراهيم "تلك المرة، مع ذلك، كدلالة على نمو صوت إبراهيم، نسمع أبا الأنبياء يرد قائلا"، ها أنا ذا. "فقال " خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا واصعد هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك".

مرة أخرى يستدعى الله إبراهيم طالبا منه أن ينطلق فى رحلة لم يحدد الغرض الرئيسى منها ولم تعرف وجهتها إلى أين أو أين ستنتهى. لقد وصلنا إلى النداء الثانى lech lecha اذهب" جديد. الذروة القصوى الأخيرة حياة إبراهيم مع الله. وعلى الرغم من كونها مثيرة للتعرف على الأنغام المألوفة التى للدراما الضخمة الجليلة كنوع من تكرار اللحن المفضل فى سيمفونية يرسل النص أيضا رسالة فاترة. فلأربع مرات يردد الله أى من الأبناء يتحتم على إبراهيم أن يصطحبه فى رحلته ـ "ابنك، وحيدك، الذى تحبه، إسحاق. "كما لو إن إبراهيم غير متأكد من من الأبناء عليه أن يأخذ معه، أى الأبناء هو المفضل لديه والمحبوب عنده، أو، بعد أن يعرف أنه إسحاق، ما إذا كان ما يشعر به نحوه هو حب. حتى وإسماعيل خارج الصورة، لم تزل حالة إسحاق محل نقاش وخلاف.

فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره، وأخذ معه اثنين من غلمانه وإسحاق، وانطلق فى رحلته. وفى اليوم الثالث، رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد. يخبر الغلمان: "اجلسا أنتما مع الحمار أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما". فى اللحظة التى يقول فيها إبراهيم سوف نرجع، يتضح بما لا يدع مجالاً للشك من إيمانه أن إسحاق سيتم إنقاذه ولن يمسسه سوء. . لكن إسحاق لم يكن بمثل هذا التأكد. فبينما هما بالمغادرة، يسأل"، أبى، هى ذى النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟ "تلك هى اللحظة الهامة وشديدة التأثير فى القصة كلها، ورد إبراهيم واقع وحقيقة لا شك فيها. "الله يرى له الخروف للمحرقة يا بنى".

تعكس معاملة إبراهيم لابنه ـ فيها اهتمام، ولكن فيها أيضا عجرفة وجفاء ـ ازدواجية يبدو أن الكتاب يشعر بها نحو إسحاق، أن إسحاق هو أقل الآباء المؤسسين خضوعا إلى حد بعيد. وواحد من أقل الشخصيات الرئيسية الهائلة فى أسفار موسى الخمسة فإبراهيم أبو العالم، ويعقوب أبو إسرائيل، أما إسحاق فلم يكن سوى أبى التوأم. أكثر ما نتذكره عن إسحاق هو ما لم يكن: فهو لم يكن قد ولد، ولم تتم إزاحته من مكانه ولم تؤخذ مكانته، ولم يضح به. أما فيما يخص ما كانه، حسنا، لقد تمت إغاظته بواسطة أخيه، كما دللته أمه، وكاد أن يقتل بواسطة والده، وبعد موت إبراهيم، تم خداعه بواسطة زوجته كما أنه خدع وتم استغفاله عن طريق ابنه الثانى، يعقوب. لم يكن إسحاق إلهيا على الإطلاق. إنه مجرد رجل بسيط تم خدعه والتحايل عليه من كل من كانوا فى محيط دائرته.

لا نعرف كم كان عمر إسحاق تقريبا عند حدوث عملية وثاقه والإقدام على التضحية به. لقد تم تصويره من قبل روابط الفنانين على أنه كان طفلا، رغم أن ما يقترحه النص الكتابى خلاف ذلك. فإسحاق بنفسه هو الذى يحمل الحطب الذى للتقدمة، الذى لا يمكن لطفل صغير أن يقوى على حمله، كما أنه قادر وبصورة لا تقبل الشك على التجريد والتفكير العقلى المنطقى، كما يتضح من سؤاله"، أين الخروف؟" قال يوسيفوس إن إسحاق كان فى الخامسة والعشرين من عمره، بينما يفترض التلمود أن عمره كان ثلاثة وثلاثين عاما، وهو نفس العمر

الذى تم صلب المسيح فيه. بينما ترى واحدة من النظريات الشهيرة أنه كان أكبر. فقد كانت سارة فى التسعين من عمرها عندما أنجبت إسحاق، وعندما ماتت كان عمرها مائة وسبعة وعشرين عاما. ولأن موتها يصور على أنه حدث بسرعة عقب حادثة الوثاق، لذا يقترح الكثيرون، اعتمادا على الأخبار من ذلك الحدث، أن إسحاق كان يبلغ السابعة والثلاثين من عمره. مهما كان عمر إسحاق، فها هو يصل للنقطة المختارة مع إبراهيم، الذى يبنى مذبحا ويضع إسحاق على المذبح فوق الحطب. بعدها يلتقط السكين ليذبح ابنه، هل سيفعل؟ هل يصبح الرجاء الإنسانى العظيم، وخليفة الخالق، قاتلا ومدمرا كالله؟ وهل سيبقى إسحاق راقدا هكذا بهدوء وسكينة بينما يذبحه أبوه ويفصل رقبته عن جسده؟ إننا نحفر فى أعماق أفكارهم. ونترقب مناقشاتهم وجدلهم مع الله.

لم يحدث أى نقاش. ربما يكون صمت إسحاق فى تلك اللحظة مثيرا للأعصاب، ولكن صمت إبراهيم شىء لا يعقل ولا يصدق بالمرة. فهل يعقل أن إبراهيم الذى يناقش الله بقسوة قبل؛ لأنه كان مزمعا أن يبيد أناسا لا يعرفهم ولم تسبق له رؤيتهم يبدو الآن وكأنه راغب فى ذبح ابنه. ترى فيم كان يفكر؟

اقترح المفسرون عدة احتمالات. ربما كان إبراهيم يعرف أن إسحاق لن يموت. ربما يفسر هذا قوله من قبل معلقا إنهم سيرجعان معا. ربما كان إبراهيم مؤمنا بصورة مطلقة أن إسحاق يخص الله حقا وأنه ملك له بحق، كما هو موضح فى سفر الخروج - "قدس لى كل بكر كل فاتح رحم من بنى إسرائيل من الناس ومن البهائم. إنه لى." أخيرا، ربما كان إبراهيم يثق فى الله. فقد كان عنده إيمان. وهذا ما يفسر قوله لإسحاق، الله يرى له الخروف للمحرقة.

لكن هنا يبرز احتمال آخر. فكل التفسيرات التى تناولت حادثة الوثاق تناولته باعتباره اختبارا من الله. فهى بالتحديد محاولة لبيان حب إبراهيم لله وعظم ثقته فيه: هل سيكون راغبا وتواقا لفعل كل ما يطلبه الله منه مهما كانت صعوبته وعدم إنسانيته؟ حتى النص الكتابى يتخذ هذا الموقف، محددا فى بداية الحادثة أن "الله امتحن إبراهيم". ولكن الله لم يخبر إبراهيم أنه اختبار. والأكثر من ذلك، أنه لم يطلب من إبراهيم أن يذبح ابنه. الله يطلب فقط من إبراهيم أن يأخذ

إسحاق ويصعد به إلى جبل، ويقدمه هناك كمحرقة للرب. فلم يحصل إبراهيم على أمر واضح من الله بذبح ابنه. اليهود الأوائل، تنبهوا لهذا الفارق الضئيل، مشيرين إلى الحدث على أنه تقدمة، وليس وثاقا أو تضحية. فلم يكن للموت جزء معتبر أو مهم فى القصة. كما قال لى بنيامين كوهين، مقتبسا كلامه من التلمود "لا يختبر الفخارى الأوانى المعيبة، فهى تكسر. إنه يختبر الأوانى الجيدة".

وكنتيجة لذلك، ربما يكون إبراهيم لم يختبر قط. ربما يؤدى الاختبار. ربما تكون الأقصوصة هى الطريقة التى أراد بها إبراهيم أن يختبر الله. وبصورة خاصة وعد الله فى الإصحاح السابق أن نسل إبراهيم سيستمر عبر إسحاق. فبعد إعطائه هذا الوعد، يضغط الله على إبراهيم ليطرد إسماعيل، من المؤكد أن إبراهيم لم يشك قط فى وعد الله. لذا تصبح محاولته لقتل إسحاق طريقة لإبراهيم لكى يتبين ما إذا كان الله رحيما وعطوفا، هاتان الصفتان اللتان كانتا محل شك وموضعًا للتساؤل فى تلك اللحظة، فلو مات إسحاق، يكون الله غير صادق. على ذلك تصبح التقدمة هى نداء إبراهيم لله. فبدلا من "سر أمامى"، يقول إبراهيم "تعال إلى هنا".

وواجه فى لحظة قراره، الله يعمل. فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم. ومرة أخرى يرد "هاأناذا" يقول الملاك "لا تمد يدك إلى الغلام" ولا تفعل به شيئا. لأنى الآن علمت أنك تخشى الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى". فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه. وهذا الذى يربط ال (شوفار) [٢٣] بال (العقيدا) [٢٤] "الذبيح". يصعد إبراهيم بكبش محرقة لله عوضا عن ابنه. بالمقابل يعزز الملاك قول الله ووعده - "ويرث نسلك باب أعدائه." - ويرجع إبراهيم إلى غلمانه. من الذى أدى الاختبار، إذ يخرج

(٢٣) الشوفار: كلمة عبرية تعنى البوق وهو مصنوع من قرن حيوان، ويقال إن أول بوق صنع من قرن الكبش الذى ضحى به إبراهيم افتداء لابنه (المراجع).

(٢٤) العقيدا: كلمة عبرية تعنى الربط، الوثاق وتستخدم هذه اللفظة فقط لتقديم القربان، ولذلك نقول تضحية إسحاق، وتستخدم كناية لأى شىء يضحى بنفسه أو التضحية بالذات، أو التضحية بشىء محبوب جدا لهدف مقدس وتترجم بـ الذبيح. (المراجع).

إبراهيم من التجربة أقوى وأكثر صلابة. ولم يرد ذكر إسحاق ولم يكن له دور. وتشرف القصة على نهايتها.

لكن التوابع قد بدأت توا. فالتقدمة هى رد إبراهيم الواقعى على النداء وتحدد تقلبا وتحولا فى الأدوار التى لكل من إبراهيم والله. فبدلا من رفع إبراهيم إلى السماء، تنزل حادثة الله تلك إلى الأرض. لقد أصبح إبراهيم القائم بالفعل، والله برد الفعل. على ذلك يرث إبراهيم الحجاب الذى كان الله قد ضربه أمامه لجيل. فهو مشارك لله. لقد أصبح الإنسانى غير إنسانى؛ وأصبح غير الإلهى كشبه الإله.

بعيدا عن التجريد، الاختلاف معلن وواضح. حيث يظهر إبراهيم منذ بداية القصة تابعًا لله وخاصته، والآن الله، إلى حد ما ينتمى لإبراهيم. فمنذ ذلك الوقت وإلى الأبد يشار إلى الله على أنه "إله إبراهيم"، اكتملت محاولاتهم التبادلية، واكتمل حبهما،ما القدر والمصير الذى قد جمعهما، لا يدع أحدهما يبتعد عن الآخر.

ومع ذلك، بالطبع، حاول الناس.

على بعد حوالى ستين ميلا من أورشليم، يبرز وادى يزرعئيل من نهر الأردن إلى الشرق من مجدو فى الغرب. إلى الشرق يوجد بحر الجليل الهادئ. تلك التلال المخملية، الطافحة بالزهور البرية، وزهر البرسيمون، والعنب، والأفوكاتو أو شجرة المحامى. طوال السنة، كانت مهدا لبعض أهم الأحداث الدينية المحورية بالغة الأهمية. من غزو يشوع حتى رسالة المسيح. تكسو الأحجار التربة، تلك الأحجار الناطقة بتلك اللحظات، بما فيها معبد صغير جدا فى مدينة بيت ألفا، هذا المعبد الذى يحوى أقدم صورة لإبراهيم يقدم ابنه كذبيحة للرب.

تم بناء معبد بيت ألفا فى القرن السادس الميلادى بواسطة مجموعة صغيرة من اليهود. وقد تم تصميمه ليسع حوالى ثلاثمائة مصل، يواجه المبنى الحجرى الغرب نحو أورشليم، بجزء ناتئ نصف دائرى وصحن كالذى نراه فى الكنائس فى ذلك الوقت. تم تزيين قاعة الصلاة كلها بالفسيفساء - أسمر ضارب إلى

الصفرة.. وأصفر يميل للحمرة، وبرتقالى.. وقرمزى. الترصيع بالفسيفساء يصور تابوت العهد، ودائرة البروج، وقريب جدا من الباب صورة كبيرة بعرض عشرة أقدام لإبراهيم. وإسحاق والخروف وذراع لله صارخة، بالعبرية، "لا ترفع يدك".

قال لى صديقى وهو عالم آثار يدعى أفنر جورين: "إنه حقا فى ذلك الوقت، كان الذبيح يعتبر المثل الواضح والصارخ لإخلاص الإنسان وتفانيه لله. لهذا السبب نراها فى وسط المعبد".

لم تكن تلك دائما القضية. فبعد وصفها فى سفر التكوين الإصحاح الثانى والعشرين، لم يرد ذكر قصة الوثاق مرة أخرى فى الكتاب المقدس العبرى. فلم يشر إليها أى من أنبياء العهد القديم من قريب أو بعيد، لا داوود ولا سليمان ولا أحد تعرض للقصة رغم أنهم تعرضوا لأحداث كثيرة أخرى فى حياة الآباء الأوائل. فعندما ذكرت الكتب مؤخرا إبراهيم، يذكروا رحيله من أور، تسلمه للعهد، ووعد الله له بالأرض، ربما حيرهم الأمر وأربكهم. ربما أرادوا النأى بأنفسهم والابتعاد بها عن الخداع وعن تصور التضحية بطفل. لا نعرف السبب المؤكد.

بعد قرون من الإهمال، بدأت القصة تأخذ حقها وحظها من الاهتمام والبروز قرب نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد فى وقت كان الإسرائيليون يواجهون فيه اضطهادا. يقول الكتاب إن أحفاد إبراهيم استعبدوا وخلصوا من العبودية، ثم غزوا أرض الميعاد وذلك فى الألفية الأولى قبل الميلاد تقريبا.

احتلوا تلك الأرض لما يقرب من نصف قرن قبل أن يتم غزوهم ويؤخذوا فى السبى وذلك فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد. بينما كانوا فى السبى، قام قادة الأمة المنكسرة المهزومة من تطوير سلسلة من الممارسات والصلوات تلك التى أصبحت بؤرة اليهودية.

حتى بعد استردادهم للأرض بعد ذلك بخمسين سنة، لم يعد الإسرائيليون يعيشون معا بصورة كلية. فقد مارسوا طقوسهم فى ميزبوتاميا، ومصر، والجزيرة العربية. بالنسبة لتلك المجتمعات، كانت محاطة بمن هم من غير اليهود المعادين

لهم، أصبحت تقدمة إبراهيم لإسحاق رمزا قويا للمعاناة التى يجب أن يتحملها الشخص الورع من أجل الإيمان. كما كتب فيلو، الفيلسوف اليهودى الذى عاش فى مصر فى القرن الأول قبل الميلاد، إن إبراهيم خدم خالقه "بعيدا عن الحب، بكل قلبه."

النقطة الأكثر وضوحا التى للأهمية الجديدة الموضوعة على التقدمة هى أن إسحاق الآن يصبح ضحية واعية وتلقائية ومرغوبا فيها. ففى كتاب يوسيفوس، "الآثار اليهودية "، والذى يعيد سرد قصص الآباء الأوائل، يسلم إبراهيم حديثا منطقيا وهادئا لابنه قبل أن توضح الحكاية فعله. نرى إسحاق فرحا لدرجة أنه يؤكد لإبراهيم أنه لم يكن ليستحق أن يولد على الإطلاق وأنه" على استعداد تام أن يسلم نفسه" من أجل إسعاد الله ووالده. ثم بعد ذلك يندفع نحو المذبح ليموت.

بالنسبة ليهود تلك الفترة، الذين تأثروا وبعمق بالفلسفة اليونانية، فقصة الوثاق رمزت ومثلت قوة المنطق لتهزم العواطف الفجة، حتى الحب الأبوى. ففى واحدة من القصص الشعبية الشهيرة، وردت فى أسفار الأبوكريفا فى سفر المكابيين الرابع، يحكى أن امرأة وأبناءها السبعة يرفضون أن يأكلوا لحم الخنزير ولا اللحوم المذبوحة للأصنام وتم تعذيبهم بوحشية وقتلوا. " تعاطف الأم مع أطفالها لم يهز الأم التى للشباب الصغير؛ فقد كانت بنفس عقل إبراهيم. "يذهب الكاهن الشهيد إليعازار أبعد من ذلك، صارخا وهو على فراش الموت أنه على اليهود أن يتشبهوا بإسحاق: مستعدين بحب أن يضحوا بأنفسهم من أجل الله." "آه يا أولاد إبراهيم، موتوا بنبل من أجل دينكم وعقيدتكم." فجأة تصبح التقدمة ليست مجرد اختبار؛ إنها مستو ومعدل التقوى والورع .

قصة وثاق إسحاق، التى تم إهمالها وتجاهلها لقرون، تم تحويلها فى عصر المسيح إلى لحظة حاسمة وفاصلة فى حياة إبراهيم وقصة رمزية لمعاناة اليهود الذين كان يجب عليهم أن ينظروا للموت وجها لوجه، ولا يهابوه ويتماسكوا ويتمسكوا بإيمانهم، وبأبيهم. الموت أيضا يحوى، لقد أصبحت التضحية بالنفس، حتى بالنسبة لليهود، الممر للخلاص المقدس والانعتاق من الخطية.

التقط المسيحيون تلك الرؤية التى للوثاق وحولوها إلى أبعد من ذلك: الوسيط الذى للرابط الأيقونى بين إبراهيم والمسيح.

على بعد مسافة قصيرة من المشى من جبل المعبد فى المدينة القديمة يبرز واحد من أبرز المبانى تشييدا وأغربها فى أورشليم، فهو منبسط، غالبا ما يعيد بناء البازليكا (وهو مبنى مستطيل فى أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائرى) بكنائس إضافية، وقباب، ومناور، وقباب مثبت على كل سطح. يعد المذبح المقدس الذى لكنيسة يجب أن يكون بيكاسو هو من رسمها - رؤية مثال تكعيبى لجمال ممزق. القبر البالغ من العمر ألفا وسبعمائة عام الذى يعين المنطقة حيث صلب المسيح، ودفن وقام، يعتبر مكانا شديد القداسة لدرجة أن السيطرة عليه يتم تقسيمها بين اليونان الأرثوذكس، والرومان الكاثوليك.. والأقباط، والأرمن، والسريان. ويمسك مسلم بمفتاح الباب الأمامى.

الجلجثة، التى تعرف أيضا بالجمجمة أو صخرة الصلب، هى نفسها موقع لكنيسة صغيرة من طابقين، يخضع الطابق الأرضى لليونان الأرثوذكس، أما الطابق العلوى فيتقاسم السيطرة عليه كل من الكاثوليك اليونانيين والرومان. يزين الربع الكاثوليكى ثلاثة من ألواح الفسيفساء الضخمة: فى الوسط جدارية لمريم المجدلية؛ إلى اليسار يظهر المسيح بعد إنزاله مباشرة من الصليب؛ أما الجدارية الواقعة إلى اليمين، يظهر فيها إبراهيم وهو على وشك التضحية بإسحاق. صورة المسيح مسجى على حجر مطيب ممسوح بزيت يتماثل تقريبا مع الصورة التى لإسحاق على المذبح. يظهر كلا الرجلين عاريين فى الصورة سوى قطعة قماش حول وسطيهما؛ أما الملامح على وجهيهما فتظهر قبولاً على مضض يفيض ألما. خلف المسيح يمكن رؤية شجيرة بدون أوراق ؛ خلف إسحاق يرى شجيرة بخروف.

من الواضح جدا هنا أن الرسالة مفادها أن جبل الموريا والجمجمة متشابهان، "شرح جيسيكا حارانى قائلا، وهو أستاذ أديان فى جامعة تل أبيب. "يحب إبراهيم الله حبا جما لدرجة أنه سيضحى بابنه. يحب الله الإنسانية لدرجة أنه سيضحى بابنه. المساواة هنا لا تخطئها عين وهذا هو ما ينبغى أن يكون".

"ولكن هناك اختلاف كبير" قلت مضيفا " فإبراهيم لم يضح بابنه".

ترى دراسة الرموز المسيحية إلى المسيح على أنه متمم للنبوءات.

رغم كل اختلافاتهم فى السنوات الأخيرة فإن المسيحية واليهودية تقاسما شيئا عميقا فى القرون الأولى للألفية الأولى: فكلاهما تم اضطهاده من قبل الرومان. فى هذا السياق، كلتا الديانتين كانتا فى حاجة لنماذج ليس فى الإيمان فقط ولكن للإيمان فى مواجهة التحدى. لقد وجد كلاهما وحيا فى رغبة إبراهيم طوعا فى التضحية بابنه ـ وفى رغبة إسحاق طواعية أن يتم قتله.

الربط بين الوثاق والصلب تم لأول مرة عن طريق بولس. فقد وضع الجلجثة فى قلب الديانة الجديدة ورأى فيها أوج وذروة التاريخ: فمن ناحية، يعمل إبراهيم لصالح إسرائيل؛ ومن الناحية الأخرى، الله يعمل لصالح الإنسانية كلها. ففى كلا الاقتراحين، الله ينقذ حياة الضحية. فقد كتب بولس فى رسالته الثانية للعبرانيين "بالإيمان قدم إبراهيم إسحاق وهو مجرب، قدم الذى قبل المواعيد. الذى قيل له إنه بإسحاق يدعى لك نسل. إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضا الذين منهم أخذه أيضا فى مثال".

طور ووسع مسيحيون آخرون فى ذلك العصر على تلك الرابطة. فها هو يوحنا يطلق على المسيح "حمل الله" حرض أرينايوس المسيحيين على حمل الصليب من أجل إيمانهم، كما حمل إسحاق الحطب للتقدمة الخاصة به. يلاحظ تيرتيليون أن السبب الذى جعل إسحاق يحمل الحطب للتضحية به كان سرا وبقى هكذا حتى طلب من المسيح أن يحمل الصليب الذى سيصلب عليه.

علاوة على ذلك، فإن إسحاق، كالمسيح ، ولد خارج مملكة الطبيعة لم لا تنجب. كلا الولادتين تم التبشير بهما والإعلان عنهما من قبل الملائكة. لقد حدد الإنجيل تاريخ صلب المسيح فى عيد الفصح اليهودى، وهو نفس الفصل الذى فيه حدد المفسرون اليهود تقدمة إسحاق.

فكرة النبوءة ـ فكرة أن شيئا ما يحدث فى الكتاب المقدس العبرى يمثل شيئا ما يحدث فى العهد الجديد قبل أن يحدث فى الواقع ـ يصل بقوة كلتا القصتين

معا ويظهر جدليا كيف أن المسيحية واليهودية خرجتا من نفس البوتقة. لكن يقدم التنبؤ أيضا اقتراح الهرمية، تلك التى ستقيد فيما بعد العلاقات بين اليهود والمسيحيين. بالنسبة للمسيحيين، من الآن فصاعدا، لم تعد القصص التى فى الكتاب المقدس العبرى منفصلة ومستقلة؛ فهى مجرد منذر للأحداث فى العهد الجديد؛ حيث تصل لاكتمالها الروحى. فى ضوء ذلك، لا يستحضر المسيح إسحاق، بل ينسخه ويحل محله. فلوحا الفسيفساء التوأم بطول الجلجثة، على سبيل المثال، يشتملان على اختلاف واحد قوى: ليس لدى إسحاق هالة ذهبية فوق رأسه؛ لكن المسيح لديه.

المسيح مات بالفعل.

إسحاق لم يمت.

أم ترى هل فعل؟

لقد توافق النهوض والصعود المبكر للمسيحية بخندقة وهبوط لليهودية، التى عانت بشدة إثر تلقيها ضربة قاتلة أخرى بتدمير الهيكل الثانى فى عام ٧٠ م. شعر اليهود فى ذلك العصر أنهم ضحايا للرومان، الآن يشعرون أنهم أكثر عرضة للخطر. اختبرت بعض التقاليد الأثر الذى لهذا التغيير أكثر من الأقصوصة على جبل الموريا. لقد أصبح التفسير المسيحى لتلك القصة قويا جدا لدرجة أشعرت المفسرين اليهود أنهم فى حاجة للرد. تحديدا، اتبع اليهود التوجه المسيحى وبدؤوا فى التركيز على إسحاق. فإسحاق ، كاليهود، كان ضحية. وإسحاق، كاليهود، عانى فى صمت.

فى ملحوظة واحدة لهذا التحول، تغير الاسم الذى أطلقه اليهود على الحدث من التقدمة، تلك الكلمة التى تظهر فى القصة ونراها فى النص، إلى الوثاق، وهى كلمة لم ترد. (المصطلح الإنجليزى الشائع لذلك الحدث، التضحية، أو القرب من التضحية، أيضا يعكس هذا التأثير المسيحى) بالإضافة إلى ذلك، لأول مرة تدخل كلمة الوثاق (التضحية بالذات) الطقس الدينى اليهودى أثناء تلك الفترة، حوالي القرن الثالث.. ومنذ ذلك الوقت وإلى الأبد، يقرأ اليهود قصة الوثاق فى أثناء احتفالاتهم بسنتهم الجديدة.

الدلالة التى لهذا التغيير هو أن، فى سنوات المسيحية المبكرة، إبراهيم قد ذهب بالفعل من شخصية لأصل شائع إلى واحد تتصارع الأديان لضبطه والتحكم فيه . فكل ديانة من الديانتين تحاول أن تقدم نفسها على أنها الوريث الطبيعى لتلك التركة: "نحن أكثر شبها بإبراهيم منك".

تلك المعركة ساءت أكثر عبر الزمن. ففى أيام الحروب الصليبية، أصبحت العداوة المسيحية ـ اليهودية أكثر شدة لدرجة جعلت المفسرين اليهود يأخذون الخطوة التى لابد منها فى محاولة لاسترداد تراثهم.. وفى القرن الحادى عشر، بدأ المسيحيون الغزاة سلسلة من الاضطهادات الدموية ضد اليهود. ففىماينس، وورمز، وكولجن كان يطلب من اليهود التخلى عن دينهم والتحول (إلى المسيحية). ولو رفضوا كان يتم تعذيبهم. بدلا من الارتداد، فضل الكثير من اليهود قتل أنفسهم وأولادهم . وقد احتوت كتب الصلاة اليهودية فى ذلك الوقت على صلوات كان يتم تلاوتها قبل قتل أولادهم وارتكابهم لجريمة الانتحار.

كتب مؤرخ من ماينس، "حيث مات ثلاثمائة فى ١٠٩٦" ليس هناك من هو أفضل من الله للتضحية بحياتنا لأجله. "دع كل شخص يملك سكينا أن يفحصها خشية أن تتصدع وتثلم. دعه يتقدم ويقطع رقابنا ويجز حناجرنا من أجل تقديسه وعلو اسمه الذى له وحده الخلود؛ وأخيرا دعه يقطع رقبته هو."فصل النساء رقاب أبنائهن عن أجسادهم، وقتل الحاخامات رعاياهم، الأحباء إلى قلوبهم" حتى كان هناك فيضان واحد من الدم.

ولماذا كانوا يصرخون بينما كانوا يرتكبون الانتحار الجماعى "أسأل الآن وأنظر، هل حدث وكان هناك مثل تلك الإبادة منذ أيام آدم؟ متى حدث وكان هناك ألف ومائة ضحية فى يوم واحد، كل واحد منهم كان مثل الذبيح الذى لإسحاق بن إبراهيم؟"

ولأنهم واجهوا موتهم، فقد أدار اليهود ظهورهم لإبراهيم، وبفعلهم هذا غيروا فكرة المعاناة التى كانت موجودة لقرون، فى التراث اليهودى القديم، عانى بنو إسرائيل لأنهم خالفوا وصايا الله. تلك الرؤية تفسر عقوباتهم فى الصحراء تحت قيادة موسى أو فى إسرائيل بعد أن أسسوا مملكتهم.

على العكس، بدأ اليهود فى العصور الوسطى فى النظر إلى المعاناة على أنها إشارة لرضى الله بدلا من غضبه. فالأشخاص النموذجيون الذين يقتدى بهم كان يطلب منهم أن يعانوا بسبب أعمالهم الصالحة وسلوكهم الورع، كما قالت الحاخامات. الصعوبة والمعاناة دليل على الاستحقاق، لا الخطية. ويقوى فقط هؤلاء المخلصون. وكدليل أنهم تحولوا إلى إسحاق. ولكن لكى يبيعوا تلك الفكرة التى باعتباره ضحية حتمية، لإسحاق ويسوقون لها، كان على المفسرين أن يجعلوا هذه القصة أقرب فى التوازى مع تلك العصور. لكى يفعلوا هذا قاموا بتقديم فكرة متطرفة: قالوا إن إسحاق كان بالفعل ضحية. لقد قتل إبراهيم ابنه بالفعل.

فكرة أن إسحاق مات على جبل الموريا لها جذور عميقة فى التفسير اليهودى. كما بين شالوم سبيجيل فى دراسته التى قدمها عام ١٩٥٠ ، بعنوان (المحاكمة الأخيرة)، مرة أخرى نرى المعلقين وقد أسسوا وجهة نظرهم بقوة على النص الكتابى. فقد أشاروا إلى حقيقة أن إسحاق لم يرجع مع إبراهيم من على الجبل، وأن كلمة الخروف، هر، هى بالفعل مشتقة من هريت.. أو "نهاية العالم" التى توحى أن إبراهيم فهم أن أحفاده سيمسكون فى الغابة وفى أحراشها حتى نهاية العالم.

ولكن الشرك الأكبر هو، بينما كان إبراهيم موثقا لابنه، ناداه الملاك مرتين ليوقفه، قال له فى المرة الأولى: "لا تمد يدك إلى الغلام" وفى المرة الثانية"، لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى. "بذاتى أقسمت" يقول الرب: إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة. "تشبث المفسرون وانقضوا"، ترى لماذا ناداه الله مرتين إذا كان قد توقف بالفعل فى المرة الأولى؟ لماذا يقول أيضا، إبراهيم لم يمسك ابنه وحيده وحبيبه؟

سبب واحد يفرض نفسه: أن إبراهيم بالفعل قتل ابنه بالفعل فى المرة الأولى. كما كتب الحاخام إفرايم الذى بين فى قصيدة مؤثرة كتبها فى القرن الثانى عشر، أن إبراهيم كان فى عجالة وأنه أوثق إسحاق وذبحه.

تساقط فوقه ندى القيامة، وتم إحياؤه.

قبض الأب عليه بقوة وذبحه مرة أخرى.

الكتاب المقدس العبرى، يحمل شهادة! هى الحقيقة مؤسسة تماما

ونادى الرب إبراهيم، مرة أخرى من السماء.

عندئذ رأى إبراهيم الخروف، اقترح المفسرون، وقتله فى المرة الثانية.

لذا لو كان إسحاق قد مات بالفعل لوقت محدد، ماذا حدث له؟ فمن الواضح جدا أنه يرجع فيما بعد، وينجب عيسو ويعقوب، ويموت عن عمر كبير. هاهنا تصبح التعليقات أكثر تعقيدا. وتبين ولاءها العميق للمسيحية. إسحاق، كما قال الحاخام. ذهب بعيدا بالفعل لمدة ثلاثة أيام، ثم عاد. نقرأ فى بعض الروايات أنه ذهب إلى السماء؛ وفى روايات أخرى إلى جنة عدن؛ أو حتى لدراسة التوراة. تسبق الدلالة التى للثلاثة أيام اليهودية والمسيحية وقد عرفت تماما الوثنيين الميسوبوتاميان (حضارة العراق البابلية) كالوقت الذى سافرت فيه الآلهة للعالم السفلى وعادت".

مع ذلك فإنه وحتى بالنسبة للمفسرين اليهود ليست النقطة فى أن إسحاق قد مات ولكن لأنه قام من الموت. لقد أحياه الله مكافأة له على صلاحه لذا فقد أصبح قادرا على أن يهب الخلاص لأحفاده. فكرة أن إسحاق قد تمت التضحية به وولد من جديد كانت فكرة واسعة الانتشار لدرجة أن اليهود فى العصور الوسطى بدؤوا فى وضع الرماد على جباههم ليتذكروا أباهم الأول الذبيح. كل يهودى واجه محاكمة أصبح إسحاق آخر. يستنتج الحاخام إفرايم، "استدع لضماننا وفخرنا ال (أكيداه) الكثيرة، القديسين، رجالا ونساء، يذبحوا من أجله".

يبدو أن فكرة موت إسحاق وقيامته قوية لدرجة أن ما إن دخلت إلى التقليد اليهودى لم تختف كلية. لو أن أى شىء. ربما يكون كرب إسحاق مسئول أكثر عن أثر تحمل القصة. يعتبر اختبار إبراهيم غير عادى، لأنه يجعله بعيدا فى طرق عديدة، بينما ورطة إسحاق أكثر سرعة. لقد أصبح إبراهيم شبيها بالإله، لم يعد بشرا. ليس مثلنا بعد وليس منا.

أما إسحاق فهو مثلنا، إنه نحن ـ رغبتنا أن نثق طواعية فى آبائنا، ألمنا المستمر الثابت، رغبتنا الدائمة فى أن تتم مكافأتنا على صلاحنا. ففى أى وقت فى التاريخ عندما عانى أناس أبرياء، أورد الشعراء إسحاق كمرشد ومنارة للنبل والظلم. استحضر الشاعر الإنجليزى ويلفريد أوين موت إسحاق كإشعار حى وتحذير للآباء الذين يرسلون أبناءهم للموت فى الحرب العالمية الأولى. يتوسل الملاك بإبراهيم أن لا يقتل الغلام، ويشير إلى الخروف الذى سيحل محل الغلام. "لكن الرجل العجوز لم يفعل هذا لكنه ذبح ابنه ـ ونصف بذور أوربا، واحدا تلو الآخر."

وظف المثال جورج سيجال إبراهيم وإسحاق بنفس الطريقة لإحياء ذكرى قتلى ولاية كنت. استخدم بوب ديلان إبراهيم بصورة مشابهة ليحتج على حرب فيتنام فى "زيارة أخرى للطريق السريع ٦١" يقول الله لإبراهيم، "اقتل لى ابنا". يقول آبى "يا رجل، يجب أن تتلبسنى." يقول الله، "لا" يقول إبراهيم،" أين يجب أن يتم القتل؟" يقول الله: "فى الخارج على الطريق السريع ٦١." (يعتقد أن الرقم ٦١ يشير إلى طريق سريع فى موطن ديلان بولاية مينيسوتا) .

ولكن فكرة أن إسحاق استعارة لموت غير ضرورى وصلت تعبيرها المحدد النهائى فى الهولوكوست. انتحبت واحدة من التهويدات الييدشية[٢٥] فى ذلك الوقت.

أنت، يا طفلى، إنك عضو
من تلك الجموع المقدسة.
غصن واهن طرى من شجرة تائهة.
بينما، مثل إسحاق إلى الذبح .
تحملنا السفينة عبر البحر.
نم، يا صغيرى؛ لم نزل فى الصباح الباكر.

(٢٥) هى لهجة ألمانية عبارة عن خليط من العبرية والسلافية، وكانت تكتب بأحرف عبرية (المترجم).

قريبا ستهدأ الأمواج.

فى الضباب الكثيف أختبأ

يترصد قوة رجالنا الباقية.

وكما كان قد كتب إلى ويسيل، "كل المذابح، والحملات الصليبية، والاضطهادات، والمجازر، والكوارث، والقتل الوحشى بالسيف أو الحرق بالنار - فى كل وقت كان إبراهيم مقتادا ولده إلى المذبح، إلى المحرقة فى كل مكان مرة أخرى".

ولكن كما يؤكد ويسيل أيضا: ليست الشهادة، بكل ما تتحمله فى التاريخ الدينى، موضوع اليهود ولا قضيتهم، ولا هى تيمة الوثاق الرئيسية. لكن البقاء على قيد الحياة هو الموضوع. فإسحاق، مهما يكن ما حدث له فى جبل المريا، يعيش فى النهاية - كما يفعل أحفاده. فى الحقيقة، يعتمد بقاء اليهود على قيد الحياة على بقائه هو، ويدنو منها من أجل الإلهام، تبدأ إعادة الطمأنة تلك من اسمه الذى يبدو ظاهريا غير ملائم، يتسحاق "وهو يضحك." ولأنه أول من يتم إنقاذه ويبقى على قيد الحياة، يعلم إسحاق الباقين الآخرين فى تاريخ اليهود المستقبلى أنه من الممكن أن تعانى وتتألم، وتضطهد طول العمر مع ذلك لا يجب أن تفقد فن الضحك.

يرى ويسيل أن إسحاق لم ينس الرعب الذى وقع عليه والذى واجهه فى جبل المريا. فهو ينظر إلى الأبد فى وجه والده، ليرى السكين الممتدة فوق رقبته، ويسمع نداء الإنقاذ من الله. وهو يعرف أن الظل الذى لموته تمت إضاءته بالنور الذى لقوة تحمله. وفوق كل شىء، هو يعلم أن فى الوهج الذى لمثل تلك الكارثة، هناك رد واحد فقط. يضحك، يتخيل ويسير: "يرغم ذلك"

إذا كان الاحتمال القائل إن إسحاق يموت فى عملية الوثاق صدمت معنى القصة إلى الأبد، هناك فكرة أخرى خلقت تحديا أكبر لها. ماذا لو لم يكن إسحاق هو الابن؟

فى التاسع من ذى الحجة، يجتمع حوالى مليونى متعبد، ومصل مسلم بملابس الإحرام البيضاء فى وادى منى، خارج مكة، تحت الشمس الحارقة. يعد العباد العدة للأحداث المهمة التى للحج، تلك الرحلة المقدسة السنوية التى يتوجب على كل مسلم قادر جسمانيا وماديا أن يقوم بتلك الحجة مرة واحدة على الأقل. عند الفجر يلتقط الحجاج قبضة اليد مملوءة بالحصى، ويرمى بالحصى على ثلاثة من الأعمدة الصخرية العملاقة. تلك الأعمدة التى يبلغ طول الواحد منه خمسين قدما، هى بالفعل قمعية الشكل. وهى تمثل الشيطان، الذى حاول لثلاث مرات أن يغوى إبراهيم ليخالف الله بأن يرفض تقديم ابنه أضحية. لم يخضع إبراهيم ولم يذعن له.

فى الصباح التالى، يجتمع الحجيج مرة أخرى فى السهل المفتوح المنبسط. يقود أمام طائفة من المصلين، بعد ذلك يأخذ خروفا يبلغ من العمر عاما على الأقل ويقلبه على جانبه الأيسر، فى مواجهة مكة. يردد الكلمات المقدسة، الله أكبر، بعد ذلك يقطع رقبة الحيوان بعناية - بضربة واحدة. يتجمع الدم مشكلا بركة. إنه عيد الأضحى أو العيد الكبير، وهو الشعيرة الأخيرة للحج ويتم إحياء لذكرى تضحية إبراهيم بالخروف بدلا من قتل ابنه. ففى المملكة العربية السعودية وحدها يتم نحر نصف مليون حيوان ما بين أغنام أو خراف أو بقر أو جمال؛ يتم توزيع معظم هذا اللحم على الفقراء.

يقول القرآن الكريم فيما يخص الحيوانات المذبوحة، ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون. لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾. لذا فإن الغرض من هذا العمل ليس إطعام الله بل لإطعام أرواح البشر. كما يرد فى سورة الحج.

ولكن رغم أن القرآن كان واضحا ومحددا فيما يخص تفاصيل كيفية الذبح وتوزيع اللحوم، فمن المذهل أنه لم يكن محددا فيما يخص تفاصيل الحدث الذى أوحى بهذا العيد.. أوقف أى حاج بصورة عشوائية فى منى، قم بعمل بحث بسيط على الإنترنت، قابل أى مسلم متعمق فى الإيمان فى أى مكان فى العالم واسأل عن الابن الذى اصطحبه معه إبراهيم فى ذلك اليوم وستحصل على إجابة واحدة

حتما. كما تنته الموسوعة الإسلامية إلى أنه "من المقبول عادة فى الإسلام أن الأضحية ما كان يجب أن تكون سوى إسماعيل."

لكن القرآن لم يكن بمثل هذا الوضوح.

القصة التى لتضحية إبراهيم القريبة تعرف فى اللغة العربية بـ الذبيح، من الفعل "يقطع ، يشطر، يشق" ويشير إلى كل من الأسلوب أو طريقة الذبح والضحية. ويوصف الحدث فى سورة الصافات. متبوعة بقصة إلقاء إبراهيم فى أتون نمرود وهو طفل. يصرخ إبراهيم ﴿رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم﴾. وعندما يبلغ الابن سن العمل يقول له إبراهيم ﴿فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين﴾.

يمدد إبراهيم الولد منبطحا على وجهه، ولكنه بينما يفعل ذلك ناداه ربه ﴿قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين﴾. يقول الله مستنتجا ﴿وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إبراهيم﴾.

تنتهى القصة بأول إشارة وأول مرجع لاسم ابن ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾.

التشابه بين هذه القصة والقصة كما وردت فى الكتاب المقدس العبرى تشابه مذهل. يتلقى إبراهيم نداءً من الله ليقدم ابنه؛ يذهب إبراهيم إلى أقصى جزء فى الحكاية ليبدأ فى تنفيذ العمل؛ يتدخل الله وينقذ الصبى. التشابه مع التفسيرات الكتابية ـ سواء اليهودية أم المسيحية ـ ملحوظ ولا يمكن إغفاله. فالولد كبير بما يكفى للكلام والعمل، يقوم إبراهيم فعلا باستشارة ولده، ويبدو الولد راغبا فى أن يكون ضحية.

ولكن تظهر اختلافات مهمة، أولا، الحدث يحدث فى حلم(*)، مما يجعل الأمر غير واضح إذا كان قد تم بالفعل.. الشىء الثانى أنه لم يرد ذكر الموقع الذى تم

(*) يوضح القرآن أن الأمر يذبح الابن هو الذى كان فى حلم، أمَّا باقى القصة فحدث ثم بالفعل كما فى سورة.

فيه الحدث، ولا الحطب أو الخشب، ولا النار أو السكين. الملحوظة الأخيرة والأكثر أهمية هو أن اسم الابن لم يرد ذكره فيه. ويظهر اسم إسحاق بعد أن يكون قد تم سرد القصة.

قصور التفاصيل فى القصة القرآنية ليس مدهشا فى حد ذاته. فالقرآن غالبا ما يستثنى حقائق من المفترض أن يكون المستمعون على علم بها من قبل، وبدلا من ذلك يركز على الدرس الروحى المستفاد من الأحداث. والرسالة المراد توصيلها من تلك القصة تأتى مباشرة وحية: فإبراهيم إنسان مؤمن بحق، يخضع لله فى كل شىء ويمتثل لإرادته، مهما كانت غاية فى الصعوبة، وتتم مجازاته ومكافأته على جهوده المخلصة. يريد الله من كل البشر أن يضحوا ويهجروا كل الرغبات النجسة والتخلى عن كل شىء ـ حتى الحب الأبوى ـ لابتغاء مرضات الله، وخدمة الله العلى.

كما قال لى الشيخ فيصل عبد الرؤوف:" إن المعنى الذى أحصل عليه من قراءة القرآن هو أن القضية الأساسية أن كلا من إبراهيم وابنه قد أسلما نفسيهما لله إلى أبعد حد وهو حد التضحية بالنفيس و بالنفس. عندما يطلب منك الله أن تفعل شيئا، إلى أى حد ستكون راغبا وطائعا، وإلى أى مدى ستذهب فى طاعتك؟ هل ستضحى كما ضحوا هم؟ بالرغم من القصد الواضح من عدم تسمية الولد، ظهر القرآن فى المناخ الدينى السائد الذى للقرن السابع، حيث بدأ بالفعل الصراع بين اليهود والمسيحيين والمسلمين على ملكية عائلة إبراهيم. نتيجة لذلك، شعر المفسرون المسلمون بالحاجة لحل هذا الغموض. بدأ الجدال سريعا. فحص معظم المفسرين النص واستنتجوا أنه لابد وأن يكون الابن هو إسحاق. رددوا حقيقة أن الأضحية حدثت مبكرا تقريبا فى حياة إبراهيم، قبل سفره لمكة مع إسماعيل. أيضا، فى كل مرة يعد الله إبراهيم بابن فى القرآن، يسمى الولد إسحاق. علاوة على ذلك، فعندما صلى إبراهيم طالبا ابنا فى بداية القصة، من المؤكد أنه كان يصلى طالبا إسحاق.

أضاف المفسرون المسلمون الأوائل تفاصيل لجعل إسحاق أكثر إغراء وأكثر قبولا. يقول الكاتب السيوطى إن إسحاق طلب من والده أن يحكم ربط قيوده حتى لا يتلوى، ليحرك السكين بسرعة، وأن ينزل ملابسه حتى لا تخضب بالدماء

فتزيد من حزن سارة أمه. يقبل إبراهيم إسحاق، ويلقيه على جبهته (إضافة إسلامية شيقة، جعلت المصلين يلمسوا الأرض بجباههم عند السجود.. أخيرا يتدخل الله..

سيطر معسكر إسحاق فى القرون الأولى للإسلام، لكن بمرور الوقت تم مقابلتها بالمؤيدين لإسماعيل، ما جعلهم يتشبثون بذلك، اعتمد هؤلاء المفسرون على حقيقة أن الله ما كان ليطلب من إبراهيم أن يضحى بإسحاق لأن الله كان قد وعد بالفعل إبراهيم وسارة فى القرآن أن إسحاق سيكون له ابن. وحيث إن الله، كما عرفنا، لا يخلف وعدا. أيضا، يبرز فى القصة مصدرا آخر للشد والتوتر من فكرة أن إبراهيم إن يطلب منه التضحية بابنه عندما يبدو أنه قد أصبح كبيرا جدا على إنجاب ابن آخر. ستتقدم تلك الدراما بطلب الابن الأول. الذى هو إسماعيل.

كما صاغها الشيخ عبد الرؤوف:" ليس هناك من خلاف بين اليهود والمسيحيين والمسلمين من أن الوصية والأمر كان لابنه وحيده. ولا خلاف؛ لأن إسماعيل كان ابنه الأكبر.

المؤيدون لإسماعيل أيضا يؤكدون على نقطة أخرى، نقطة جيوبوليتيكية. فالذبح حدث فى منى، كما يقولون، بعد انتقال إسماعيل للعيش فى الصحراء، أثناء واحدة من زيارات إبراهيم. لا يريد المفسرون اليهود ولا المسيحيون، كما يقولون، أن يعترفوا بانجذاب إبراهيم الواضح نحو إسماعيل. يخبرنا الثعالبى وهو أحد علماء الإسلام فى القرن الحادى عشر أن أحد الحكماء اليهود أخبرأصدقاءه المسلمين أن اليهود يعرفون الابن الحقيقى المضحى به. "لكنهم يحسدونكم حقا." "كما يقول الحكيم"، أنتم يا معشر العرب، يا من تنتمون لجدكم الذى أمر الله أن يتم التضحية به"

كما كتب ابن كثير فيما بعد، ويذهب فيما كتب لأبعد من ذلك، متهما اليهود بأنهم"، بعدم أمانة وافتراء، مقدمين إسحاق إلى القصة، رغم أن الكتاب المقدس يقول إن إبراهيم ذهب ليضحى بابنه وحيده حبيبه. "قاوموا هذا الفهم ورفضوه

لأن إسحاق أبوهم بينما إسماعيل أبو العرب..كما لخص الطبرسى الجدال" الدليل على هؤلاء الذين قالوا إنه إسحاق هو أن المسيحيين واليهود اتفقوا بشأنها. وللرد على هذا هو أن اتفاقهم ليس دليلا ووجهة نظرهم غير مقبولة".

حتى القرن العاشر، استمر المسلمون فى الجدل والنقاش حول شخصية الابن، كذلك النقاش والجدل الذى دار بين اليهود والمسيحيين حول ما إذا كان إسحاق قد مات بالفعل. كما علق الطبرى على الجدل المحموم قائلا:" لو كان أيهما على حق بصورة كاملة، لن ننزعج للآخر." ولكن لم يسد أى من الفريقين. وازن أحد العلماء الدارسين بين آراء أكثر من مائتين من التعليقات والتفسيرات الإسلامية فى العصور الوسطى وانتهى إلى أن مائة وثلاثين قالوا إن إسحاق هو الابن المقصود بينما قال مائة وثلاثة وثلاثون إنه إسماعيل(٢٦).

لذا فبمرور الوقت دانت السيادة لإسماعيل فى العالم الإسلامى، وبهتت، أو لنقل إنه تم محوها من التاريخ، فكرة أن يكون إبراهيم من الممكن أن يكون قد اصطحب معه إسحاق من التاريخ. استنتج فايرستون أن هذا الخلاف كان له الكثير ليفعله فى الصراع بين الأديان أكثر مما يفعله فى الصراع بين إبراهيم والله. بحلول القرن الحادى عشر، فضل المسلمون الاعتماد على مصادرهم الخاصة الموثوق بها، و"لأن علاقة النسب مع إبراهيم وإسماعيل والعرب الشماليين أصبحت مؤسسة وراسخة بصورة أكبر، ظلت أسطورة إسحاق تضمحل شيئا فشيئا وتتزايد بشأنها الشكوك حتى تم رفضها نهائيا فى آخر الأمر.

فبالنسبة للمسلمين، كان إسماعيل هو الابن المفضل والمحبوب، لذا فقد كان الابن الذى أخذه إبراهيم للتضحية به. . والأمر الذى كان فى السابق موضع جدل أصبح من العقائد ومن المسلمات. وكما أن المسيحيين يؤمنون أن بروايتهم للقصة تنسخ وتبطل الرواية اليهودية، كذلك آمن المسلمون أن روايتهم كذبت وتفوقت على

(٢٦) لم يحدد المؤلف من هو الدارس، كما لم يحدد أيضا عنوان المُؤَلف، وبالتالى تحتاج هذه النقطة تحديدا نقصد قضية من هو الذبيح ـ كما يدعى المؤلف هنا إلى توثيق علمى دقيق خاصة فى المصادر الإسلامية (المراجع).

كل من الرواية اليهودية والرواية المسيحية. لقد أصبحت تلك القصة عن الخضوع لله من الناحية الاسمية قصة انتصار باسم الله. نتيجة لذلك، فالضحية الحقيقية التى لتقدمة إبراهيم أثبتت أنها ليس ابنه، ولا حتى الخروف.

إنه الانسجام والاتفاق بين أحفاده.

بينما كنت أعد العدة لمغادرة كوهين وأولاده، سألت بنيامين كوهين عن عدد أبنائه الذين أنجبهم. فأجاب قائلا: "عشرة". وكم عدد الأحفاد؟ " أكثر من خمسين." وماذا عن أبناء الأحفاد؟ بدأ يعد. "تسعة، عشرة، لا أتذكر" .

"سألته" لذا هل يمكن أن تضحى بواحد من أولادك؟"

لم يتردد لدهشتى. ورد قائلا: "كل منا يؤدى الأضحية الخاصة به. هناك الكثير نفعله لأجل الله. لم يعطنى الأمر بعد. ولكن لو أمرنى الله، لن أتردد عن فعلها أى: سأفعلها.

بالنسبة لبنيامين كوهين، كما بالنسبة للكثير من الناس اليوم، فكرة التضحية المطلقة لله ليست غريبة، إنها قريبة وحالية وفورية، إنها تعبير عن عدم أنانيتهم، وإيمانهم وإخلاصهم لله، ورغبتهم الجارفة فى أن لا يكونوا مرتبطين بالعالم من حولهم. وهذا، كما تيقنت، كان واحدا من أكثر النقاط المربكة التى لحياة إبراهيم، حقا، ربما كانت تلك هى أهم نقطة جعلتنى أشرع فى رحلتى تلك وأبدأ منها.

فكما اكتشفت، فليس إبراهيم الرجل المسالم الرائع. إنه مثال كبير فى التطرف كما هو فى الاعتدال. لقد تغذى وتربى فى سلوكه ـ فى إدانته للفرار من والده، فى رغبته لإرهاب ابنيه كليهما. الارتباط الوثيق بين الإيمان والعنف. وبعد ذلك عن طريق ترقية مثل هذا السلوك إلى مستوى التقوى، لقد أثار فى أحفاده رغبة مشابهة للجلد، لتصوير ورؤية الألم كذراع للإيمان، ولاستخدام الوحشية ليقدموا رؤيتهم لعالم مقدس مركزى.

بسبب كل الاختلافات فى كيفية تفسير اليهود والمسلمين والمسيحيين لقصة التقدمة، إلى حد بعيد الظهور الأعمق، أتيت للإيمان، هو كيف أن الديانات

الثلاث قد اختارت أنها تضع القصة التى لأب يعد لقتل ابنه فى قلب فهمها الذاتى. تلك الحقيقة مؤسسة لدرجة أنه من السهل أن تراها وتطل عليها. لكن ما كان يجب أن تكون. فكل الديانات الثلاث التوحيدية تجبر متبعيها والمؤمنين بهم أن يواجهوا أكثر الآلام الإنسانية التى لا يمكن تخيلها: فقدان طفل، الوثاق، الصلب، والذبح ـ دائما ترى كمميز للعقائد التوحيدية ـ توضح بالفعل أصولهم المشتركة.

فى قياس لتلك المشاركة المظلمة، تتقاسم الديانات الثلاث جميعا أسطورة تحيط التقدمة. فبسرعة وبعد أن يتم إنقاذ الولد، يستلقى على المذبح قابضا على السكين، العاطفة الناجمة عن تلك المحنة نافرة فياضة من جسده. يخبره الله بأنه سيضمن تحقيق أية مطالب يطلبها. "نعم أيها الرب، أنا أصلى طالبا منك أن تضمن لى هذا". قال الولد "عندما يلتقيك أى شخص فى أى عصر على باب الجنة ـ سواء إن كانوا يؤمنون بك أو لا ـ أسألك أن تسمح لهم بدخول الجنة".

متواجها مع شبح إقصائه والتخلص منه، يرد ابن إبراهيم بنداء من عنده. فهو يطلب من الله أن يبارك مباركيه ويبارك لاعنيه. تلك البركة الشاملة التى وعد الله إبراهيم بها ترجع الآن لتصبح حتى كطلب أكبر وأعظم من ابن إبراهيم. بعبارة أخرى، يمكن للعنف أن يتحول إلى فضيلة فى لحظة.

آخر شىء سألت بنيامين عنه قبل أن أغادره كان: ما الشىء المفضل لديه فى محله؟

رد قائلا: "أحب الزبائن".

قلت: "أعتقد أن الوضع سيئ جدا".

قال: "ليس جيدا جدا. لاحظ أنى لم أقل إنه سيئ. لا يمكن أن تقول إنه سيئ".

"لم لا يمكنك أن تقول سيئ؟"

قال:."لا تقل سيئ أبدا. لو استيقظت فى الصباح وتمكنت من فتح عينيك، فهذا جيد. "أخبرنى عن قصة كيف أن الله فى الإصحاح الثانى والثلاثين فى

سفر التكوين يكرر ليعقوب وعدا سبق ووعد به إبراهيم ليجعل نسله "لا يعد من الكثرة". وكلمة جيد كتبت مرتين" قال بنيامين كوهين. "هذا يعنى أنه لو قلت على شيء ما إنه جيد، سوف يتحسن. ولكن لو قلت إنه سيئ، فسترى كيف يكون السوء".

تحت تلك الظروف والأحوال، بدت تلك ككلمات لا يضارعها جمال. فى وسط منطقة للحرب فبعد دقائق قليلة أرانى القطعة فى سفر التكوين التى قالت إن إسماعيل سيمسك السيف ضد إسحاق إلى الأبد، وبعد ثوان فقط من قوله إنه سيقتل ابنه من أجل الله، شعر بإكراه أن يخبرنى أنه يتوجب على أن أستمر فى أن أكون شاكرا. "لو نقل أشياء جيدة عن إبراهيم "أردف قائلا"، ربما يتحسن هذا الجيد".

هذا مكان مقدس، على ما أعتقد، حيث يمكن للسيئ أن يصبح جيدا، يمكن أن يكون الموت مقدسا، وحيث لا وجود للألم كاف لهجر الله.

لا عجب إذن إن قلنا إن قصة الوثاق رئيسية ومركزية لليهود والمسيحيين والمسلمين، على ما أظن. إنها جزء من حياة إبراهيم التى تقطع قريبا جدا من أوردتنا و تطرح سؤالا نأمل أن لا نواجهه: ماذا سأقتل من أجل الله؟

الكثير من أحفاد إبراهيم، بالطبع، كانت الإجابة عبر التاريخ نعم.

شعب إبراهيم

(٥)
اليهود

كنت على مقربة من المدينة حين بدأ الدق فى أذنى بشدة، أصابنى صداع غير حاد بعد ذلك بقليل. فى غضون دقائق من السير شرقا من أورشليم، يبدأ الطريق فى الانحدار باندفاع عبر خفقان من التغيرات المناخية والتقلبات الجوية بصورة سريعة، فى البداية كان الطقس باردًا ومطيرًا بالقرب من المدينة، ثم غيوم ولمحات من الحشائش الخضراء فوق الجبال، ثم جو حار رطب، وسماء زرقاء عند حافة الجرف الصخرى، وأخيرا مر بى سرب من الحيوانات الجهنمية وكأنها قابعة فى قاع العالم.

يؤدى البحر الميت، والذى كان يعرف قديما ببحر الملح دور ستار المسرح الخلفى لعدد من الأحداث المهمة المحورية فى الكتاب المقدس العبرى، بما فيها سدوم وعمورة، وجبل نيبو، أريحا. كما أنه خدم أيضا فى نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد كموقع للحظة التحول التاريخية فى التاريخ الكتابى - ولتاريخ إبراهيم أيضا.

على عمق حوالى ألف وثلاثمائة قدم تحت سطح البحر، على قمة تل يطل على الساحل الشمالى الغربى للبحر، تقبع بقايا وآثار مجتمع صغير وقديم فى العراء تحت الشمس. مجموعة من الحجرات المكدسة، واسعة وتكفى لبضع مئات من الأكل والدراسة وتنظيف أنفسهم، متصل بجرف حجرى عال شديد الانحدار عن طريق قناة طويلة تستخدم لنقل المياه النقية. التلال الخشبية ذات اللون الأحمر حيث تبدأ القناة مكسرة، ومفتتة لدرجة أن تلك التلال تم حفرها وخلق ندبات غائرة بها بعشرات من الفجوات، والكهوف.

فى ربيع عام ١٩٤٧ فقد فتى بدوى يدعى محمد الدهيب خروفا عبر تلك التبة، وبينما كان يبحث عنه، تعثر عند فوهة الكهف. رمى الولد بحجر فى داخل الكهف المظلم وبدلا من سماع الصوت المرجو وهو ثغاء الخروف، سمع صوت تكسر أوان فخارية، كان خائفا جدا لدرجة منعته من دخول الكهف لكنه عاد فى اليوم التالى بصحبة واحد من أصدقائه. دخل الولدان من فوهة الكهف واكتشفا حوالى اثنتى عشرة قدرا من الصلصال، على ارتفاع عدة أقدام، وبقايا العديد منها.

قاما برفع الأغطية عن تلك القدور فوجدا، بداخلها كومة مغطاة بالقار الأسود. كانت الرائحة رائحة العفن. أخرجا الكومة للخارج. أزالا القار ولفافة من الكتان وكشفا النقاب عن مخطوطات من الجلد، مكتوبة بأعمدة متوازية وكانت مجعدة. لم تكن الأحرف عربية، لذا تصورا أن الجزء المهم فيما وجداه هو الجلد: صنادل (أحذية، جديدة!) بعد عودتهما للبيت قاما بقطع شرائح عشوائية لصنادلهم. ثم حملا الجزء الأعظم من الجلد المكتوب عليه إلى صانع أحذية فى بيت لحم، الذى أيقن بدوره أنه أمام شىء أثمن بكثير من مجرد رقع أحذية للقدم.

ما كان بين يديه لم يكن سوى سفر إشعياء، أقدم من أى نسخة أو مخطوطة تم العثور عليها بألف عام. انتشر الخبر بسرعة: هناك ذهب بداخلهم أى تلك التلال! والله، أيضا.

أحدثت مخطوطات البحر الميت، التى وصل فى النهاية مجملها إلى حوالى ثمانمائة بعد أن تم تفتيش وبحث كل الكهوف، ثورة فى فهم الكتاب المقدس العبرى والمناخ الدينى والسياسى المتقلب التى وهبت النص ميلادا. كتبت بواسطة طائفة يهودية متطرفة تسمى الإسينيين the essenes الذين فروا إلى التلال فى أواخر القرون التى للألفية الأولى لكى يعيشوا ويمارسوا طقوسًا متطرفة للتطهر. تظهر المخطوطات مجتمعا معزولا مكرسا بعمق لدراسة النص الكتابى - ولفهم كيف يؤثر الكتاب فى حياتهم اليومية. إن ذلك لهو جوهر الديانة الإبراهيمية - آخذين النصوص القديمة وجعلهم متناسيين مع الوقت وكل وقت، عملية أكثر وضوحا وحيوية منها فى أى مكان آخر.

قال حنان إسيشل، وهو من علماء الآثار البارزين فى تلك المنطقة:" ما أرانا قمران هو أنه حتى القرن الثالث قبل الميلاد كان يتم تداول نصوص مختلفة من الكتاب المقدس العبرى كان الناسخون ما زالوا يأخذون القليل من الأساطير الشفاهية، ويقومون بجمعها معا وتوليفها فى رواية واحدة" . إسيشل رجل لطيف المعشر، مستقيم وشريف وهو أيضا متدين جدا وبعمق - وهو يرتدى الكيبة - مع ذلك متعهد بشدة للدليل. شعر أسود ومغتر ومتبختر قليلا، بيدين تشيران وتقومان بحركات توضيحية دائما، هذا جعلنى أتذكر مدرس العلوم الذى درسنى العلوم فى المرحلة الإبتدائية فى قدرته على جعل وصنع وقول وتبسيط العلوم، تهم بعمق الآن.

"لذا ما الذى حدث فى القرن الثالث ليغير هذا؟" سألته. لقد كنا لم نزل نقف على الآثار التى لمكتبة عمرها ألفا عام. أنهار الطابق الثانى منها، مظهرا مناضد طويلة حيث تم نسخ المخطوطات، لا تزال هناك ثقوب وتجويفات للحبر. لقد أتيت إلى قمران فى محاولة لفهم تلك اللحظة - عندما أصبح النص الكتابى أخيرا مقدسا إلى أبعد حد، وبدأ المؤمنون يعيدون تفسير القصص، لأنها تمثل نقطة اتصال فى تاريخ التوحيد. إنها ما سمح لإبراهيم، على سبيل المثال لا الحصر، أن يتحول من كونه شخصا قديما مبهما إلى شخص حى بصورة أبدية ليصبح سرمدى الحياة، ليتحول من إبراهيم واحد إلى مائتين وأربعين إبراهيم.

قال حنان: "ما حدث هو أن الناس شعروا أخيرا أنهم قد وجدوها وحصلوا عليها بطريقة صحيحة. أصبح الكتاب المقدس العبرى شيئا روحانيا لدرجة تجعل أى شخص غير قادر على تغييره أو تبديله" .

"وعندئذ؟"

"حسنا، لو أراد الناس أن يفهموا النص ويفهموا كيف أنه يرتبط بحياتهم - فعليهم أن يقوموا بتجديده. كان لزاما عليهم إعادة رواية القصص. يعتبر فن التفسير، وإعادته واحدا من أعظم إبداعات هذا العصر، ولكن، كما نعرف، هذا ما خلق لنا الكثير من المشكلات" .

متأملا فى أنى شرعت فى البحث فيما كنت أعتقد أنه إبراهيم واحد فقط لا غير فى قلب الديانات الثلاث جميعها. كنت مندهشا بكل هذا الوقت الذى قضيته محاولا أن أستنتج متى انتهى إبراهيم فى إحدى الديانات وبدأ آخر: هل بدأ إبراهيم الحقيقى مع ميلاد موسى أم موت المسيح؟ هل بدأ إبراهيم الحقيقى مع موت محمد أم بعد سقوط القسطنطينية؟ وماذا عن بروز البرجوازية، التى هى موضع الاهتمام من الكلية؟ كانت محاولة اقتفاء أثر العديد من الشخصيات المختلفة لإبراهيم كمحاولة اقتفاء أثر المصاعد فى ناطحة سحاب. كانت العشرات فى عمل وفعالية فى أى وقت واحد. بينما كان البعض فى صعود نرى الآخرين نازلين، كل واحد وقف فى طابق محدد فقط ولكل واحد هدف: خذنى إلى السماء بأسرع ما تستطيع.

فى النهاية وصلت إلى نتيجة مفادها أنه برغم كل هذا التشوش، يدور التاريخ الذى لإبراهيم كشخصية تاريخية عبر الأربعة آلاف سنة الأخيرة بالفعل حول عدد من اللحظات الحرجة التى ساعدت لضمان أهميته الباقية. الساعة الواضحة والظاهرة فى حياته الحقيقية أو المتخيلة، ستظل دائما عندما يختار الله إبراهيم ، مقتلعا إياه من إبهام مطلق، وسامحا له أن يعيد إظهار العالم.

يبدأ الجانب الثانى من تاريخه فى أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد، عندما يبدأ اليهود فى تشكيل ديانة بعيدا عن ماضيهم الصحراوى. فى لحظة حاسمة وحرجة غالبا ما بدت كذلك، اختار اليهود الأوائل أيضا إبراهيم، مستدعين إياه من السموات التى لماضيهم وقاموا بترقيته والصعود بمكانته لحالة الأب المؤسس. بدا هذا كما يبدو اليوم غريبا، عندما يعرف إبراهيم عند الكثيرين على أنه أبو اليهود، لم تلك المكانة مضمونة ومؤكدة. كانت اختيارا. الشيء نفسه ينسحب على الجوانب اللاحقة. فقد اختار المسيحيون الأوائل أيضا إبراهيم. واختار المسلمون الأوائل إبراهيم، أيضا. لم يكن أى منهما مضطرا لفعل ذلك. فالتاريخ ملئ بالأشخاص كثيرى الرؤى الروحانيين الذين رفضوا بصورة كلية أنظمة الإيمان التى كانت لأجدادهم. كان إبراهيم نفسه واحدا من هؤلاء، فوق كل شيء. أما ورثته، على العكس من ذلك، انتخبوه ليعززوا ويؤكدوا ماضيهم. فى كل

لحظة انتقالية فى تطور الدين، كل تجسد لاحق للتوحيد لتربط نفسها ترجع الرجل نفسه.

السؤال عن السبب الذى جعل الأديان تفعل ذلك ـ بعد ذلك ما الذى فعلته كل ديانة مع إبراهيم فى اللحظة التى طالبت به ـ ستحكم قصة إبراهيم للألفى سنة التالية. كنتيجة لذلك، لو كانت الخطوة الأولى التى كنت فى حاجة لاتخاذها لأفهم إبراهيم كانت قراءة متأنية وقريبة لتاريخه، فإن الخطوة الثانية هى قراءة متأنية وقريبة كيف أن كل ديانة أعادت تفسير تلك القصة.

بدأت، بصورة طبيعية، مع اليهودية. فقد بدأ اليهود فى إعادة التفسير والتأمل فى إبراهيم قبل المسيحيين والمسلمين بفترة طويلة، فقد كان اليهود هم أول من أجروا عملية إعادة بناء لأبيهم إبراهيم.

السبب الرئيسى لليهود فى أماكن مثل قمران كانوا قادرين على أن يختاروا إبراهيم كمؤسس لهم هو أنه لفترة طويلة فى التاريخ الإسرائيلى يتم فقدان وضياع الأب المؤسس من أحفاده، كانت القصص التى لإبراهيم فى حالة اعتقال كإسماعيل وإسحاق اليوم، فقد كانت تلك القصص غير معروفة للإسرئيليين الذين تاهوا فى الصحراء لأربعين عاما، بعدها قاموا بغزو أرض الميعاد ودخولها حوالى ١٢٠٠ قبل الميلاد. بحلول الوقت الذى سيطر داود فية على أورشليم فى سنة ألف قبل الميلاد وأصبح ملكا لإسرائيل الموحدة [٢٧]. كان إبراهيم معروفا للقليل من القادة وذلك عبر الحكايات والقصص الشفاهية التى تسلم من جيل إلى جيل.

(٢٧) لم يعرف الإسرائيليون أى نوع من الوحدة السياسية أو الدينية وذلك منذ تغيير تسمية يعقوب إلى إسرائيل. وهناك خطأ فى الحديث عن المملكة الموحدة زمن داوود وسليمان، وهذا الأمر غير صحيح فلم يستطع داوود أو سليمان ضم جميع القبائل الإسرائيلية تحت قيادته، فداوود لم يستطع أن يقيم الوحدة خلال السنوات السبع الأولى من حكمه، كما أنه بعد هذه السنوات السبع كانت هناك تمردات وثورات ضد حكمه حتى من بين أبنائه، والشىء نفسه مع بداية حكم سليمان وكذلك فى نهاية حكمه (المراجع).

سأل جون ليفن سون، وهو أستاذ مقارنة أديان فى جامعة هارفارد وخبير رائد فى تاريخ اليهودية "هل أعتقد أن داود التاريخى كان يعرف عن إبراهيم؟" ويرد مجيبا: "لست أعرف ولكن لن أكون مندهشا لو علمت أن داود لم يعرف شيئا عن إبراهيم".

مع ذلك لم يكن داود فى حاجة لإبراهيم، لأن الله يصنع معه عهدا وميثاقا جديدا. "أعطيك الأمم ميراثا" يعلم الله ملك إسرائيل "وأقاصى الأرض ملكا لك" كل ما كان على الإسرائيليين فعله هو بناء بيت للرب على الأرض، وأداء شعائر وطقوس تقديم الذبائح هناك، والله من جانبه يضمن أن يكونوا مختارين ويضمن لهم الغلبة. لم يكن هناك حاجة لقراءات توراتية أسبوعية، ولم يلاحظ أنه كانت هناك شرائع للمباح للأكل وغير المباح. فلم تكن اليهودية، كما نعرف، قد ولدت بعد.

ونجحت! وبنى سليمان بن داود هيكلا للرب فى أورشليم واستعرض الإسرائيليين ووصل بهم إلى ذروة قوتهم بل، وأقوى نقطة لهم فى التاريخ. وبسرعة أصبحت مملكة إسرائيل إمبراطورية تنافس تلك التى كانت فى مصر والمسبوتاميا (بلاد النهرين)(٢٨). ولكن بسرعة حارب المسبوتاميا، وبحلول القرن السادس قبل الميلاد كانت مملكة إسرائيل قد تم محوها وإزالتها تماما وتم استئصال الجسم الإسرائيلى من وطنه الأم وسبيهم كلاجئين فى معسكرات فى بابل وبدا أن الأمم لم تعط ميراثا لإسرائيل ولم تصبح أقاصى الأرض ملكا لهم؛ وبدت فى الأفق أن هناك معضلة: وظهر أن الله قد نقض عهده وميثاقه(*).

---

(٢٨) هذا الكلام لا أساس له فى الواقع التاريخى، فلم ينعم داوود وسليمان وكذلك ملوك إسرائيل أو يهوذا بأى نوع من الاستقرار، أو حتى التوسع خارج فلسطين، بل كانت هناك حروب دائمة مع سكان فلسطين الأصليين (الفلسطينيين، الكنعانيين...) ومع جيرانهم من آراميين وبابليين وآشوريين ومصريين، بل إن الأمر تعدى ذلك وتدخلت مصر وبابل فى بعض الأحيان فى تعيين ملوك على مملكة يهوذا (المراجع).

(*) لا يجوز أن ننسب إلى الله عز وجل نقض العهد والميثاق!

دخل الكتاب المقدس. فى أثناء السبى (المنفى)، بدأ القادة الروحيون الإسرائيليون فى إعادة التعرف على هويتهم. وألقى اليهود بعيدا ميثاق داود المكسور، وبدؤوا البحث عن تأسيس جديد لميثاق جديد. ولتحقيق هذا، أداروا وجههم لماضيهم الشفاهى . كان موسى أحد الشخصيات المحورية التى تركزوا حولها. فقد سبق ووعده الله بأرض الميعاد، وساعده فى تخليص شعبه من العبودية، وأعطاه لوحى الشريعة . فقد تسلم موسى، فى سيناء، ستمائة وثلاثة عشر قانونا تلك التى تحكم كل شىء بدءا من تقديس السبت وحتى الاحتفال بعيد الفصح. أصبحت تلك الشرائع حيوية وهامة لشعب فرض عليه الاضطراب.

ولكن موسى لم يكن كافيا. فقد احتاج قادة الإيمان الصغير الوليد ليس فقط لدستور، ولكن أيضا لأسطورة قومية عميقة الجذور. احتاجوا إلى شخص قريب جدا من الله، ومع ذلك لم يكن مشدودا للأرض، لشخص جسد التاريخ النبيل للإسرائيليين، ولكن أيضا صور محنهم، جسد تجاربهم القاسية.

كان إبراهيم شخصا محوريا ومركزيا للرابطة الوليدة مع الماضى؛ لأنه كان يقف عند البداية التى لشعب إسرائيل. أيضا، قطع الله مع إبراهيم عهدا سابقا على الأرض. علم إبراهيم الشعب وساعده على أن يساير مشكلات وأزمات السبى (المنفى) لأنه كان شخصيا قد نفى.

ولكن من كان يعرف عن إبراهيم؟ من المؤكد أنه ليس معظم الإسرائيليين، الذين كان لهم القليل من الفرص لكى يسمعوا تاريخهم الشفاهى. لذا بدأ الناسخون الثقاة المختارون فى كتابة تلك العملية وتسجيلها بطريقة شاملة ومفهومة التى أنتجت فى النهاية التوراة، التى تمثل الكتب الخمس الأولى من الكتاب المقدس. ففى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عاد عزرا، وهو كاهن إسرائيلى[٢٩] إلى أورشليم من المنفى حاملا معه تاريخه المكتوب، كان العائدون الإسرائيليون قد عاشوا لما يقرب من القرن فى العاصمة، حيث أعادوا بناء الهيكل

---

(٢٩) يخلط المؤلف فى استخدام المصطلحين إسرائيل ويهودى، فالمصطلح إسرائيلى بالمدلول الدينى والسياسى أنهى من الوجود بحادثة الغزو الأشورى لمملكة إسرائيل الشمالية عام ٧٢٢ ق. م، وحل محله المصطلح يهودى بالمعنى السياسى والدينى، وانتهى المصطلح، المدلول سياسى مع حادثة الغزو البابلى لمملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق. م. ورغم انتهاء الوجود السياسى استمر استخدام المصطلح يهودى للدلالة مع الدين والقومية لذا الباحثون منذ ذلك التاريخ يتحدثون عن تاريخ اليهود، والديانة اليهودية، حتى تم إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ لمصطلح سياسى من جديد (المراجع).

وحاولوا استعادة مجدهم ولكن جهودهم لم تأت بالثمار المرجوة. وقد جاء الهيكل الثانى صورة شاحبة بالمقارنة بالهيكل الأول وتضائل عدد السكان إلى عشرين ألفا، بعد أن كان ربع مليون، صدم عزرا لاكتشافه أن المجتمع الوليد حديثا لم يكن ليمارس التقوى والورع الذى تتم ملاحظته الآن فى بابل. وفى احتفال رأس السنة (عيد الفصح)، قرأ علنا وبصوت عال من التوراة. وكان أول رد من المستمعين هو الحزن- كيف حدث هذا ولم يخبرنا أحد عن هذا من قبل؟ ـ متبوعا بجمع والتعهد بدراسة النص الكتابى. حينها ولد رجال الكتاب المقدس.

عبر السنوات القليلة التالية، عكف الإسرائيليون على جمع وتصنيف كتابهم، وجمع وتسجيل القصص الشفاهية، وجعلها متاحة لعامة الناس. ساعد على ذلك اختراع رقع الكتابة فى القرن الثالث قبل الميلاد ـ والرقع هى جلد الحيوان المدبوغ يستخدم كبديل للبردى وهو رخيص ـ يقول حنان إيسشيل:" كان الاختلاف والفرق أنها مادة بسيطة كان يمكن أن توجد فى أى مكان وليس هذا النبات النادر الذى يوجد فى مصر فقط "الأثر الذى أحدثه اختراع الرقع على الكتاب المقدس ـ بالإضافة لتأثيره على التاريخ الفكرى بصفة عامة ـ يشبه أثر الصحافة المطبوعة فيما بعد بألف وثمانمائة سنة تقريبا.

ولكن فى اللحظة التى وصل فيها النص الكتابى للشكل النهائى ـ ما يطلق عليه العلماء الدارسون تثبيت النص ـ بدأ العمل الحقيقى. فقد أصبح الإسرائيليون فجأة يمتلكون نصا كتابيا؛ وصف حياة أجدادهم قبل آلاف السنين، ولكن ما الفرق الذى أحدثه ذلك؟ فقد كانوا فى حاجة لجعل الكتاب وثيق الصلة بحياتهم، احتاجوا إلى بناء طريق معبد وممر سالك للماضى. ولكى يفعلوا هذا فقد كانوا فى حاجة إلى المدراش (التفسير اليهودى التقليدى للتوراة).

المدراش، من الأصل العبرى الذى يعنى ـ "أن تبحث وتتقصى وتستفسر أو تفسر"، تم اختراعه عن طريق اليهود فى أماكن مثل قمران، ثم تم التقاطه والعمل به من قبل المسيحين والمسلمين. كما قال إيسشيل:" قمران هى النافذة حيث يمكننا أن ننظر إلى العملية، فالناس الذين عاشوا هاهنا بدؤوا فى قراءة سفر التكوين، على سبيل المثال، وشعروا، حسنا، أنه من الصعب أن تقبل أن إبراهيم

يخبر سارة أن تقول إنها أخته. فهم ليسوا مرتاحين للدرس الذى أرسله هذا؛ لذا يغيرونها. ويعيدون كتابة القصة من جديد.

فى اليهودية، يتخذ المدراش شكلين، الشكل الأول هو، هالاخاه، وهى تتضمن تفسير النص الكتابى للتشريع وسن القوانين وضبط السلوك، مثل متى يجب أن نشعل شموع يوم السبت أو كيف نصنع فطير الفصح. قال جون ليفنسون، وهو متحدث راق وهادئ من وسط فيرجينيا والذى أعتبر كتاباته عن إبراهيم من بين أفضل ما قرأت حنكة وذكاء "بدون شريعة أو قانون شفاهى، يعتبر النص الكتابى هو الهيكل العظمى" ثم يكمل قائلا "لم تكن لدينا فكرة عن كيفية إقامة عرس أو كيفية إقامة مراسم جنازة" يعتبر القانون الشفاهى أو الشريعة الشفاهية ملزمة كالشريعة المكتوبة، وتمسك الحاخامات بأنها قد أمليت من الله لموسى على جبل سيناء مع التوراة. ففى قمران، قضى أعضاء الطائفة ثلثى كل ليلة فى دراسة الشريعة.

أما الشكل الثانى من أشكال المدارش وهو، الهجاده، أو الجزء الأسطورى من التلمود، ويتضمن إعادة تفسير الأجزاء القصصية فى الكتاب المقدس العبرى لاستخلاص دروس فى الحياة. فكما رحب إبراهيم برسل الله وهم فى طريقهم إلى سدوم وعمورة، على سبيل المثال، لذا يجب على اليهود أن يرحبوا بزائرى بيوتهم. على حد قول ليفنسون" من الصعب جدا أن تعرف كيف تعيش الحياة الربراهيمية. ماذا ستفعل؟ تستيقظ وتتوجه إلى كنعان؟ تربط ابنك على المذبح؟ لذ يبدؤون فى أخذ الشخص الذى يوظف على مستوى من الأسطورة ويحولونه إلى نموذج لكيفية أن يعيش أى يهودى عادى حياته ويتمثل به.

باختصار بدأ المفسرون اليهود الأوائل فى خلق سلسلة إبراهيمية جديدة ومبتكرة. الأشكال المتعددة والمختلفة التى تم إيجادها لإبراهيم مؤخرا، تمت مراجعتها وتحديثها، بطبقة جديدة وطلاء جديد ومجموعة جديدة من الحليات المزينة، كان لديها فضيلة كونها حالية عصرية. كانوا مرتبطين ومتصلين بالحياة والواقع.. ولكنهم أيضا كانوا مختلفين بطرق واضحة ومهمة عن إبراهيم السابق،

الــذى ذكــر فى سـفـر الـتـكـوين. شـكـلت تـلك الـتـبـايـنـات والـتـفـاوتـات تحـديـا للحاخامات.

بالـكاد يمكن الـقـول إن الجـروف الصـخـرية الـتى لقمـران مؤثـرة.. فالحـجـر الجيرى لين وناعم وسـهل الـتـآكل. الوجه معقول شديد الـتحـدر، ولـكونـهـا تـصدعت بـصورة فجـائـية عـنـدمـا تـشـكل الـتـصدع الـسـورى الإفـريـقى عن طـريق زلـزال قبل مليونى عام. الخضـرة الوحيدة الموجودة عـبـارة عن شـذرات من نبـات القـصـعين. معدل سقوط المطر السـنـوى الـذى للبـحـر الميت لـيس سـوى سـنـتـيـمـترين سـنـويـا. مقارنـة باثنين وعشـرين فى أورشليم التى لا تـبعد عنه سوى ثلاثة عشـر ميلا إلى الغرب.

بعد تـمـشـيـة قـصـيـرة، قـادنى إيسشل إلى داخل الـكـهف الـرابع، حيث تم العـثـور على ألـف وخمسـمـائـة شذرة، جـزء، من أكـثـر من خـمـسـمـائـة مـخـطـوطـة، ألـقيت بحجر عبر الـفـتحة الـصغـيرة وبدلا من أن أسـمع صـوتـا لـصلـصلـة أو خـشـخـشـة، رفرف سرب من الحمام وطيور سوداء بريش لامع فى الهواء. كان الكهف مظلما، وضـيـقـا، عـلى عـمق عـشـرة أقدام كـان أضيق ممـا كـنت أتـوقـع، وقـادرا فـقط عـلى استيعاب قلة من الأطـفـال فى الثامنـة من العمـر لاحتلاله لمدة تزيد على سـاعات قليلة هذا ما خطر ببالى.

سألت: "لذا لماذا جلبوا المخطوطات إلى هنا؟

"كانوا يعرفون أن الرومان سيدمرون كل شىء، وكانوا يبغون الحفاظ عليها".

"ونجحوا فى خطتهم. على ما أظن".

"نجحت!"

التوتر هو الذى دفع بالإسينيين، أن يذهبوا إلى الصحـراء فى المقام الأول - ومن ثم ليخفوا مخطوطاتهم فى كهوف - هو نفس الضغط والتوتر الذى ما زال يلاحق الـكثـيـر من الـيـهـود الـيـوم : كيف يجب عـلى أن ألـتـصق وأرتـبـط بـالـعـالم الواسع، خاصة عندما يكون معاد لديانتى؟ كمراهق متحمس، قبل سن التكليف، ونشأ وتـرعـرع فى الجنوب الأمريكى، شـاركت فى مناقشات لا حصـر لها عما إذا

كنت يهوديًا أمريكيًا أم أمريكيًا يهوديًا. وكالكثيرين، كنت أتأمل باستمرار فى السؤال، أى هوية يجب أن أضعها أولا؟ هل أنضم إلى الثقافة السائدة وأؤكد تشابهاتى؟ هل على أن أقف بعيدا ومنفصلا عن الثقافة السائدة وأؤكد على خصوصيتى؟

لقد برز هذا التوتر غير المبرر للوجود منذ مولد اليهودية. ولد فى المنفى (السبى) محاطا بالشعوب المعادية، لقد كان لليهود علاقات متوترة دائما مع الآخرين. قد حددت كيفية تجاوب اليهود مع هذا الصراع وتعاملهم معه هويتهم عبر التاريخ كما حددت أيضا كيف رأوا أباهم المؤسس.

غزا الإسكندر الأكبر أورشليم عام ٣٣٢ قبل الميلاد، وقدم حقبة استعمارية تلك التى ستدمر اليهود لبقية العصور القديمة ـ اليونانيون أولاً والرومان وآخرون. كما هو الحال لقرون طويلة، فقد أراد بعض اليهود التمثل بالمحتلين؛ بينما أراد آخرون أن يظلوا فى عزلة . لكن كلا المعسكرين ولوا وجوههم نحو إبراهيم ناظرين إليه على أنه أبوهم الأول.

بالنسبة للنخبة اليهودية، الذين رغبوا فى التوافق والانسجام مع الحياة الإغريقية أو الرومانية، أصبح إبراهيم رمزا كان اليهود بعمق يرضخون كأى شخص آخر فهاهو فيوسيفوس، على سبيل المثال، تجاهل الختان (واليهودية أيضا!) وأكد أن شخصا غير يهودى كإبراهيم كان فى قلب التاريخ، لقد أكد فيلو على دور إبراهيم كمتعهد للعلوم وممون لها لمنطقة البحر المتوسط كلها. كان هذا هو إبراهيم كأب لكل أحد .

أما الاتجاه الأكثر مأساة فى ذلك العصر، فقد أخذ إبراهيم فى عكس الاتجاه. فقد أصبح إبراهيم بالنسبة لليهود المحاصرين المعزولين أباهم الحصرى المقصور عليهم الذى تم اختياره من قبل الله لينقل بركته لهم وحدهم. فقد نظروا لإبراهيم ليشرحوا ورطتهم . مثلما يقول إبراهيم فى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين" أنا غريب ونزيل عندكم". لذا كان أحفاده أيضا غرباء ونزلاء تحت الحكم الاستعمارى. فلو تم إجبارهم على أن يعيشوا مع مشكلة ذهنية، أراد

اليهود أن يكون إبراهيم مستودعهم. لننسى دوره فى مباركة كل الأمم؛ إننا نحتاج أن يباركنا نحن.

أدى ظهور المسيحية، واستيلاء الرومان على الهيكل الثانى وسلبه ونهبه فى عام سبعين للميلاد إلى مجرد تسريع للعملية التى عن طريقها أصبح اليهود أكثر عظمة - وأكثر امتلاكا لجدهم الكتابى. فى غياب الأرض أو الهيكل المركزى، إذ كونك يهوديا تعنى زيارة معبد للصلاة، وملاحظة الشريعة، وقراءة التوراة وتدرس المدراش. فى هذه البيئة، التى تبدأ فى القرون التى يعقبها مجئ المسيح وتستمر للألفية الثانية، أصبح إبراهيم وسيلة مهمة لترقية ورفع معنويات اليهود المحاصرين ومساعدتهم أن يتحملوا الضغط عليهم من أجل التحول والتغير. أصبح إبراهيم شخصية سياسية مناضلا من أجل الحفاظ على إسرائيل. ولكن لأن إسرائيل لم تكن موجودة أثناء حياة إبراهيم لذا فقد لزم على الحاخامات أن يقوموا ببعض الترتيبات. أول خطة بارعة قاموا بها كانت إزالته من التقيد الزمنى والحجز الذى للتاريخ وجعله شخصية سرمدية، نوع من الملاك الحارس.

فجأة، يكتب الحاخامات فى تعليقاتهم وتفسيراتهم أن إبراهيم كان السبب وراء خلق الله للعالم ."لولاك ما كنت قد خلقت الشمس ومدارها"، يقول الرب فى واحد من المدراش (التفسير اليهودى التقليدى للتوراة). "لولاك ما كنت قد خلقت القمر". لقد كان الحامى للحياة بعد الموت والضامن للآخرة. "ففى الآخرة سيجلس إبراهيم فى المدخل المؤدى إلى الجحيم ويسمح لكل إسرائيلى غير مختتن بالنزول إلى هناك، "إنه حتى يجلس بجوار الله فى الخلود يخبر الربى يودان فى واحد من المدراش إنه فى الحياة الآخرة سوف يُجلس الله المسيح عن يمينه وإبراهيم عن يساره." يسأل إبراهيم، لماذا أنا على اليسار؟" يرد الله قائلا "إنى أنا عن يمينك". يقول بنيامين كوهين معلقا بالكلام: لقد أصبح إبراهيم ممجدا جدا لدرجة أن الله يجلس عن يمينه الآن!

ولكن الربانيون لم يتوقفوا عند جعل إبراهيم مقدسا بصورة جزئية فقد جعلوا منه أيضا شخصا مثاليا: فقد جعلوا منه أول يهودى. هذا بالفعل يعتبر

أكثر مخادعة من جعل إبراهيم يجلس عن يسار الله حيث إن النموذج والمثال اليهودى كان واحدا ممن لاحظوا الشريعة الموسوية. وبعملهم هذا ظهرت على السطح بعض المشكلات لأن موسى يصل بعد حوالى سبعمائة سنة بعد إبراهيم. ولكن وجد الربانيون لهم خطاف مخادع. ففى الإصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يقول الله: "من أجل أن إبراهيم سمع لقولى وحفظ أوامرى وفرائضى وشرائعى".

فسر الربانيون هذا السطر ليعنى أن إبراهيم عرف وأطاع الشرائع السماوية قبل أى شخص آخر. فى الحقيقه أنه ابتكر الشرائع فى التصوير الربى الذى ظهر فى تلك الفترة، يتكلم إبراهيم العبرية. فهو يجلس فى أكاديمية تعليمية دارسا المدراش. فهو يصلى ويدفع العشور ويراقب الشرائع من أجل النقاء والتقوى، ويسافر إلى موقع الهيكل ، ويعلم النعمة وصلاة الشكر بعد الوجبات. إنه أول مَن يعين ويحدد صلاة باكر (صلاة الصباح) وأول مَن يقضى باستخدام الشال أو غطاء الرأس.

فإبراهيم هذا المتجول الطاعن فى السن المهاجر من آشور والمحارب النبيل الذى يتصارع مع سارة وهاجر على وريث له، الذى يعبر عن تدينه ببنائه المذابح ويكاد أن يضحى بابنه، يصبح الآن ربى المعبد، ومحافظا عن المباح وغير المباح من الأكل، ومرتديا (الكيبا)، وقارئا فى التوراة ومما لا شك فيه أيضا أنه كان يقيم الشعائر والصلوات التى تضع المصلين خلفه ويجعلهم ينامون.

أصبح كل مظهر تقريبا من مظاهر الحياة اليهودية الآن له أصله فى حياة إبراهيم. لقد وصل الأمر إلى اكتشاف الربانيين لطريق لنسبة اكتشاف الفصح إليه. وهو ذلك اليوم الإجازة الذى يبدو من على السطح أنه يحتفل بتحرر أحفاد إبراهيم من العبودية.. لا بل أكثر من ذلك. فعندما يأتى رسل الله للزيارة وهم فى طريقهم إلى سدوم وعمورة، ويسرع إبراهيم مندفعا لاستقبالهم، ينزف دما حيث إنه كان قد اختتن قبل ثلاثة أيام فقط لا غير. وكمكافأة على ذلك، سمح الله لأحفاده باستحضار صلاحه واستقامته وذلك بوضعهم دما على قوائم الأبواب أثناء الفصح.

بحلول العصور الوسطى، كان إبراهيم قد وصل لذروة قوته، فقد كان تقريبا قديسا. فهو يضع سعر كل بقرة تباع، ويؤكد أن الخمر الأصلى رخيص، وينقذ السفن فى عرض البحر من العواصف. وحجر كريم نفيس مدلى من رقبته يجلب الشفاء العاجل لأى شخص ينظر إليه. فى الحقيقة، ربما لا يكون إبراهيم قد مات إطلاقا؛ جسده باق ولم يمسسه دود أو سوء فى الوقت الذى تم دفنه.

لو كانت تلك السمات تبدو مألوفة، فهم كذلك. لقد أصبح إبراهيم هو المخلص، الشخص السماوى الذى يجسد القداسة على الأرض، يمثل البشر فى الحياة الأخرى، ويحتوى، فى الأعمال التى فى حياته، الكتاب المقدس الذى لقصد الله. لقد أصبحت فكرة اليهود عن إبراهيم مشابهة بصورة ملحوظة لفكرة المسيحين عن المسيح، حيث المسيح هو اللوغوس (كلمة الله)، الكلمة والشريعة. حقا، إن كلتا... تطورت الفكرتان قد تطورت خلال نفس الفترة وأثرتا فى بعضهما البعض مما لا يدع مجالاً للشك.

بالنسبة لليهود أصبح إبراهيم هو المخلص والفادى عند تعرضهم للهجوم والاعتداء من قبل المسيحيين (من المسلمين الآن). نوع من المسيح الأسطورى قبل أن يصل المسيح الفعلى. ليكن مؤكدا ومعلوما، إنه لا يصر كل الربانيين على أن إبراهيم كان المنقذ والحامى الحصرى لليهود. فالكثير من المفسرين يرون أنه - ولأن إبراهيم تم اختتانه فى عمر التاسعة والتسعين - فمن المؤكد أنه كان متحولا وقد استمر فى الترحيب بغير اليهود إلى مملكة الله.

ولكن الوقفة المسيطرة على اليهودية فى العصور الوسطى تمسكت بأن إبراهيم لم يعد الشخص الذى عبر ونقل بركة الله الكونية للجنس البشرى. والآن فهو شخص كان يرسل بركاته قاصرا إياها على أحفاد إسحاق. كان إبراهيم قد أصبح ملكية وحيدة وخاصة لليهود. فى غضون ذلك، تمت تنحية أحفاد إسماعيل جانبا. لقد تم إبراز النص؛ الآن تلك التعليقات سائدة.

كقارئ، وكمواطن - وبصورة خاصة كيهودى - صدمت أن أقرأ عن كل هذا التراكم، والاستيلاء المتعمد على إبراهيم، ما الذى حدث للنوع، للعم إبراهيم تعلمت عنه فى دروس سن الالتزام بالشريعة؟ ما الذى حدث للحكيم العالمى

إبراهيم الذى يهب بركته لإسماعيل وإسحاق، والذى دعى من قبل الله ليكون بركة "جميع قبائل الأرض"؟ بل الأكثر أهمية، ما الذى ينبغى على فعله مع هذا الإبراهيم السوبر الجديد وقد تعلمت عنه الآن؟

للإجابة على هذا السؤال ذهبت لأرى الحاخام دافيد روزن، الرئيس السابق للحاخامات فى أيرلندا، وأحد مواطنى أورشليم البارزين، ومدير العلاقات البيدينية للجنة اليهودية الأمريكية. وهو رجل مهذب ولطيف بلحية سوداء مشذبة ومرتبة وله أسلوب معسول فى الكلام ينساب برقة وهذا يدل من ناحية على نسبته لجامعة كامبريدج، ومن ناحية أخرى كمفاوض للأمم المتحدة، وجزئيا تسمعه كناطق بصوت الله. لو كان حيا أيام أن كان إبراهيم، لتم إرساله كوسيط بين سارة وهاجر.

كديانة، تعتبر اليهودية تلك العملية لإعادة تشكيل وتصوير الكتاب ظاهرة صحية، ألمح قائلا: "ما يحاول الحاخامات فعله هو تقوية التراث القديم الذى للشفرة الأخلاقية التى ورثوها.فهم يرون الخطر أنه ربما يحدث ويأتى شخص ما فى المجتمع اليهودى ويقول، انظر لم يحافظ إبراهيم على الشريعة والرب ينظر إليه على أنه رجل صالح، ربما لست شيئا بهذا السوء لو لم أفعل تلك الأشياء.

فهم يستخدمون النص الكتابى كأداة تعليمية، أضاف الحاخام روزن، فى جهد، لتقول إن إبراهيم كان يملك وحيا مقدسا وفعل تلك الأشياء حتى ولو قبل أن يقولها الله لموسى". بالطبع من وجهة نظر تاريخية هى شىء سخيف تماما. ولكنى لا أنظر للأمر بطريقة علمية. أنا أنظر إلى ما فعلوه وأرى أنه كانت لديهم رسالة أخلاقية مهمة يريدون توصيلها.

ولكن كما أن تلك الطريقة صحية أو ربما تكون، فإنها تؤسس للكثير من المشاكل التى تواجهها الأديان فى المستقبل. "هناك الكثير من الأخطار فى هذه العملية، "وافق الحاخام روزن". يقول الحكماء أنفسهم فى التلمود إن اليوم الذى تم فيه كتابة الشريعة الشفاهية يشبه اليوم الذى تم فيه صناعة العجل الذهبى. رغم أنهم شاركوا فى تلك العملية، ومع ذلك يقولون إنها شىء مخيف ومرعب. لماذا؟ حيث نسمعهم يقولون إنه فى اللحظة التى تكتب فيها الشريعة الشفاهية

فأنت أيضا تفعل شيئا سيئا إلى حد ما. إنك تأخذ شيئا ديناميكيا - التوراة - وتجعله صلبا وملموسا. إنك تأخذ النص الكتابى وتستخدمه كحجة أو كذريعة لأفكارك الخاصة".

وأيضا تبرز مشكلة أعظم وهى أن الحاخامات قد قوضوا بدهاء ومهارة الشرعية التى للنص الكتابى بإعطائهم لتعليقاتهم الخاصة وزنا مماثلا. هذه الحالة وذلك الظرف خلق ما أطلق عليه روزن "فوضى" لأن الحاخامات شرعوا فكرة إعادة التفسير والتأويل. ففى اللحظة التى يفتح فيها المتلقون اليهود الباب بفصل إبراهيم عما حوله وإعادة تشكيله على صورتهم وكما يرونه فى خيالهم، يأتى المفسرون المسيحيون مندفعين كالعاصفة، يتبعهم مباشرة المفسرون المسلمون. لو أمكن لإبراهيم أن يصبح أول يهودى، فببساطة شديدة يمكنه أن يكون أول مسيحى وأول مسلم. وبسرعة ترى الأديان فى حالة صراع وحرب على ما يفترض أنه تراثهم المشترك. وفجأة تلك الرسالة المتزنة التى لقصة إبراهيم - التى تعنى أن الله يعتنى بكل أولاده - التقليد الذى كان موجودا منذ مئات السنين قبل أن توجد الديانات نفسها، وضعت فى خطر بواسطة ورثة هذا التقليد. كان إبراهيم صيدا ثمينا، اضبطه واقبض عليه وتحكم به وستجد مدخلا لله. ونتيجة لذلك، أصبح دعوة لا تقاوم لسرقة الهوية: اسرقنى، أنا ملكك! ليس هناك من يمكن لليهود توجيه اللوم إليه على تلك العملية سوى أنفسهم. لقد بدؤوها، وفى النهاية سيدفعون ثمنا باهظا لها.

قال الحاخام روزن: "إنك تتعامل مع مشكلة إنسانية، كل الأشياء الجميلة الحسنة يمكن أن يتم العبث بها وتشويهها. وتباعًا، فعل المسلمون الشىء نفسه. حتى بعض الحاخامات اليوم يفعلون هذا لترقية الوطنية اليهودية. فكل شخص يريد أن يكون أباه وحده أو أباه الحصرى.

لكن كم يكون عدد المؤمنين اليوم - اليهود، والمسلمون والمسيحيون - الذين يفهمون بالفعل تلك العملية؟ من المؤكد أن الديانات نفسها لا تريد أن تعلن أن رؤيتها ووجهة نظرها لإبراهيم تطورت عبر الزمن، وغالبا كرد فعل لقوى خارجية. بالنسبة لى، مجرد التعلم عن هذا الصراع على هوية إبراهيم - التى

ليست لدى سوى معرفة قليلة بها رغم عدد ساعات الدراسة التى لا حصر لها من التعليم الدينى كطفل، وعقود من ممارسة الصلاة كاتجاه سائد، وسنوات من الدراسة كبالغ راشد ـ كانت مزعجة ومثيرة للاشمئزاز إلى حد ما.

كان رد فعلى السريع لفض التوافق بين كل التعليقات، إن كنت تنوى أن تخبرنى أن إبراهيم هو ملك حصرى لك بينما الكتاب يرسل رسالة مختلفة وبصورة واضحة، عندئذ فأنا لا أود سماعها. سأدوس بقدمى بقوة، وسأضع يدى على أذنى، وسألتصق بالنص الكتابى.

قال الحاخام روزن: "إن ورطتك ورطة ساحرة وفاتنة، كان صوته يظهر خليطا من الفضول والذهول والارتباك. "سيكون شيئا شيقا أن ترى كيف تحل هذا".

لتفعل ذلك، سأسأل سؤالا راشدا: لماذا لا نرفض الحاخامات وكل ألاعيبهم؟ لماذا لا نتنصل مما بدأ فى قمران؟

كانت الشمس قد بدأت تختفى لتوها خلف الجروف الصخرية عندما وصلنا إلى أبعد منطقة عن المستوطنة، بالقرب من الكهف الحادى عشر. اكتست ثلمات الصخور باللون الأحمر والبرتقالى بحكم المغيب. وأصبح المشهد فى المكان موحشا والشعور بالوحدة أكثر حدة.

ذكرنى هذا الحضور الكبير للكثير من الكهوف بالمشهد فى سيناء بترتيبه المتشابه. حيث أتى الرهبان المسيحيون الأوائل ليعيشوا فى البرية بالقرب من المكان الذى تسلم فيه موسى الوصايا العشر. "فى طرق كثيرة تشابه ما حدث هنا لما سيحدث فيما بعد فى المسيحية مع الرهبان الذين ذهبوا إلى الصحراء"، شرح لى حنان إيسشيل. "لقد ترك هؤلاء المؤمنون كل شىء خلف ظهورهم ـ لا أسرة، ولا متعلقات شخصية أو ممتلكات ـ وأتوا إلى هنا ليخدموا الله".

استقر بنا المقام فوق صخرة تطل على البحر الميت. بسبب شىء عظيم جدا وتاريخى، دائما ما يكون البحر الميت هادئا بصورة ملحوظة. ربما يسكن أو يخفت الملح الصوت أو على الأقل يمتصه.

ذكرت آنفا إحباطى المتنامى والمتزايد مع عملية المدراش (التفسير التقليدى اليهودى للتوراة) كلها. فلربما كان ما فعله المفسرون خال من البراعة قلت لاياسشيل، ولكنها أيضا خلقت مشاكل هائلة.

رد قائلا: "لم يفكروا فى ذلك، كانوا متأكدين من أن ما كانوا يفعلونه مهما. كانوا يحاولون التعلم من التاريخ، ولم يقلقوا قط بشأن التضمينات".

قلت له: "ولكنا نعرف التضمينات، والشعور الذى انتابنى ـ ولم أقصد أن أكون طفوليا بشأنها ـ ليس سوى الغضب. فبسرعة دارت عمليتهم البريئة وخرجت عن السيطرة".

لا أعتقد أنك محق فيما تقوله أو تشعر به. أعتقد أن هذا ما يجعل النص الكتابى مشوقا وممتعا. كان سيكون الطريق الوحيد الآخر هو هجر الكتاب المقدس والابتعاد عنه. لقد تغير العالم، ولو أردت أن تبقى على اتصال بالأجيال الأخرى فعليك أن تجد بعض الطرق لتغيير النص الكتابى. فلو لم تستطع كتابة تعليقات وتأويلات؛ لأصبح النص عقيما وجامدا وفقد أهميته.

سألته: "ولكن أين أضع ولائى ولمن أهب إخلاصى؟ لو أن هناك اختلافا بين النص والتفسيرات والتعليقات، ماذا أفعل؟ هل أذهب مع النص أم مع المفسرين؟ أم أقوم فقط بعمل تفسيرات خاصة بى؟"

"أول شىء تفعله هو أن تدرك أن تلك التفسيرات رائعة، فقد سمعوا النص بصورة مبتكرة وخلاقة. وعندما تحاول أن تدخل إلى عقولهم، وتفهم ما الذى ضايقهم وأزعجهم، ستحصل على فهم أفضل للنص. من أكثر الأشياء أهمية والتى دائما ما أخبر طلابى عنها هى ألا يستخفوا بهؤلاء الناس ولا يبخسوهم قدرهم؛ لأنه فى اللحظة التى تفكر، وتقول: حسنا، أنا أكثر فطنة وذكاء، عندئذ لن تفهم ما كانوا يفعلونه. وهم كانوا يعرفون ما كانوا يفعلون".

استمر فى حديثه قائلا: "وما كانوا يفعلونه هو عين ما نفعله نحن اليوم، كانوا يحاولون معرفة ما حدث فى أورشليم، لنقل، أو باريس بالنظر إلى آية فى النص المقدس. إنه تقليد قديم جدا. كان الناس فى قمران أيضا يفعلون الشىء نفسه. كانوا يقرؤون الكتاب المقدس كما طبق فى أيام إبراهيم وفى وقتهم.

ذكرت أن التقليد اليهودى يتمسك بأن (الهالاخاه)، وهى الشريعة الشفاهية، ملزمة، ولكن ال (الهجادا)، وهى تفسيرات الرواة الأولين، وهى ليست كذلك. حتى الحاخامات قالوا إن الهجاده غالبا ما تتناقض مع المنطق وتفتقر للعقلانية". قلت معلقا: "لا يبدو أنك مهدد بتلك التناقضات".

"التفسير الجيد لا يكذب ولا يتناقض إنها عملية صعبة جدا أن تأخذ النص وتجعله يقول عكس ما يقوله بالفعل. لو قلت إن إبراهيم ذهب من شكيم إلى حاران بدلا من العكس، كما جاء فى سفر التكوين، سيكون هذا صعبا جداحدث أحيانا وقاموا ببعض التفسيرات الراديكالية المتطرفة، ولكن الطريق المعتاد كان من أجل إضافة شىء ما".

"على ذلك كشأن عملى، أن ما تقوله هو أنه يمكنك أن تقرأ تلك التفسيرات المختلفة، وتستمتع بها، ولكن فى النهاية عليك أن تجد ما تستخلصه أنت من معان فى القصة".

"حقا. لكن ذلك سيكون عملا انتقائيا. ففى كل مرة فى لحظة ما ستفكر، ياه، لقد كان هذا شيئا رائعا من المؤكد أن هذا ما كان كاتب الكتاب يفكر فيه ويريد قوله. لذلك ستأخذ تلك الفكرة، وتلقى فكرة من فوق من حيث نجلس، وفى النهاية تؤكد على الأشياء التى تهتم بها. ستفعل ما فعلته طائفة كبيرة من الناس من قبلك، ولكنك ستفعله اليوم، فى عالم ما بعد الحادى عشر من سبتمبر، وما حدث حينها سيؤثر على كيفية قراءتك لسفر التكوين".

"لذا ما الرسالة التى لسفر التكوين بعد الحادى عشر من سبتمبر؟"

نظر إلى البحر فى صمت لثانية. كانت السماء قد أصبحت برتقالية اللون كالحجارة. كان رجلا مريحا بصورة ملحوظة. لقد فعل التسلق، والحوار، ووقف حتى القليل ليبدل ثقته الهادئة.

رد قائلا: "لو سألتنى، إنها مسألة تواضع، لماذا يتصرف رجال الدين هكذا ولماذا يفعلون ما يفعلونه؟ إنه بسبب افتقارهم للتواضع والاعتدال. لنه ما حدث فى أورشليم مع الطوائف المسيحية الذين خططوا لنسف جبل المعبد لعمل طريق

للمسيح. إنه نفس ما حدث فى إسرائيل مع مقتل رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين بعد أن صنع سلاما مع الفلسطينيين. يقرأ بعض الناس النص ويعانون من نقص فى التواضع. هم يؤمنون حقا أنهم يمتلكون كل الإجابات. أنا أعرف جيدا أننى لا أملك كل الإجابات. إننى أحاول جاهدا لأفهم النص والتفسيرات، وأعرف أن شخصًا ما آخر ستكون لديه رؤى أفضل مما لدى".

استمر قائلا: "أعتقد أن الشىء نفسه قد حدث للإسلام . فالقرآن يقول: إن هؤلاء الناس الذين يؤمنون بمحمد يجب أن يحكموا العالم، ومع ذلك فقد اكتشفوا أن العالم ليس موظفا بالطريقة التى كتبت فى النص القرآنى. لا يمكن أن يكون هناك خطأ فى اللاهوت، لذا من المؤكد أنه خطأ فى التاريخ - ومن المؤكد أنه خطأ معاصر. فى اللحظة التى تحصل على تلك الفكرة وتترسخ فى عقلك، يسمح لك أن تغيرها. يسمح لك أن تعمل من أجل الله.

إن ما أحاول فعله خاصة فى هذا الجزء من العالم، هو أن أعلم الناس أن يكونوا أكثر تواضعا واعتدالا. أن أشرح لهم أنهم لا يملكون كل الإجابات. أن تكون أكثر تواضعا، فمن المحتمل أن تفهم النص بصورة أفضل، وسيكون هناك فرص أقل بكثير لتفعل أشياء فظيعة باسم الله أو الدين".

"لذا يمكنك أن ترى قاعدة فى قصة إبراهيم للتواضع؟"

ابتسم. "إن قصة إبراهيم كلها عن التواضع. اترك عائلتك، اترك ما تعرف. فكر فى اللحظة التى أخبر الله إبراهيم أن يتبع قول سارة فيما يخص إسماعيل. نعرف أن إبراهيم شعر بسوء فيما يخص ذلك؛ كان عليه أن يرسل إسماعيل بعيدا. لكنه كان يعرف أنه لا يفهم كل شىء".

"يمكنك أن تأخذ قصة إبراهيم وتعلم الناس أنهم لا يملكون كل الإجابات، ولأننا إبراهيم - كما قال كل أولئك المفسرين فنحن أيضا لا نملك كل الإجابات. لا نعرف وجهتنا ولا بغيتنا. وبالتأكيد لا نعرف كل شىء عن الله".

(٦)
المسيحيون

رغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة والنصف صباحا بعد، فقد صب لى مطران أورشليم كأسا من البراندى. بعدها قدم لى كوبا من الشاى. بعدها يعرض على خدعة بخصوص طعامه. فقد كنا نجلس فى مطبخه المزدحم فى المدينة القديمة، على بعد خطوات من القبر المقدس، كان كثير الكلام والإطراء كالعامة كثيرة الكلام. أخذ تينة مجففة من سلطانية، شطرها نصفين، ووضع جوزة فى وسطها ولفهما معًا مثل الشطيرة ووضعها فى فمى، وأردف قائلا: "أليست رائعة ولذيذة، لقد تعلمت ذلك من راهب فى لبنان".

يعتبر المطران ثيوفانز ساحر طاولة المطبخ من النوع الردئ، قصيرا ومفتوح الشهية، بلحية تجعله يبدو كساحر فى الفناء الخلفى فى حفل عيد ميلاد، ولكن تصادف أن يكون رأس الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى أكثر الأماكن المسيحية قداسة. فهو يسيطر على نصف الكنيسة المقامة فى المكان الذى صلب فيه المسيح، وهو أيضا يشرف على الجلجثة نفسها، وينظر إلى نفسه على أنه الوريث الروحى للخط الممتد من آدم إلى اليوم، مع وقفتين محوريتين عبر الطريق - إبراهيم والمسيح. يحتل إبراهيم مكانة خاصة وأهمية كبيرة للكنيسة اليونانية لدرجة أن الكنيسة الصغيرة المقامة فوق الجلجثة تسمى دير إبراهيم.

يقول المطران: "إن عظمة أبينا إبراهيم تكمن فى كونه لديه فكرة واضحة عن الله، أوضح من الأفكار الأخرى".

لقد أتيت لمعرفة كيف رأى المسيحيون إبراهيم عبر القرون. لقد خرج التفسير المسيحى من عباءة التفسير اليهودى وقدم عبر الأجيال رسالة واسعة مشابهة، مفادها أن بركة إبراهيم متاحة ومفتوحة لكل الأمم وكل الشعوب بغض النظر عن نسبهم. لكن بمرور الوقت، كما حاول اليهود ادعاء تفردهم بإبراهيم، كذلك حاول المسيحيون اغتصاب إبراهيم والاستيلاء عليه. يمكن أن يتم رؤية فساد العلاقة بين المسيحيين واليهود بقوة كما فى أى مكان آخر فى تنافسهما على أبيهم المشترك.

استمر المطران ثيوفانز قائلا: "تكلم الله إلى إبراهيم بالطرق التى يتكلم بها مع الناس الآخرين، ولكننا لا نسمعه، فلسنا على نفس المستوى. ولكن إبراهيم، فى تلك اللحظة السعيدة للبشرية، سمع كلمات الله. لقد فهم أنه بالإمكان الحديث إلى الله بصورة متجسدة، إنها خطوة كبيرة ومهمة. إن اللقاء مع الله لشىء غامر وساحق، وإبراهيم أول من فعلها. إنه بداية الوحى. وبعبارة روحية، إنه أول البشرية.

"وهل يعتبر بداية المسيحية؟"

هز رأسه. "سافر الوحى الإلهى من إبراهيم إلى الأنبياء إلى المسيح. يمكنك القول إن هذا الوحى كان معنيا فقط للمسيحيين، ولكنى لا أفكر بتلك الطريقة. فهناك روح مشتركة وشائعة فى العالم مفادها أن البشر يندفعون نحو القداسة ويتوقون لها. تلك هى البصمة الإلهية المتروكة علينا، التى يشعر بها كل رجال الدين. لقد شعر إبراهيم بها بصورة أكثر وضوحا".

ما يمكن أن يخبرك به أى شخص هو أن المسيح ولد فى آخر الألفية الأولى قبل الميلاد فى فلسطين التى كانت تحت الحكم الرومانى.. ولد يسوع (اسمه الفعلى كان يشوع) يهوديا ومات كذلك. فقد مارس وأتباعه الختان، واحتفلوا بالفصح، واتبعوا الشريعة اليهودية. فلم يكونوا بعيدين ليؤسسوا دينا جديدا لكن، مثل قاطنى قمران وأماكن أخرى، كانوا يأملون فى تطوير ديانة موجودة، اليهودية ـ كما ادعوا ـ قد خربت الهيكل وأفسدته، وهجرت الفقراء، وجدّفوا على الشرائع التى للطهارة والنقاوة.

ولكن كان يمكن أن يتم إصلاح تلك المشكلات بقائد جديد. فى المستقبل، يقول المسيح فى إنجيل متى: "سيأتى الكثيرون من المشرق ومن المغرب وسيأكلون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب فى ملكوت السموات".

تجمع الكثيرون ليسمعوا لهذا المبشر الجديد، وهو تطور أثار الشكوك حول رؤساء الكهنة اليهود والسلطات الرومانية. تم صلب المسيح فى النهاية عقابا على جرائمه ضد الدولة، وقد كان الصلب هو وسيلة الإعدام الرومانية الطبيعية. ولكن لم تنته قصة المسيح عند هذا الحد. فقد زادت شعبيته بصورة كبيرة لأن أتباعه نشروا خبرا أن المسيح لم يمت بالفعل بصورة لا تعوض على الصليب. لقد أعيد للحياة. بدأ الكثيرون فى القول إن المسيح نفسه لم يكن قد ادعى أنه كان المسيا الذى كان اليهود ينتظرونه لقرون. لقد كان، كما أسماه بولس، "ابن الله".

كان أتباع المسيح، الذين كانوا يهودا حتى ذلك الوقت، قد استحوذت عليهم وتملكتهم فكرة أن المسيح هو المخلص لدرجة جعلتهم يندفعون بهمة وحماس للمشاركة فى الإنجيل ونشره. "انضموا إلينا" صرخوا فى أتباعهم المؤمنين."ليتم الإعلان عن الأخبار المفرحة التى للملكوت". أتى القليل من اليهود. ربما تسبب تدمير الهيكل فى جعلهم منزعجين ومتقلبين. ربما كانوا عميان بالطبيعة. ربما لم يكونوا مقتنعين. أيما كان السبب، قرر تلاميذ المسيح توسيع قاعدة رسالتهم لتشمل غير اليهود. ولكى يفعلوا هذا، أرادوا ربط اسم المسيح بشخصية لم تكن يهودية. احتاجوا لأب مؤسس مبارك من قبل الله، وذى أصل ونسب روحى عميق الجذور، وكان مثلا للإيمان الذى جسده المسيح نفسه.

لقد احتاجوا لإبراهيم.

كان أول من أدرك هذا هو بولس، وهو أول الرسل الذين كتبوا مطولا عن المسيح. كان بولس مؤمنا يهوديا راسخ الإيمان وقد حدث وآمن بالمسيح. كان علامة ولامعا، ومنطقى الفكر، لكنه لم يكن متعلما بصورة رسمية. كان رجل أفعال وكان عدوانيا، ومولعا بالقتال مع محاوريه. وقد كتب (أملى) بولس عدة رسائل تلك التى تمت تسميتها على أسماء مستقبليها ـ أهل رومية، غلاطية،

كورنثوس ـ التى يخاطب فيها مشكلات معينة فى كل مجتمع، ويحاول أن يغرى ويقنع المؤمنين بقضيته وفكرته التى آمن بها. للمساعدة فى جعل رسالته رنانة ولها صدى فى نفوس اليهود بصورة خاصة، نراه يستخدم الأساليب التى كانت شائعة جدا ومألوفة لمستمعيه: المدراش الحاخامى. إذ يعيد رواية قصة إبراهيم ليركز على ما يعتقد أنه مهم جدا من وجهة نظره.

فى رسائل بولس الأربعة عشر المتضمنة فى العهد الجديد، يشير بولس إلى إبراهيم فى تسعة عشر موضعا، أكثر من أى شخص آخر عدا المسيح. يشير بولس إلى إبراهيم أكثر من مرتين كما اعتاد أن يشير إليه كل أنبياء العهد القديم فى النصف الأخير من كتاب اليهود المقدس. لكنا نلاحظ بوضوح تعاظما كبيرا فى أهمية إبراهيم. يختار بولس بالضرورة إبراهيم بالطريقة نفسها التى اختاره بها الحاخامات. لماذا؟

أولا: كانت اليهودية هى الديانة المسيطرة والمهيمنة فى ذلك الوقت، وكان بولس يحتاج أن يعرف نفسه ويقدمها بلغة يفهمها اليهود ولكن أيضا بلغة تميزه عن اليهود. الشىء الثانى: هو أن بولس أراد أن يتجنب ما كان من وجهة نظره يمثل الطغيان الذى للشريعة فى الحياة اليهودية. الشىء الأخير هو أنه رغب فى طريقة ليطوق الاصطفائية القبلية التى لليهودية، الميزة المحددة القائلة بأنه يجب على كل الرجال أن يختتنوا، فى رأى بولس، تلك الجدائل تتحد لتحد من اليهودية وتحجمها، فى حين أنه أراد توسيعها بقبوله الأمم وذلك من خلال إنجيل المسيح.

مثل إبراهيم النموذج المثالى والمتكامل لرؤيته الجديدة تلك للمسيح المعزز باليهودية؛ لأن إبراهيم طور علاقة فريدة مع الله قبل أن توجد اليهودية وقبل أن تعطى الشريعة، وقبل حتى أن يأمر الله بالختان. ولكى يثبت وجهة نظره، تحول بولس بوجهه إلى آية فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين، بعد أن يصل إبراهيم لأرض الميعاد ويطلب عهد الله ليعطيه ابنا، يطمئنه الله بأن يريه النجوم فى السماء ويقول له إن نسله سيكون من الكثرة بحيث لا يمكن عده. كما يصف الكتاب تلك اللحظة، بلغة أكثر ألفة للمسيحيين. إبراهيم، "آمن بالله، فحسب له برا".

بالنسبة لبولس، مثلت هذه الآية عصب قصة إبراهيم، بل ربما أهم آية فى أسفار موسى الخمسة كلها. فقد نال إبراهيم الاستحسان فى عين الله لأنه آمن به؛ لأنه كان قد آمن أنه لو ترك بيت أبيه وذهب إلى أرض لا يعرفها كما طلب منه الله سيصبح أمة عظيمة. يسأل بولس فى الرسالة إلى أهل رومية ٤:١٠ "فكيف حسب. أهو فى الختان أم فى الغرلة؟ ليس فى الختان بل فى الغرلة". كان هذا له معنى واحدا؛ ليس الختان بؤرة الإيمان ولا شيئا مركزيا له.

إن ختان إبراهيم، والذى حدث بعد ثلاثة عشر عاما على الأقل، ليس شرطا مسبقا للسلوك والعمل الصالح، قال بولس محاورا، إنه مكافأة لأجله. كان الغرض من الختان فى رأى بولس ثنائيا. أولهما، ليجعل إبراهيم جدا لكل المؤمنين بدون ختان"، والثانى ليجعله "جد المختتنين". وبعبارة أخرى، يعتبر إبراهيم أبا لليهود والأمم (من غير اليهود) على حد سواء. كل شخص يظهر إيمانه هو حفيد لإبراهيم .

يرى بولس الإيمان على أنه الركيزة الأساسية فى علاقة إبراهيم بالله. ولكن الإيمان بالنسبة لبولس ليس طقسا أعمى؛ إنه شىء ديناميكى مملوء حيوية ونشاطا.. كما قال الإكليريكى دكتور ريتشارد وود، العميد السابق لمدرسة اللاهوت فى يال، شارحا لى "إن بولس لم يفارقه قط شعوره بخطيئته بل ظل ملازما له. فى بعض الطرق الشىء الأكثر عمقا الذى أسهم به فى تاريخ الفكر المسيحى كان تحليله لطبيعة الشر الإنسانى. فهو يقول إن المشكلة الأساسية التى نواجهها هى أنه، ونحن فى محاولة لنكون أبرارًا، يبدأ الكبرياء". يقرأ بولس إبراهيم على كونه شخصا تمت مباركته من الله على الرغم من أنه لم يكن بارا. والسبب فى ذلك: أنه كان لديه إيمان. "تلك هى! "يقول بولس. لو عاملنى الله على أننى بار على الرغم من خطيئتى، عندها لن يبد من كبرياء ولا تفاخر. المبادرة من الله دائما".

هذا هو المدراش (التفسير اليهودى التقليدى للتوراة) فى أبهى صوره وأبدعها. كما قال الإكليريكى دكتور وود، وهو اجتماعى غرب أوسطى ورئيس سابق لكلية إيرلهام فى ولاية إنديانا الأمريكية"، إنه يأخذ سفر التكوين ويفعل

شيئا ما جديرا بالتساؤل فيه، وفى ذلك هو يستخدمه؛ ليجيب على تساؤل مختلف عما كان فى عقل كاتب سفر التكوين". ولكن بولس لا يقف عند ذلك. فهو يذهب إلى أبعد من ذلك فى رومية ٤ ليقول: لأن إبراهيم حصل على وعد الله قبل نصف قرن من تسليم الله لشريعته على جبل سيناء؛ لذا فالناموس ليس سببا للحصول على بركة الله. يقول بولس "لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد".

لا يتعارض تقليل بولس من قيمة الناموس مع تاريخ اليهود. فلم تكن الشريعة الموسوية فى بؤرة الأمة ولم تكن شيئا مركزيا لها فى أيام داود أو سليمان. ولكن رؤية بولس كانت تسير فى عكس الرؤية اليهودية فى عصره هو، والتى كانت مبنية على الشريعة والناموس. يدور بولس حول عهد الله المفصل أكثر مع موسى لكى يرجع لعهده الأكثر عمومية مع إبراهيم. إذ يقول فى غلاطية ٣ "لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به."وجهة نظرى هى أن (الناموس)، الشريعة، التى أتت فيما بعد بأربعمائة وثلاثين سنة، لا تبطل عهدا سبق إقراره من قبل الله. لقد ضمن الله إرثا لإبراهيم من خلال الوعد، وليس من خلال الشريعة (الناموس الموسوى).

تقيم تلك النقطة وتؤسس لقمة ازدهار بولس، فى التكوين، وعد الله إبرهيم ونسله ببركته، ينتبه بولس إلى ذلك. كلمة نسل الواردة فى النص مفردة وليست جمعًا. (رغم أن بولس كان يكتب باليونانية، يحتفظ بالتمييز نفسه، (فلم يقل ولكل أنساله) "وينتبه بولس لذلك. هذا يعنى أن وعد إبراهيم كان يقصد توجيهه ليس للكثيرين من الناس كما يدعى اليهود، بل كان مقصود به شخصا واحدا هذا الواحد هو المسيح. "إذا انتميتم للمسيح فأنتم نسل إبراهيم، ورثة طبقا للوعد." يؤكد بولس على أن المسيح من نسل إبراهيم، والناس الذين يقبلونه كمخلص لهم يصبحون أعضاء فى أسرة إبراهيم، بغض النظر عما إذا كانوا مختتنين أم لا.

يعتبر إنجاز بولس هنا إنجازا بارعا: فهو يعيد تفسير النص العبرى بصورة كاملة، ليس بهجر أو الابتعاد عن القصة الكتابية، ولكن باستخدامها لأغراضه

الخاصة. فهو ينبذ الأنساب، التى تبدو وكأنها البؤرة المركزية لسفر التكوين، ويستبدلها بالإيمان. لم يعد علم الأحياء مهما؛ تم إغفال النسب ومحوه بالإيمان، ليس عبر الدم.

فوق كل ذلك، كان بولس يفعل كل ذلك مدعيا أنه لم يزل يهوديا وأن اليهود الذين يتبعون الناموس ويؤمنون بالشريعة ما زالوا أولاد إبراهيم. يشرح بولس قائلا إن الناموس أعطى من قبل الله كقياس وقتى لأن الإسرائيليين كانوا قد زاغوا وضلوا. كانوا فى حاجة للناموس (الشريعة) ليقودهم ويرشدهم حتى يعود الإيمان والبر، وقدم المسيح هذا الإيمان. يستمر بولس فى الرسالة إلى أهل غلاطية ٣ ليقول: "ليس يهوديا ولا يونانيا. ليس عبدا ولا حرا. ليس ذكرا ولا أنثى لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة".

ما يفعله بولس هنا هو عين ما فعله وكان يفعل الحاخامات والفلاسفة فى عصره: فهو يبتكر إبراهيم جديدا لأغراضه الخاصة. لا يؤكد بولس على الدراما السردية التى فى حياة إبراهيم ـ جداله مع الله بشأن سدوم وعمورة، محاولته للتضحية بابنه ـ ويركز بدلا من ذلك على اللحظة الأولى المبكرة فى حياته عندما ترك بيت أبيه وذهب صاعدا إلى المجهول، ويفعل بولس هذا فهو يركز ضاغطا على التأكيد أن إبراهيم كان وعاء لبركة الله العالمية الكونية.

سواء كانت كلمات بولس بالفعل عالمية، أو كانت بذكاء يستثنى اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح، فهو أمر جدلى. يدعى بولس من جانبه، أن يكون شاملا. فهو يقول فى الرسالة إلى أهل رومية ١١: "فأقول لعل الله رفض شعبه. حاشا. لأنى أنا أيضا إسرائيلى من نسل إبراهيم". وعلى عكس من خلفوه، لا يلقى بولس باللوم على إسرائيل على موت المسيح، ولم يقل إن الله أسس الكنيسة كغضب من شعبه وعقاب لهم.

لكنه يتأرجح ويتردد كما نرى عندما يقول فى الرسالة إلى أهل رومية ١١ بعض اليهود سوف يقطعون من شجرة الحياة قطع الزيتونة البرية وأن الأمم

"سيطعمون مكانهم". قال جون ليفنسون من هارفارد: "إن مشكلة بولس الكبيرة تكمن فيما يلى، إلى أى حد موثوق فيه إلهه؟ لماذا يتحتم علينا أن نثق فى هذا الإله الذى أثبتت التجربة أن عهوده لأولاد إبراهيم لم تتحقق؟ من الآن فصاعدا، أيما كانت الصعوبات التى تنشأ سيتم حلها عن طريق المسيح. لقد تم قطع اليهود من الشجرة. لم يزل معظم المراقبين يتفقون على أن بولس كان فى البداية يحاول جذب الأمم وجرهم إلى عائلة إبراهيم أكثر مما كان يريد إخراج اليهود من تلك الدائرة". كما شرح الإكليريكى الدكتور وود "لنفترض أنك وأنا كنا فى مجمع يهودى فى ذلك الوقت، وحدث أن أتينا للإيمان أن يسوع هو بحق المسيا. هل كان سيتوقع بولس منا أن نتوقف عن ممارسة الختان، أو التخلى عن الشريعة؟ لا أعتقد ذلك. فى الحقيقة أعتقد أنه كان سيصدم بتلك الفكرة. إنه يحاول جاهدا أن يصنع خيمة كبيرة."

"لذا تعتقد أنها رسالة شاملة؟"

"أعتقد ذلك".

قلت متسائلا، ولكن ما التوابع التى لهذا الجدل من ناحيته؟ " لدى رد عميق عندما أقرأ تلك الفقرات بينما ـ ربما ـ تكون رسالته شاملة، يمكنك بالفعل رؤية التحول ضد اليهودية".

رد قائلا: "لا على الإطلاق، لا أستطيع تحديد هذا الرد. لم أكبر وأنا أفكر فيه، لأنى لم أكبر مفكرا فى هذا السؤال. ولكن يمكنك أن ترى فى بولس لحظات راديكالية أكثر لدرجة تجعله يبدو تقريبا وكأنه يلعن الناموس. فى إدراك متأخر، عندما تنظر إلى التاريخ التراجيدى الذى للتشطر بين اليهودية والمسيحية عبر سنة وتقرأ تلك الفقرات، تقول، رفقا يا بولس، لقد خلقت مشكلات ضخمة دون أن تدرك ذلك".

"لأنه فى الوقت الذى قد حصلت على مجموعتين متنافستين نحو نهاية الألفية الأولى، لقد أعطى بولس التبرير لذلك، وأعتقد أنه فعل ذلك عن غير عمد، من أجل التخلى عن الأشياء الجميلة فى التقليد اليهودى. ولقد فعل هذا عبر الأب الأعظم والمؤسس الأول للتقليد اليهودى نفسه".

بعد حوالى الساعة فى مطبخ المطران ثيوفانز، اقترح أن نزور الكنيسة. ارتدى كابا أسود اللون وقبعة سوداء علية بدون حافات. عندما مشى إلى الخارج ومد الخطى عبر حديقته، لم أستطع مقاومة فكرة خطرت برأسى من أنه كان يبدو كملك على رقعة الشطرنج.

فى الخارج، تفرق النشاط الصاخب حول المدخل المؤدى إلى القبر المقدس بمجرد دخول المطران. هرع الرهبان لاستقباله. اندفعت إحدى السيدات المصليات، ركعت على ركبة واحدة وقبلت يده، وهى تتلو الصلوات. حياها لثوان قليلة، وانحنى، وأشار ليخلف بابا لم يسبق لى رؤيته أو ملاحظته من قبل إلى بئر سلم حجرى.

فى ثوان معدودات كنا نقف على سقف الكاتدرائية. كان منقرا بقمم القباب وندوب من الطوب والجص والمسلح نتيجة لمئات التجديدات والتوسعات. قادنى إلى مقصورة لا تكفى لأكثر من دستة من الأشخاص. بنيت تلك الحجرة فى القرن الخامس عشر، كانت الحجرة مطوقة بجدارية. الصور فى الطبقة العليا من الصورة صورت أحداثا من حياة المسيح؛ بينما الطبقة السفلى صورت مشاهد من حياة إبراهيم، بما فيها مشهد محاولته للتضحية بابنه ومقابلته لرسل الله وهم فى طريقهم لسدوم وعمورة.

قال المطران: " هذا هو المكان، طبقا للتقليد، حيث أوشك إبراهيم على ذبح ابنه، وحيث ضحى الله بالمسيح. فنحن فوق الجلجثة مباشرة. إنهم يحضرون أناسا بسطاء ويخبرونهم أن تلك هى البقعة المحددة عينها. وهذا مهم لبعض الناس."

"لكن ليس لك أنت".

"أنا لا أهتم كثيرا بعلم الآثار. المجاز والقصص الرمزية تمثل لى أهمية أكبر. فكل شىء فى الحياة له طبيعتان كما ترى، الجانب المادى والجانب الروحى. فى تلك الجدارية هناك بعدان. فيك أنت هناك بعدان. وكذلك فى إبراهيم هناك بعدان، أيضا".

سألته ما الذى قصده من قوله ذلك.

"أن إبراهيم يمتلك الله فى داخله والبشرية أيضا. لقد أسس للوحدة التى وصلت حد الكمال فى يسوع المسيح".

"لذا فإبراهيم هو الشد بين كونه بشرا وإلها".

قال: "ليس شدا سلبيا بل إيجابيا. فأنت لا تستطيع الفصل بين كونك بشريا وكونك إلهيا" ولكى يوضح، بدأ يشرح السبب الكامن وراء الجدارية الموجودة فى الكنيسة الصغيرة والتى يظهر فيها المسيح وإبراهيم. يدخل الزائر على مستوى بشرى ويقابل إبراهيم عينا بعين، عندها يرفع عينيه ليرى المسيح، ثم يرفع عينيه مرة أخرى نحو السماء. يعيد كل زائر اختبار الصعود إلى الله.

" الشىء المهم جدا الذى يجب تذكره عن إبراهيم هو أنه يعيش فى داخلنا جميعا. عندما نؤدى الطقس الدينى، نحن نضع الخبز، الذى يمثل المسيح. نضع بجواره قطعة أخرى من الخبز تمثل العذراء مريم. بجواره نضع تسع قطع أصغر تمثل المذابح التسعة التى للخدام والرسل والأنبياء والآخرين. وإبراهيم واحد من الأنبياء. فى الأمام نضع فتاتا صغيرا يمثل الشعب. نضع كل ذلك فى كأس، مع الروح القدس."يغلق عينيه ويلوح يديه فى الهواء ليوضح التحول"، وهذا يتحول ليصبح جسد المسيح".

فتح عينيه ونظر إلى. "هذا الفتات الصغير من الخبز بالنسبة لى أهم من الإنجيل. تلك مجرد قصة قد حدثت منذ وقت طويل. يحدث الطقس الكنسى كل مرة نفعله فيها. وما زال إبراهيم يعيش فى ذلك الكأس. وهو يعيش فى داخلى.

سألته: "هل هذا يعنى أنه لا يعيش فى داخلى أنا؟"

رد قائلا: "هو بالتأكيد يعيش فى داخلك، إننى لست بصدد خلق أعذار. فما فعلته الكنيسة مع إبراهيم هو نعمة ونقمة. ولكن مئات السنين من الآن، سيتم اعتبار الناس الجادين عالميين. سيفهمون أن إبراهيم ينتمى للبشرية جمعاء".

فكرة أن إبراهيم ينتمى للبشرية كلها، والتى تظهر على الأقل فى رسائل بولس، سرعان ما بدأت تتبدد فى الكتابات المسيحية المبكرة. يعتبر إبراهيم

متعدد الوجود رغم أنه ليس بالشخص المهيمن فى الأناجيل، فالأناجيل الأربعة تصب اهتمامها على حياة المسيح، وقد كتبت فى أواخر القرن الأول. تشكل الأناجيل الأربعة ومعها رسائل بولس ومختلف الكتابات الأخرى مجتمعة العهد الجديد. رغم أن الأناجيل قد تمت كتابتها بعد رسائل بولس فإنها تقدمت عليها فى الترتيب داخل الكتاب المقدس تحت أسماء متى مرقص ولوقا ويوحنا. يعتبر إبراهيم من الأهمية بما يكفى لأن يظهر، ففى أول جملة فى العهد الجديد، فى إنجيل متى: "كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم. "على عكس بولس، تلتقط الأناجيل أهمية النسب فى الكتاب المقدس العبرى وتحاول أن تربط يسوع مباشرة بإبراهيم. يتجاهل متى إسماعيل ويقول إن إبراهيم كان والد إسحاق، الذى كان أبا ليعقوب وهكذا تستمر سلسلة الأنساب. يحسب متى أربعة عشر جيلا من إبراهيم إلى داود، وأربعة عشر جيلا من داوود إلى سبى بابل ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا. ومن المؤكد أن سبب ظهور داود فى سلسلة النسب تلك هو أن النبى ميخا تنبأ أن مسيا اليهودى سيأتى من عشيرته. أما الاحتمال الأكبر لظهور إبراهيم هو أن متى يريد أن يجعل للمسيح جذورا عميقة على قدر المستطاع فى التربة الإسرائيلية ويعطيه مقام القدم وميزته.

تجد الأناجيل أيضا صفات روحية فى المسيح كانت متأصلة فى إبراهيم. ففى لوقا ١٦ يخبرنا المسيح مثلا عن إنسان غنى كان يلبس الأرجوان والبز وهو ينعم كل يوم مترفها. وكان مسكينا اسمه إليعازر مطروحا عند بابه مضروبا بالقروح. ويشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنى. بل كانت الكلاب تأتى وتلحس قروحه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم".

وحتى من عمق الهاوية، من الجحيم. ينادى الرجل الغنى إبراهيم طالبا منه الرحمة، لكن إبراهيم يقول له: "يا ابنى اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك وكذلك لإليعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب." تبين تلك الآيات ديونا واضحة للمفسرين اليهود. فهى تأخذ المثل المسيحية المعاصرة - فى هذه الحالة، مهتما بالمضطهدين - ويؤسسها بأثر رجعى فى حياة إبراهيم. وبعبارة أخرى، يتم تحويل إبراهيم إلى المسيح.

يصل المزج بين إبراهيم والمسيح إلى ذروته فى إنجيل يوحنا. وأحيانا ما يسمى الإنجيل الرابع بإنجيل الأناجيل لأنه كتب فى وقت متأخر عن باقى الأناجيل، فى حوالى٨٥ ميلادية يحاول بصورة مؤثرة توليف الثلاثة السابقين. يعتبر يوحنا أيضا الأكثر روحانية بين كل الأناجيل. فالنص الكتابى أقل اهتماما بطبيعة المسيح البشرية ويهتم أكثر بطبيعته الإلهية. فالمسيح دائما أكثر من مجرد بشر. فهو كلمة الله المتجسدة فى شخص تاريخى.

تلك الصورة تظهر بجلاء فى هذا المثل الرائع والمثير للجدل. ففى يوحنا ٨، نرى يسوع يعلم مجموعة من الكتبة والفريسيين فى الهيكل، ويقول: "أنا هو نور العالم. من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة. فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقا. أجاب يسوع وقال لهم إن كنت أشهد لنفسى فشهادتى حق لأنى أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب أما أنتم فلا تعلمون من أين آتى ولا إلى أين أذهب. أنتم حسب الجسد تدينون أما أنا فلست أدين أحدا" ويستمر المسيح فى قوله مخاطبا اليهود الذين آمنوا به: "إنكم إن ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذى وتعرفون الحق والحق يحرركم".

يرد اليهود قائلين: "إننا ذرية إبراهيم ولم نستعبد لأحد قط (يتجاهلون هنا الفترة التى قضوها فى مصر أو ربما لم يكونوا على علم بها) يقول المسيح" أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم . لكنكم تطلبون أن تقتلونى لأن كلامى لا موضع له فيكم. " ثم يستمر فى كلامه حتى يقول: "الحق والحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامى فلن يرى الموت إلى الأبد". يثير هذا الكلام اليهود أكثر"، فأجاب اليهود وقالوا له "ألسنا نقول حسنا إنك سامرى وبك شيطان". ويستمرون مؤكدين" الآن علمنا أن بك شيطانا. قد مات إبراهيم والأنبياء. وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامى فلن ير الموت إلى الأبد. ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذى مات".

يرد المسيح قائلا: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومى ورأى وفرح". فجأة يعرف إبراهيم الإنجيل قبل أن يولد المسيح بآلاف السنين.

يرد اليهود بغضب: "ليس لك خمسون سنة بعد. أفرأيت إبراهيم؟"

ويرد المسيح بآيات من أكثر الآيات المثيرة للجدل فى العهد الجديد: "الحق والحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن".

يرد اليهود بأن رفعوا حجارة ليرجموه.

تعتبر عبارة المسيح الأخيرة فى نهاية الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا تضمينا واضحا على ألوهيته فى الأناجيل. يشبه المسيح الله الآن من حيث قدرته على تجاوز المكان والزمان، وهو يعبر عن ذلك بقوله إنه عاش قبل إبراهيم. يذهب المسيح إلى أبعد من ذلك بقوله إنه أخبر إبراهيم من كان وقبل إبراهيم. لم يعد المسيح لاحقا لإبراهيم بل سابقا له. ليس المسيح البذرة التى لإبراهيم؛ إبراهيم هو من بذرة المسيح.

ليس من المدهش أن يرفض اليهود هذا الاتحاد ويتم تشبيهه بالشيطان. لهذا السبب، يعتبر الكثير من العلماء تلك الفقرة على أنها من أكثر الفقرات معاداة لليهود فى العهد الجديد كله. كما قال الإكليريكى دكتور وود: "هذا هو الشىء الصعب. إنه الألوهية التى لنهاية القرن الأول وضعت على لسان المسيح. هل حقا قال المسيح هذا؟ أجد أنه من المستحيل أن أصدق. إنه فقط لايتماشى مع معظم البقية التى نملك سببا لنفكر أنه قال.

ما زال، كما يشير، يؤكد يوحنا أن المسيح قالها، والتوابع هى شىء هائل وضخم. يرد اليهود - بإلقاء الحجارة - يكظمون غيظهم. يبدو الوعظ الآن بين اليهود والمسيحيين شيئا لا يمكن إصلاحه. لقد حل القتال محل الحوار.

ولماذا؟ من وجهة النظر المسيحية، ينكر اليهود على المسيح الحق فى كونه إلها. من المنظور اليهودى، المسيح ينكر اليهود - أو على الأقل اليهود الذين يتجادل معهم - ما الذى حدد هويتهم عبر القرون: الحق فباعتبار كونهم أولاد إبراهيم. كما قال يسوع خلال المناظرة" لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى". فبدون إبراهيم، يكون اليهود قد فقدوا صلتهم بالله. وفجأة، لم يعد إبراهيم الأب لكل البشرية؛ إنه التعبير عن الصدع بين المسيحيين واليهود.

وأى صدع يصبح.

ففى القرون التى أعقبت تسجيل الأناجيل، استمر كتّاب الكنيسة الأولون فى توسيع فجوة الخلاف والصراع بين المسيحيين واليهود. كما فى مناطق أخرى، كما أثبت تدمير الهيكل فى أواخر القرن الأول الميلادى ليدلل على أنه شىء محورى. رأى آباء الكنيسة فى سوء الحظ الذى يلازم اليهود وما يواجهونه من مصاعب على أنه أكبر دليل على انتصارهم وتبرئة لادعاء كونهم المملكة الحقيقية لإسرائيل. والمسيحية، التى كانت فى حالة دفاع أمام اليهودية، استمرت الآن فى الهجوم.

بدأ كتاب بارزون مثل الشهيد يوسينوس وإيريناؤس (من القرن الثانى للميلاد) و إيسيبيوس (من القرن الرابع) فى الجدل والقول بأن إبراهيم لم يكن يهوديا على الإطلاق بل كان مسيحيا. كان يوستينوس، الذى ولد فى نفس المدينة التى وطأتها قدم إبراهيم أول ما وطأت فى أرض الميعاد.. هو أول الكتّاب الذين نظروا إلى اليهود باعتبارهم أعداء للمسيح. يدعى يوستينوس أن إبراهيم كان قد تمت بالفعل مناداته ودعوته من المسيح بنفس الصوت الذى دعى كل المؤمنين للمسيح. كنتيجة مباشرة لذلك، سيرث المسيحيون الأرض المقدسة وهم أيضا بحق" الأمة التى وعد الله بها إبراهيم".

والآن، لم يصبح اليهود فقط مدانين من قبل المسيح بل تم بالفعل حرمانهم من الميراث فى الأرض وتم عزلهم بعيدا عن الله.

يذهب إيرانياؤس إلى أبعد من ذلك، قائلا إن المسيحية ليست بالدين الجديد بل هى أصل الإيمان، الإيمان الذى جعل من إبراهيم رجلا بارا. "لم يكن المسيح مجهولا لإبراهيم الذى رغب أن يرى يومه". فى الحقيقة، أنه كان عبر المسيح، الذى ظهر لإبراهيم متجسدا، حدث وأن أتى إبراهيم إلى معرفة الله.

ثم أتى الانفجار الأخير عبر قنبلة فجرها أوغسطين. جادل هذا اللاهوتى الذى ظهر فى القرن الرابع قائلا إن اليهود بصورة عمياء تدعو إلى الخجل ينظرون إلى التاريخ من منظور جسدى، وليس بعيون روحية. واستمر فى قوله

مصرا على أن الطريقة الصحيحة لترى الزمن هى من خلال عيون الابن الخالد والسرمدى لله. لكى يدلل على صحة وجهة نظره، اعتمد فى ذلك على الآية النارية التى وردت فى إنجيل يوحنا ٨ التى يقول فيها المسيح" قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن". يكتب أغسطينوس معلقا "زن تلك الكلمات واستخلص المعرفة من بين ثناياها ومستوراتها. فالمسيح لم يقل "قبل أن كان إبراهيم أنا كائن" لأن المسيح لم يكن لكنه وببساطة كائن. ليس ماضيا قط بل حاضرا على الدوام.

كنتيجة لذلك يؤسس المؤمنون بالمسيح الدين الأسمى، كما حدد أغسطينوس. كما أن الله يفضل أصغر الأبناء على أكبرهم فى الكتاب المقدس، على ذلك فهو يفضل الدين الأحدث وهو المسيحية على الأقدم وهو اليهودية يمكن لليهود أن يستمروا فى الوجود ولكن فقط لأن تقليدهم يوفر الظلمة التى منها خرج الضوء الساطع اللامع للحقيقة المسيحية. وبعبارة أخرى، اليهودية تخدم المسيحية. ويحصل إبراهيم على أمة جديدة، أمة المسيح.

ما كتبه يوحنا وأعاد يوستينوس التأكيد عليه، يغلق عليه أغسطينوس فى مكان لما يقرب من ألف وخمسمائة سنة من التاريخ المسيحى، وقد أصبح إبراهيم، الذى كان طبقا لبولس أبا لكل المؤمنين، أبا لكل من يكره، وعندما كان المطبلين من دعاة النازية يبحثون عن مبرر للاساميتهم (معاداتهم لليهود)، على سبيل المثال، رددوا أعمالا من تلك الفترة، ذهبوا إلى أبعد من ذلك بأن أطلقوا على يوستينوس الشهيد "أعظم معاد للسامية فى التاريخ المسيحى القديم".

مازال، يتشابه ما فعله المفسرون المسيحيون بصورة ملحوظة مع ما فعله المفسرون اليهود. فقد أخذوا شخصية كتابية معروفة للجميع، ألقوا بعيدا كل ما أرادوا تجاهله فى تلك الشخصية، ورددوا ما أرادوا التركيز عليه لخدمة وجهات نظرهم، وانتهوا بما يشبه رمزا لتفردهم الذى بدا شبيها بصورة كبيرة بصورة فى المرآة للفانتازيا الخاصة بهم أكثر من انعكاس للقصة الأصلية. إبراهيم الآن مسيحى، وهو الذى عرف المسيح، وسمع الإنجيل ونقل بركة الله بصورة حصرية إلى هؤلاء الذين احتضنوا جسد المسيح.

اليهود وهم أحفاد إبراهيم بالجسد البيولوجيين لإبراهيم وكل من يرفض العهد الجديد ويرفض المسيح، يتم طردهم ونفيهم، وتركهم للذبول فى نسيان. تم استخدام إبراهيم فى البداية لتضمين الأمم (من غير اليهود) فى ملكوت السموات، يتم استخدامه الآن ليشهد طرد اليهود من ميراثهم الخاص. ربما يكون إبراهيم قد توقف قليلا عن قتل لحمه ودمه على جبل المريا، لكن المسيح قد فعلها الآن له.

مرة أخرى، كغريب صادف ذلك التقليد العدائى، كنت مذهولا ومتحيرا. لقد تحول إبراهيم بصورة واسعة بواسطة من أحفاده المعلنين أنفسهم لدرجة أن يحمل القليل من الشبه بالصورة التى تركت لتشحب فى الكتاب المقدس، ربما تكون القصة الكتابية نفسها قد تم تعديلها؛ ربما يكون قد تم تبديلها بصورة لا تقاس. ولكنها لم تزل تنجح فى نقل رسالة أكثر كرما وغنى لنعمة الله أكثر مما تفعله أى من الصور التى كان الورثة الروحيون المفترضون مشغولين بخلقها.

مرة أخرى، تركت وترك لى سؤالا: لم لا نرفض تلك التفسيرات؟ لم لا نرد على التفسير المسيحى الحصرى لإبراهيم على اعتبار كونه صناعيا كإبراهيم اليهودى أو نرفضه.

قالت الإكليريكية بيترا هيلدت: "لأنك لا تستطيع". والسيدة هيلدت هى قسيسة بروتستانتية لوثرية ألمانية وتقود جمعية البحث اللاهوتى المسكونى فى أورشليم. وهى سيدة صغيرة الجسم، أنيقة بوجه عريض هادئ صاف وشعرها معقود على شكل كعكة، وقد ولدت فى برلين ولكنها انتقلت إلى إسرائيل فى السبعينات لتحسن العلاقة بين اليهود والمسيحيين. عندما قابلتها فى مكتبة مكتبها. كان لم يمر سوى أيام على رسالة دكتوراه قامت بها تحت عنوان "استخدام إبراهيم فى الكتابات المسيحية المبكرة".

قالت: "سيتم إعادة قراءة كل قصة، من اللحظة التى تدون فيها. وكل إعادة لتلك القراءة سيتبعها إعادة تفسير، على ضوء هذا، فليس هناك قصة أصلية وليس هناك رسالة أصلية".

بينما كانت تتحدث حافظت على جعل يديها بين ركبتيها، كما لو كانت لا تريد أن تشد الانتباه إليهما. والسبب هو أن يديها كانتا يغطيهما ندبات تشبه آثار التطعيم. ففى ١٩٩٧ كادت السيدة هيلدت أن تتحول إلى رماد فى تفجير انتحارى مضاعف ومتعدد فى سوق ماهاتى يهودا ماركت فى أورشليم. كانت تتسوق للعشاء عندما سمعت صوت انفجار قنبلة على بعد محلات قليلة. وعندما بدأت فى الفرار من المكان، لاحظت صديقها نسيم، وهو تاجر سمك، يسلم على فلسطينى. ولكن بدلا من أن يترك يد نسيم بعد السلام، شده الرجل نحوه وفجر قنبلة ثانية. وانفجرت كرة نارية أخرى، جعلتها تطير فى الهواء. عندما سقطت على الأرض كانت قد أصيبت بحروق من الدرجة الثانية والثالثة، تلك الحروق التى غطت جسدها، كما استقرت شظايا فى رجليها وقدميها. بعد نصف ساعة، وصلت مستشفى هداسا، فى المكان الذى كان عليها أن تقضى فيه الستة أسابيع القادمة فى وحدة الحروق، كانت عيناها متورمتين إلى حد الانغلاق بسبب الحروق، وغير قادرة على الأكل أو الشرب، وضع صحفى ميكروفونا على وجهها. "لماذا تعتقدى أنك ما زلت على قيد الحياة؟"

كانت إجابتها إعجازية كما كان بقاؤها على قيد الحياة: "ليكون لدى الفرصة للحديث عن عظمة الله." فنحن أدواته لنجلب المصالحة إلى عالمه.

أخبرتنى قائلة: "لو نظرت إلى التاريخ، فكل ديانة، فى مختلف العصور، ولأسباب مختلفة، حاولت أن تؤسس نفسها على أنها الديانة المسيطرة الحقيقية. فادعاؤك إبراهيم لنفسك ليس سوى مجرد وسيلة لتؤسس سطوتك وتبسطها". هذا الشد القوى دائما ما يحدث فى النقاط الفاصلة فى التاريخ ونقاط التحول التاريخية. بالنسبة لليهود كانت بعد أن تم تدمير الهيكل الثانى وكان عليهم دعم وجودهم المهتز وهويتهم الساقطة. بالنسبة للمسيحيين كانت بعد سقوط روما فى القرن الرابع والخامس، عندما فقدوا حمايتهم السياسية. إنها حاجة نفسية تم إيقاظها عن طريق حالات سياسية. فأنت تستخدم ثقافتك لتؤسس للنصرة لأن قوتك السياسية ربما تضعف وتوهن. وتريد أن تبين أنك كنت دائما هناك. وإبراهيم هو الطريقة العظيمة لتثبت ذلك".

سألتها، فى ضوء المعطيات القائلة باستخدام إبراهيم لأغراض سياسية "هل تعتقدين أنه لم يزل وعاء جيدا للمصالحة؟"

"أعتقد أنه أفضل ما هو موجود لدينا".

"لماذا؟"

يمكنك أن تضع أى شىء تريده فى هذا الوعاء. إنه متسع بما يكفى. وهو عريض بما يكفى. حتى شكسبير لا يمكنه التفكير فى إبداع شخصية أفضل منه. إنه يزرع فى هذا الفراغ الذى للعالم، لذا فهو يسبقنا جميعا، فوق كل شىء فهو معنا كلنا. فلم يتم التعرف عليه على أنه جميل، ولا يهودى، ولا مسيحى، ولا أسود، ولا أبيض، ولا أى شىء آخر، لذا يمكنك أن تضع كل شىء تريده عليه.

"لديه أيضا، تلك الرابطة المقدسة الإلهية، وهو شىء رائع، وكل تلك الوعود الإلهية، الملهمة، لا يمكنك بحق التفكير فى أى شخص آخر. إنه كامل".

"لذا فأنت تقترحين أن هناك سببا واحدا جعل منه شخصا عظيما وهو قصور التفاصيل فى سفر التكوين".

"بالضبط. وهذا هو نمط البطل الجيد". هل لديك فكرة واضحة عن هاملت أو إوديبوس؟ لا! وحكايات ألف ليلة وليلة تقدم أبطالا. وأنت لا تعرف أكانوا صغارا أم كبارا، إذا كان لون شعرهم أسود أو عيونهم زرقاء. لهذا السبب ينالون الحب من كل شخص.

"لذا يمكنك القول للمسيحيين، على سبيل المثال، إنه يجب عليهم أن يرجعوا للقصة الأصلية التى فى سفر التكوين وهناك سيجدون هذا البطل؟"

"لا يمكن لأى مسيحى أن يفهم القصة فى سفر التكوين بدون بولس الرسول؛ ولا يمكن ليهودى أن يراها ويفهمها من غير الحاخامات".

"لذا كيف تجد هذا البطل لو كان لديك كل هذه التفسيرات بينك وبينه؟" ذلك تحديدا هو المستنقع الذى ظللت متعثرا فيه، وأصبحت فى حالة ضيق شديدة لدرجة أنى قفزت من على الكرسى. وقد كنا نجلس بين خزانتى كتب فى المكتبة.

ذهبت لأقف عند طرف إحداهما، على بعد حوالى عشرة أقدام من السيدة هيلدت. وقلت: حسنا، أنا هنا، أنا أنا. وأنت إبراهيم. وهناك كل هذه الكتب بينى وبينك. كيف يمكننى أن أجدك؟ لو بدأت بقراءة كل تلك الكتب، ففى اللحظة التى أجد فيها واحدا جيدا سأتوقف، أبقى هناك لبعض الوقت، وأصبح فى كمون. كيف يمكننى أن أتجنب كل تلك الكتب وأعود إلى إبراهيم..."

قالت: "الأمر فى غاية البساطة." اركلهم جميعا".

"أركلهم؟"

"يمكنك أن تركلهم بعيدا لأنك تعرف ما تفعله".

"رجعت لمقعدى وأردفت قائلا": إننى مشوش".

قالت: "انظر، يجب أن تعترف فى البداية أن هناك كل تلك الكتب بينى وبينك. التى هى بالفعل شىء ما إلى حد بعيد لأن معظم الناس لا يعرفون أنهم هناك. ثانيا، يجب أن تجد طريقا لتحرر نفسك من هذا النوع من التفكير القصرى، الذى لن تفعله، ولكن على الأقل يجب عليك على قدر الإمكان. عندئذ، عندما تنتهى، سنأتى معا ـ أنت يهودى، وأنا مسيحية ـ سنجلس ونبدأ نرسم صورة لإبراهيم. سأقول، ما الذى تعرفه؟ وستسألنى عما أعرف، وسنخرج فى النهاية ببعض الملامح المشتركة: إنه رجل، يعيش فى الصحراء. ونبدأ من هناك".

"وعندما نبدأ من هناك، هل سنعود إلى تلك الكتب؟"

"بالطبع ستحضر كتبك، وسأحضر كتبى. لكننا نحاول أن نكون انتقاديين نحو بعضنا البعض".

وما الذى سنحصل عليه فى النهاية".

"شخص عملاق، يمسك بآمالنا وتوقعاتنا المتصلة فى حياته، والذى نرى كلانا شخصيته كممثل للأفضل فى أنفسنا. إنها جميلة، ويمكن أن تحدث."توقفت. ارتسمت على وجهها ابتسامة قلقة". والآن دعنا نجد المسلمين. فثلاثتنا سيفعل الشىء نفسه، ونحن على الطريق لحل مشاكل العالم.

(٧)
المسلمون

بعد أيام قلائل من الجمعة الأخيرة من رمضان أسير مسرع الخطى عبر الشوارع الدوارة الملتوية فى الحى الإسلامى فى قلب المدينة القديمة فى أورشليم. الهواء رمادى اللون والمزاج أكثر رمادية منه. انحنيت تحت أحد الكبارى من العصر المملوكى ومددت الخطى عبر نفق نادر الاستخدام قبل أن أصل إلى سلم قصير من الحجر لا يبعد سوى درجات قليلة عن البوابة الحديدية للحرم الشريف. يقوم على حراسة المدخل اثنان من الجنود الإسرائيليين. ينظرون إلى بعيون تفيض شكا، فلا يسلك الغربيون تلك الطرق. تخرج سيدة من الباب تحمل غسيلها، وعندما ترانى تغلق الباب بقوة وبسرعة منسحبة إلى الداخل.

فى قمة أحد السلالم الضيقة أدخل أحد المكاتب ذا طلاء أبيض اللون، به شاشة كمبيوتر خضراء اللون، وسخان أرضى، وسخان قهوة، ونسخة من مجلدات الموسوعة الإسلامية. يخص المكتب الدكتور يوسف نيتشه، رئيس هيئة الآثار الإسلامية التابع للسلطة الفلسطينية والأمين القيم على قبة الصخرة. نثرثر لدقائق قليلة ونحتسى كوبين من الشاى. ثم يقوم بعرض لوحة لكل الأشكال الهلالية فى أعلى المنارات عبر أورشليم.

فى الساعة الحادية عشرة إلا الربع، فجأة يدخل رجل عريض المنكبين على هيئة وشكل رجال الأعمال ويحييني ببرود لكن بود. أقدم له كرسيا ليجلس بجوارى. يتراجع للوراء ويجلس قبالتى.

الشيخ يوسف أبو سنينه هو إمام المسجد الأقصى، واحد من أعظم القادة المسلمين المفوهين فى أورشليم، وكان هو الإمام صاحب الخطبة النارية التى استمعت إليها مصادفة فى الجمعة الأخيرة من شهر رمضان. وللإمام شعر أسود ولحية سوداء مرقطة ببياض ليست بالطويلة. ذكرنى شكل حاجبيه المحفورين بحدة على كره منى بآية الله الخومينى، لكن عيناه تغضنا بطريقة لطيفة. كما أنه شاب إذ لا يتجاوز عمره الثالثة والأربعين. وهو أيضا سريع الغضب وعصبى المزاج. وتلك هى أول مقابلة له مع صحفى من غير المسلمين.

"والشيخ مشهور عنه اطلاعه الواسع ومعرفته الغزيرة بالقرآن" هذا ما قاله لى الدكتور يوسف قبل أن يصل الإمام. "إنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وكذلك فيما يخص الحديث الشريف". والحديث يمثل أقوال الرسول وأفعاله التى تم جمعها بعد وفاته. "هو أيضا يتكلم العربية الفصحى بصورة سليمة . كما أنه عاش خمس سنوات فى المدينة المنورة، مركز التعليم الإسلامى".

كان حوارنا متكلفا فى البداية. شكرته على استقطاعه من وقته لمقابلتى، وسألته أسئلة قليلة عن حياته. كانت إجاباته روتينية مغلفة باللامبالاة. بمرور الوقت سألت عن أهمية إبراهيم فى الإسلام.

رد قائلا: "إنه شخصية عظيمة ومحورية" وعلا صوته واشتدت نبرته كمن يلقى محاضرة. "أحفاده مثل العمود الفقرى والمحور الرئيسى عبر الأجيال. فمن بين الأنبياء الخمسة والعشرين فى الإسلام هناك سبعة عشر ينتمون لعائلته وإبراهيم نفسه يجعل المجموع ثمانية عشر. كل شىء فى الإسلام مرتبط به".

سألته:"لماذا اختار الله إبراهيم دون كل الناس فى العالم ؟"

رد قائلا: "الله لم يختر إبراهيم فقط، لقد اختبر إبراهيم. فقد كان لدى إبراهيم مشكلات مع الملك عابد الأوثان، كما كانت لديه مشكلات مع زوجته، فقد كان شيخا كبيرا قبل أن يرزق بأبناء، أيضا طلب منه الله أن يضحى بابنه. وفى كل مرة كان خاضعا لله. كان مخلصا تماما ومكرسا حياته لله. إنه مثال يجب أن يحتذى منا جميعا".

قلت له لم يكن إبراهيم فى التوراة مطيعا دائما لله. فهو تارة يتحاور معه وأخرى يجادله. سألته إذا كان لديه الشعور نفسه فيما يخص إبراهيم فى القرآن".

أجاب قائلا: "نعم، وتلا مثل إبراهيم والطير، وهى قصة غير موجودة فى الكتاب المقدس[٣٠]. فى سورة البقرة، إذ يطلب إبراهيم من الله دليلا على قدرته على إحياء الأموات. يسأله الله، ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ قال، ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. لذا يطلب الله من إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير؛ يقطعهم إلى أجزاء، ويبعثر تلك الأجزاء فوق الجبال. ثم يخبر إبراهيم أن يستدعيهم. يطمئنه الله قائلا ﴿يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

قال الشيخ أبو سنينه معقبا: "لذا بين الله قدرته وآمن إبراهيم به". وفوق ذلك خضع إبراهيم لله وسلم نفسه له".

سألته "لذا هل كان إبراهيم مسلما؟كان هذا هو السؤال الأهم الذى أتيت لمعرفة الإجابة عليه. فقرار الإسلام لاحتضان إبراهيم موضع جدل وهو حتى ملحوظ بصورة أكبر من قرار المسيحية لاحتضانه. فقد ظهر الإسلام بعد ستة قرون كاملة من المسيحية، وعلى الأقل بعد ألف سنة من اليهودية. كما أن محمدا عاش بعد ألفين وخمسمائة عام بعد إبراهيم. ومع ذلك يتبع محمد الطريق نفسه ويسلك السبيل نفسه الذى سلكه بولس والمسيحيون الأوائل، والسلوك نفسه الذى سلكه عزرا واليهود الأوائل، فقد ربط رسالته الروحية بأول الأنبياء. عندئذ، بدأ المسلمون فى عصر مبكر جدا، بعد أن نعموا فى المجد الذى للماضى، شرعوا فى الادعاء أن الماضى ملك لهم فقط".

قال الشيخ أبو سنينه: "هذا يتوقف على ما تقصده بكلمة مسلم. إذا عنيت أن المسلم هو من سلم نفسه لله وخضع له، على ذلك يكون الإسلام قد بدأ منذ آدم،

---

(٣٠) يرد فى سفر التكوين الإصحاح ١٥ قصة الطير، وحيوانات أخرى، لكنها فى سياق آخر ومختلف، كما أن المغزى فى سفر التكوين يختلف عن المغزى فى القرآن الكريم، وإن كان يفهم منها فى سفر التكوين أن الهدف هو تصديق إبراهيم بأن نسله سوف يرث أرض غربته (المراجع).

واستمر عبر إبراهيم، ثم لكل أنبياء اليهودية والمسيحية. لكن لو تقصد بالمسلم هو من اتبع الإسلام والرسول محمدا فهذا يأتى متأخرا جدا".

سألته: "أى التعريفين تفضل؟".

بالنسبة لى، سلم إبراهيم نفسه لله. لقد فعل كل شىء من أجل الله. أنا لا أعرف إن كان يشبهنى أم لا، لكن ما أعلمه هو أنى أريد أن أكون مثله.

فكرة ظهور ديانة أخرى فى الشرق الأوسط فى القرن السابع للميلاد، وتستخدم الأساس السردى للقصص كاليهودية والمسيحية نفسه، ثم تستأصلهم أو تحل محلهم بسرعة بالغة أو على أساس القوة الدينية والسياسية جاءت كصدمة لكل شخص تقريبا ـ بما فيهم العرب أنفسهم.

لكن ليس لمحمد، فبعد قرنين تقريبا من موت أوغسطين، وعندما كانت المسيحية لتوها قد طورت أساليبها الخبيثة لتحقق نصرتها، ظهر نبى جديد فى مكة ليسلم للعرب ما اعتبره مكانهم الطبيعى فى تاريخ الخلاص. فى طرق عديدة، بدا محمد وكأنه رسول غير محتمل: فقد كان فى الأربعين من عمره، وتاجرا ناجحا، ومتزوجا من سيدة أكبر منه، وأمى (لا يعرف القراءة والكتابة)، مما يجعل من الصعوبة رؤية صورة الثائر فيه.

لكن محمدا تعلم الكثير من أسفاره عبر الجزيرة العربية وهى منطقة تعانى من صراعات القبائل المتناحرة بسبب موقعها غير الملائم فى البؤرة الجافة من منطقة الهلال الخصيب، لم تشارك الجزيرة فى وفرة الثقافة والسطوة التى تتعزز عند مصادر المياه عندما يكون هناك مصدر منتظم منها كأشور ومصر وحتى أرض الميعاد. لم يكن لدى القبائل العربية فائض زراعى، ولا حاجة لمجتمع معقد أو مركب، لا محفز للحضارة. بعد ألفى سنة من تدمير الموحدين الأوائل لأصنام آبائهم، كان العرب وثنيين.

لكن الجزيرة العربية كانت قد تغيرت. فقد جلبت طرق التجارة والصفقات المالية الكبيرة الكثير من الأموال والرفاهية للجزيرة العربية، التى كانت تقودها قريش، قبيلة محمد مع زيادة الأتصال مع العالم الخارجى، تم تناقل الروايات

الخاصة بأنبياء التوحيد على نطاق واسع. كانت موهبة محمد تكمن فى معرفة تلك التغيرات ـ ويدخرها. لم يتعجل الأمور فى البداية؛ لم يبدأ بالتبشير بصوت عال. لقد قام فقط بإخبار قصته، وصاغها كحب للوطن خرج من الزمن للعرب، كنوع من الانتقام من الهلال المجدب.

أهم نقطة كانت فى تلك الرسالة الوطنية هى لغة محمد. فأى مسافر للشرق الأوسط اليوم يعرف أن اللغة العربية لغة شعرية. بصورة خاصة العرب الذين يقضون أى وقت فى الصحراء يتحدثون أى لغة يتحدثونها ـ عربى، إنجليزى، فرنسى ـ بنعمة ونبل الذى هو إلى زوال، ملهم، وأحيانا تؤدى للجنون، اللغة العربية بها صفات كثيرة ليس بينها الصلابة أو الجمود. وأكثر ما يميزها أنها منسابة، متطورة ومتشكلة ومصاغة مثل الكثيب الرملى.

ومحمد، بكل الحسابات وفوق كل شىء، تكلم العربية، أكثر روعة فى قوتها وسحر وفتنة فى جمالها أكثر من أى شخص كان قد سمع من قبل أو سمع فيما بعد . واحد من الأسباب التى جعلت القرآن يمارس هذا التأثير هو لغته الشعرية المتضمنة فى سوره التى لها نسق لا يمكن نسبته إلا إلى الله. بصورة جزئية كنتيجة، أكثر من قرن من التمزيق وتقطيع الأوصال الأكاديمى لم يكن لديها سوى تأثير أقل على القرآن أكثر مما كان على الكتاب المقدس. يستمر المسلمون الأتقياء فى النظر إلى القرآن على أنه كلام الله المنزل، والذى هو سبب واحد للتقوى التى يثيرها. فليس هناك شخص ثالث يروى القصص فى القرآن. يتحدث الله بصورة مباشرة فى كل آيات الكتاب البالغ عددها ستة آلاف ومائتى آية(*).

النقطة الأخرى المهمة فى رسالة محمد هى أنها جاءت مسكونة بشخصيات كانت مألوفة بالفعل ومعروفة جيدا فى الجزيرة العربية، من العدد الكبير من السكان اليهود والمسيحيين التجار الذين استقر بهم المقام فى الجزيرة العربية. ولكن من أجل أثر أعظم، كان محمد فى حاجة لربط رسالته بنبى يكون معروفا

(*) عدد آيات القرآن الكريم بحسب الكثير من المصاحف المطبوعة حديثًا ٦٢٣٦ آية، ويمكن مراجعة الكلام على عدد آيات القرآن فى كتاب "البرهان فى علوم القرآن" للزركشى (١/ ٢٤٩). (المحرر).

لمستمعيه. لكى يفعل هذا، كان فى حاجة لشخص مثله، شخص مرتبط بالجزيرة العربية نفسها، وأيضا شخص قام بنشر رسالة التوحيد لسكان وثنيين متعددى الآلهة.

كان فى حاجة لإبراهيم.

يذكر اسم إبراهيم فى خمس وعشرين سورة من سور القرآن المائة وأربع عشرة، أيضا هناك سورة إبراهيم التى تسمى باسمه. والرسالة المهيمنة فيما يخص إبراهيم هو أنه كان مستقيما، خاضعا لله، ورفض عبادة الأصنام. كما تقول سورة الممتحنة.. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.

مرة أخرى تبدو نقطة البداية فى الإسلام متشابهة بصورة ملحوظة مع نقطة البداية فى اليهودية وكذلك فى المسيحية: أن يكون لديك إيمان بالله، ورجل واحد كأفضل من يجسد تلك الرسالة. سأل بيل جراهام: "لماذا يعتبر إبراهيم شخصا مشوقا ومهما بالنسبة لى بينما لم نكن لنعرف شيئا عنه تاريخيا، يوجد هناك تقليد الشرق الأدنى التى تصوره إلى حد ما كرجل له إيمان لا يمكن تخيله. رجل فى وجه كل العقلانيات يؤمن بالله. وبسبب ذلك نراه واقفا صامدا فى التاريخ - سواء أكان أسطوريا أم حقيقيا - كالشخص الذى بطريقة أو بأخرى يمسك بتلابيب الخيال الذى للديانات الثلاث".

بدأ الإسلام مثل المسيحية بطرح نفسه بصورة واسعة على قدر الإمكان. ففى السنوات الأولى لدعوة محمد، بينما كان يعيش فى مكة، على طول الساحل الجنوبى الغربى للجزيرة العربية، كان حريصا أن يؤكد على أن إبراهيم شخصية عالمية الإيمان. فالنصارى واليهود هم أهل كتاب ويؤمنون بالإله نفسه طبقا لما جاء بالقرآن. فى الواقع أن محمدا كان متوقعا تماما أن يتبع اليهود والمسيحيون عودته للتوحيد السليم النقى. إذ نقرأ فى سورة العنكبوت ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

تقوى هذا التقارب بين محمد والديانات الأخرى فقط عندما دعت مجموعة من القبائل العربية المقيمة بالقرب من يثرب النبى للتوسط بينهم فى نزاع. وافق النبى مرحبا. كالمسيح، ما أثار جدلا بين قادة مكة مع رسالته عن المساواة الروحية والاجتماعية. العصبية القبلية وحكم الأقليات المحلية، وشيوخ القبائل المحليون، الذين جنوا أموالا طائلة من مثل عدم المساواة تلك كما فى رحلات الحج السنوية التى كان يقوم بها العرب لزيارة الأماكن المقدسة الوثنية فى مكة، بدأوا فى مقاومة الدعوة والتضييق على المسلمين. هاجر محمد من مكة إلى المدينة فى يوليو عام ٦٢٢ وتعتبر الهجرة من الأهمية بمكان لدرجة جعلتها بداية التقويم الإسلامى. فلم يحدد المسلمون تاريخهم ابتداء من ميلاد الرسول أو موته، ولا حتى من السنة التى نزل عليه فيها الوحى. يبدأ التاريخ فى السنة التى ترك فيها محمد أرضه وعشيرته، وتوجه إلى أرض أخرى، ووهب ميلادا جديدا لمجتمع من المؤمنين. الصدى الذى للنداء الذى لإبراهيم لا يمكن أن تخطئه عين.

لقد تم تأسيس يثرب، التى سميت فيما بعد بالمدينة، كمستوطنة يهودية، ولم يزل يعيش عشرة آلاف يهودى فى تلك المدينة. عمل محمد عن قرب مع قادة اليهود، وعزز معرفته بالكتاب المقدس، أتى الإسلام معززا لعلاقاته، حتى فى اختيار يوم الصلاة الأسبوعى، يوم الجمعة، الذى يتزامن وإعداد اليهود لسباتهم يوم السبت (وليس للتنافس مع أسبوع العمل اليهودى، كما فعل السبت المسيحى). بالإضافة إلى ذلك، حث المصلين على أن يولوا وجوههم شطر أورشليم وأعلن أن اليوم اليهودى للكفارة سيكون يوم صوم للمسلمين.

لكن تلك الحرارة فى العلاقات بين المسلمين واليهود لم تدم طويلا، فبينما أبدى اليهود استعدادهم لعمل معاهدات سياسية مع محمد، لم يكونوا مستعدين لقبوله كنبى. فبالنسبة لليهود كان الوحى الإلهى قد انتهى. ويوضح القرآن كيف أن النبى قد أحبطه رفضهم لدعوته. وتصاعدت النبرة فى سورة المائدة لتصبح أكثر حدة خاصة تجاه اليهود والمسيحيين.

ففى سورة المائدة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تستمر السورة فى اتهام أهل

الكتاب بإخفاء حقائق وأشياء مؤكدة في كتابهم وتسلم رسالة محددة للمسيحيين ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إلى القول، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، بدأ الشقاق تدريجيا بين المسلمين الأوائل من جانب واليهود والمسيحيين من جانب آخر. وتتشابه تلك العملية مع ما حدث بين اليهود والمسيحيين، عندما عرض المؤمنون الجدد ما اعتبروا أنه رسالة عالمية لكن المؤسسين رفضوا قبول تلك الدعوة. في كلا الحالتين، واصلت الديانة الجديدة تقدمها بنفسها.

في يناير ٦٢٤ حدث تغير مهم: حيث طلب محمد من المؤمنين أن يغيروا قبلتهم، فبدلا من تولية وجوههم شطر أورشليم عليهم أن يولوا وجوههم شطر مكة. فقد كانت مكة الموطن الأصلي للتوحيد، كما يقول القرآن والاتجاه السابق كان فقط اختبارا لمعرفة أنصار محمد الحقيقيين. ومن الآن فصاعدا، سيولي المؤمنون المسلمون وجوههم نحو موطن مولد النبي.

بينما وسع هذا التحول دائرة الخلاف بين الأديان، فأنه لم يكن له سوى القليل من الأثر على تغيير أهمية إبراهيم. رغم كل ذلك، فقد أصبح إبراهيم أكثر أهمية للمسلمين كرمز للخضوع الكامل لله قبل اليهودية والمسيحية. كما يقول الله في سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. نرى من ذلك أن الإسلام بعبارة أخرى هو العقيدة الكونية الحقيقية.

يشير محبو السلام وصانعوه المسلمون أن القرآن لا يؤيد العنف ضد أصحاب الديانات الأخرى ولم يجبر اليهود ولا المسيحيين على اعتناق الإسلام. كما أخبرني الشيخ فيصل عبد الرؤوف، إمام مسجد الفرح في نيويورك، "القرآن واضح. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. ويجب أن يكون الإيمان مسألة قناعة فردية. حتى في الأماكن التي كان الإسلام يحكم فيها وتحت مظلته أناس غير مسلمين لم يتم إجبار أحد على التغيير".

لكن يؤمن معظم العلماء أن الانشقاق الذى حدث فى المدينة له انعكاس فى النص القرآنى. كما قال بيل جراهام: "لو أخذت القرآن عبر الزمان، فهناك تحد متزايد لليهود والمسيحيين ليرد الآن إلى حديث الله مرة أخرى. وأخيرا هناك إدانة وشجب لهم بعد كل حادث مؤسف أو آخر. عندها تصل للنقطة حيث أفعال محددة عن طريق أهل الكتاب تم استخدامها كحجة أوذريعة للاضطهاد".

المثال الواضح على ذلك الميل للعنف حدث فى الثلاث سنوات التالية لأن محمدا، الذى أصبح يملك الآن نفوذا سياسيا أكبر، عاقب ببطء تلك القبائل(٢١) اليهودية فى المدينة التى كانت قد انقلبت عليه وبدأت فى دعم أعدائه فى مكة. فى النهاية.

قام أتباع محمد بذبح ما يقدر بسبعمائة يهودى، وباعوا زوجاتهم وأطفالهم كعبيد، وهكذا تبدد أى أمل فى أية معاهدات طويلة الأجل بين الجانبين، فالمسلمون الجدد أصبحوا أقوياء بما يكفى للبقاء معتمدين على أنفسهم.

بعد صراع طويل ومرير، عقد محمد صلحا عام ٦٢٨ مع شيوخ مكة الذين قاوموه وقاتلوه ودخل إلى مكة دون مقاومة. وعند موته فى عام ٦٣٢ كان قد أحكم السيطرة على كل الجزيرة العربية. وأصبح للتوحيد عضو جديد وديانة جديدة؛ وحصل إبراهيم على عنوان جديد.

بعد أن قضيت حوالى نصف ساعة مع الشيخ أبو سنينه، بدأ مزاجه يتغير ويصبح أكثر راحة . كان لم يزل لم ينزع عنه معطفه، لكنه نحى حقيبته جانبا. خلال حوارنا قاطعنى مرتين قائلا إن لديه ما يريد توضيحه أو إضافته. وفعلت أنا ذلك مرة واحدة له، وضحك كلانا. وأخيرا بدا أنه مستريح بما يكفى لى لأن أسأله بشأن الحج.

---

(٢١) هذا الرأى غير صائب لأن النبى قبل أن يقوم بأى عمل ضد يهود المدينة المنورة كان يبدأ بتوجيه النصح والإرشاد لهم للمحافظة على الوثيقة التى تم تحريرها والموافقة عليها من قبل جميع سكان المدينة المنورة، غير أن اليهود لم يتقيدوا بالحفاظ على بنود هذه الوثيقة، وبالتالى لجأ النبى إلى إبعادهم عن المدينة المنورة بهدف خلق مجتمع مستقر قائم على المساواة والمحافظة على العهود (المراجع).

عندما عاد محمد مرة أخرى إلى مكة، بدأ فى تطهير المدينة المقدسة من وثنيتها وتحويلها إلى عاصمة للإيمان وللدين الجديد. فقد دمر كل الأصنام والمعابد الوثنية، ماعدا واحدا، الكعبة(*). فقد كانت مكة مركزا للحج لأجيال طويلة، مع الكعبة، والحجر الأسود الذى يبلغ أربعين قدما فى كل اتجاه لكونه أهم وأبرز غاية.

يقول القرآن إن الكعبة قد تم بناؤها بالفعل بواسطة آدم، ثم أعيد بناؤها عن طريق إبراهيم. وأثناء فيضان نوح، تم رفعها إلى السماء، حيث طافت حولها الملائكة مرفرفة، أصل التقليد الذى للحج هو الطواف حول الكعبة. فيما بعد تمت إعادتها إلى الأرض وضاعت تحت رمال الصحراء. وخلال واحدة من الزيارات التى قام بها إبراهيم للجزيرة العربية، أظهرت رياح موجهة الموقع السرى، وشرع إبراهيم فى بناء المعبد الأصلى حيث ترك الله أثرا لقدمه على الأرض. عندما تعب إبراهيم، ساعده إسماعيل بأن جلب له صخرة كبيرة ليقف عليها؛ التى أتت لتعرف على أنها مقام إبراهيم بسبب الأثر الذى تركه قدم إبراهيم عليها.

لاحظ بعض المفسرين أن إبراهيم وإسماعيل لم ينسجما كلية خلال تلك الفترة، وفى بعض التقاليد القديمة أن إسماعيل لم يستطع إيجاد حجر الزاوية، أو أنه كان كسولاً جدا لأن يكون مفيداً، ويقول له والده: "إن الله لا يأتمنك على مثل تلك الأشياء يا بنى".

بعد أن أتم إبراهيم بناء الكعبة، أمره الله أن يذهب إلى قمة تل قريب ويدعو الناس للحج لهذا المكان. كان صوته مجسما ومضخما لذا فقد أمكن سماعه حول العالم. حاكى محمد إيمان إبراهيم عندما دعى المسلمين لأداء مناسك الحج نفسها مرة أخرى.

(*) الكعبة ليست وثنًا.

أصبح الحج من الركائز الخمس التى بنى عليها الإسلام، وواحدا من الأسباب الباقية للدور المحورى الإبراهيمى فى العقيدة. كل الحجاج - رجال أو نساء - يطهرون أنفسهم ويرتدون ملابس الإحرام وهى ملابس غير محاكة وأيضا حذاء بلا خياطة أيضا، يدخلون إلى الحرم ويطوفون حول الكعبة سبع مرات على عكس اتجاه عقارب الساعة، بعدها يصلون فى نفس المكان الذى وقف فيه إبراهيم، ويسعى الحجاج بين الصفا والمروة ركضا فى إحياء لبحث هاجر عن الماء لأجل إسماعيل ويرجمون الأعمدة التى تمثل الشيطان الذى حاول إغواء إبراهيم أن يترك الله ويتجاهل أمره بالتضحية بولده.

على عكس اليهود والمسيحيين، الذين يعتبرون أن إبراهيم عندهم شخصية واسعة المعرفة، بالنسبة للإسلام إبراهيم شخصية ملموسة مرتبط جوهريا بواحدة من أهم المناسك المحركة للمشاعر فى حياتهم. كما أخبرنى الشيخ أبو سنينه عندما سألته عن مشاعره عندما رأى الكعبة، "ينتابك إحساس أنه تم عملها لتصور الكمال. فقد أمر الله إبراهيم أن يبنيها، وقد بناها حجرا على حجر، وقد قام بهذا العمل بكمال".

أدى الشيخ عبد المقصود مناسك الحج خمس مرات. وكتكريم لذلك نال لقب حاج قبل اسمه. فقد ظل الدكتور نيتشه يناديه بحاج يوسف.

استمر الإمام فى حديثه قائلا عندما تطوف حول الكعبة ينتابك شعور أن الله يمتحن إبراهيم وأن إبراهيم ينجو ويؤدى الامتحان بنجاح. بعدها تتوقف وتركع ركعتين. عندما تشعر أنك قريب جدا من إبراهيم تنتابك مشاعر مختلطة. إنه شيء محرك جدا للمشاعر.

سألته "أى نوع من المشاعر تنتابك وأنت فى المكان؟"

"إنه شعور بالترابط والتلاحم. تشعر وكأن هناك قناة بينك وبين الله. شعور روحى بأنك بشر ولكنك لست بشرا. تشعر أنك بشر بقدرات خاصة لأنك أيضا قريب من الله".

"وماذا تريد من إبراهيم فى هذه اللحظة؟"

"إنك لا تريد أى شىء من إبراهيم. بل تريد أشياء من الله. ففى كل مرة تكلم فيها الله مع إبراهيم، لم يطلب لنفسه شيئا قط. دائما ما كان يطلب من أجل عائلته. لم يكن أنانيا بهذه الطريقة قط، لذا نحاول أن لا نكون أنانيين نحن أيضا".

"هل بكيت؟"

"عادة ما يبكى بعض الناس بصوت عال؛ لأنهم يعانون الألم. يبكى البعض بهدوء لأنهم خطاة وقد تم إظهار خطاياهم. البعض يبكى من شدة الفرح".

"هل بكيت؟"

"مرات عديدة".

"أى نوع من الدموع؟"

"دموع العبادة".

انتشر الإسلام بسرعة، كالمسيحية، فى العقود الأولى. ففى غضون مائة سنة من وفاة الرسول عام ٦٣٢م، فى فترة حكم الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، انتشر الإسلام فى الجزيرة العربية، وسوريا، وفلسطين، ومصر، وبلاد فارس، ومعظم أفغانستان وكذلك الهند، بالإضافة إلى انتشاره عبر شمال إفريقيا كلها من الإسكندرية إلى تونس. وأيضا كالمسيحية أثبت الإسلام أنه قادر على الانتقال والتكيف والإلهام للسكان بعيدا ومتخلصا من مركزه السطحى التاريخى والجغرافى. أخيرا تحقق الوعد القديم لإسماعيل أن يكون أمة عظيمة.

وبدا واضحا أن الصراع والتنافس الطويل بين إسماعيل وإسحاق أصبح على وشك الظهور على السطح.

لم يزل هناك تشابه آخر بين الإسلام والمسيحية، فعندما بدأ الإسلام يقوى فى المكانة والسلطة ويزداد قوة، بدأ القادة المسلمون فى أن يباعدوا بينهم وبين أجدادهم الموحدين بصورة عدوانية. كان التفسير الإسلامى قاسيا ضد اليهودية أكبر منه ضد المسيحية، ويرجع هذا وبصورة واسعة إلى الظروف والأحوال

السياسية فى أيام الرسول. كما كتب أحد المفسرين فى القرن التاسع، إن الإسلام يفضل المسيحيين على اليهود لأن اليهود قاوموا الرسول وكانوا متحمسين ضده إبان إقامته فى المدينة - السبب فى كون المسيحيين أقل بشاعة - رغم أنهم بلا شك لهم مساوئهم - هو أن الإسرائيلى لا يتزوج إلا بإسرائيلية وكل نقاط التقائهم وتشابههم تجلب معهم وتقتصر عليهم وفوق ذلك فهم ليسوا مميزين لا فى ذكائهم ولا قدراتهم الجسدية ولا مهارتهم.

مرة أخرى، حصيلة ثانية لهذه العملية هى أن مفسرى الديانة الجديدة عبروا عن مشاعرهم للسمو والرفعة نحو أجدادهم الموحدين وذلك بمحاولتهم لإحكام قبضتهم وتأكيد نسبتهم لإبراهيم ونسبته لهم. فعلى سبيل المثال، أضاف المفسرون المسلمون إضافة روحية جديدة لبناء الكعبة. فقد أشاروا إلى أن تلك البقعة هى عين البقعة التى أظهر فيها ملك من عند الله عين الماء لهاجر، ما أنقذ حياة إسماعيل.

مثال آخر أكثر وضوحا لإحكام القبضة على إبراهيم وهو يتضمن رحلة الإسراء والمعراج التى قام بها النبى. ففى سورة الإسراء، نقرأ أن الله استدعى محمدا ليقوم برحلة ليلية من مكة إلى ﴿المسجد الأقصى الذى باركنا حوله﴾ فى ذلك قال المفسرون إنه وبينما كان الرسول نائما فى الكعبة (مكة)، أيقظه الملاك جبريل وأركبه على ظهر البراق، الذى حمله بدورة إلى أورشليم. وهناك التقى النبى وصلى مع خليل الله إبراهيم، وأيضا موسى والمسيح والأنبياء الآخرين. ثم صعد محمد إلى السماء.

فى السماء، مرة أخرى التقى محمد بمختلف الأنبياء، بما فيهم موسى، "رجل أسمر اللون، قوى البنية، وذو أنف معقوف، فى السماء السابعة رأى محمد رجلا فى سن النضج جالسا على كرسى على باب الجنة. قال محمد، "لم أر شخصا يشبهنى إلى هذا الحد من قبل." فرد عليه جبريل قائلا: "هذا هو جدك إبراهيم. "لم يعد محمد مجرد محاكى لإبراهيم بل يشبهه. الآن ليست الرابطة بينهما مجرد رابطة روحية فحسب، ولا حتى علاقة الجد، لكنها علاقة جسمانية.

تبدأ العجلة المألوفة فى الدوران مرة أخرى. وفيها يتحول إبراهيم من النظر إليه على اعتباره شخصية عالمية مفتوحة على كل الأديان إلى اعتباره شخصية مقصورة أكثر يفضل دينا واحدا. إذ يبدأ الإسلام والمسلمون فى وضع نفسه تجاه أجدادهم الموحدين فى المكانة تلك التى سبق أن وضعتها المسيحية لنفسها مبكرا تجاه اليهود. قال المسلمون: إننا نفهم الإيمان الحقيقى لإبراهيم الذى أفسدتموه بطريقة أو بأخرى، فوق كل ذلك فقد حللنا محلكم فى عيون الله.

مرة أخرى وجد المفسرون آيات دعمت قضيتهم فى القرآن، ففى سورة آل عمران، نقرأ ﴿**إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب**﴾. بالنسبة للمسلمين، الرسالة المتضمنة فى آيات كتلك الآيات أصبحت واضحة: الإسلام ليس تاليا للمسيحية واليهودية بل سابقا لهم. ففى الحقيقة، كان الإسلام دين إبراهيم، الذى تحول عنه أحفاده لأغراضهم الخاصة ولأشياء فى نفوسهم. ويمكن قول هذا بصيغة أخرى: قبل أن كان إبراهيم، الإسلام كائن.

لقد كان فى تلك الفترة، التى بدأت فى حوالى القرن العاشر واستمرت لمئات عديدة من السنين، التى كان الإسلام فى أوج عظمته السياسية والثقافية، ومسيطرا على العالم من الهند إلى القوقاز، ومن وسط آسيا إلى جنوب ووسط أوربا. تشكلت الكثير من الصراعات الواضحة بين الأديان فى تلك الفترة، بما فيها فكرة أن إسماعيل كان هو الابن الذى دعى إبراهيم للتضحية به.. عندما سألت الشيخ أبو سنينه عن أى من أبناء إبراهيم كان هو المقصود فى القصة الشهيرة، قال إنه إسماعيل وشرع فى سوق التفسيرات وتفنيد كل المجادلات.

سألته: "على ذلك فهناك خطأ فى الكتاب فى هذا الموقف".

قال. "نعم"

فى النهاية دخل السمو والترفع الإسلامى نحو اليهود والمسيحيين إلى عالم السياسة ومملكتها. ففى بعض الأماكن كان غير المسلمين يتم احتقارهم، كأن يجبروا على ركوب الحمير بدلا من الخيول، أو أن يجبروا على الركوب على سرج جانبى (سرج يستقر عليه المرء جاعلا رجليه على جانب واحد) بدلا من منفرج الساقين، وحتى وصل الأمر إلى منعهم من الخروج من بيوتهم عند المطر خشية أن ينتشر فسادهم(٣٢).

وفى وقت مبكر من القرن التاسع تم إجبار المسيحيين واليهود على ارتداء شارات صفراء على ملابسهم، وتم استخدام هذه الشارة من قبل النازيين ضد اليهود.

كان المؤرخ الإسلامى، برنارد لويس، قد كتب أن التفرقة الإسلامية ضد غير المؤمنين، رغم عنفها وعمقها، لم ترق بأى حال من الأحوال إلى مستوى العداء الذى أظهره المسيحيون لليهود. "عموما، على عكس اللاسامية (المعادية لليهود) المسيحية، كتب فى كتابه يهود العالم الإسلامى، "إن التوجه الذى تبناه المسلمون نحو غير المسلمين لم يكن نابعا عن كره أو خوف أو حسد ولكنه ببساطة من الاحتقار".

تغيرت تلك العقلية فى القرن العشرين مع الصراعات على المستعمرات الأوربية فى الشرق الأوسط، وظهور دولة إسرائيل، وبروز أمريكا كدولة عظمى وحيدة. بدأت تلك المعارك السياسية تغذى الحوار الدينى وتنعكس عليه، لدرجة أنه حتى حوار حول إبراهيم بين اليهود والمسيحيين والمسلمين اليوم غالبا ما

---

(٣٢) يلاحظ هنا الترويج لشبه استشراقية، فالعلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب كانت دائما علاقات حسنة، وذلك باستثناء بعض الفترات التاريخية التى تم فيها وضع شروط معينة لأهل الكتاب، وكانت فى الغالب ناتجة لأحد سببين، إما أن بعض أهل الكتاب استغلوا تسامح الحكام المسلمين وأساءوا إلى المسلمين، وإما أن بعض الفقهاء المتشددين أشاروا على بعض الخلفاء بوضع شروط قاسية على أهل الكتاب وهناك أدلة كثيرة على مساهمة أهل الكتاب فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل وصل بعضهم لمنصب وزير (المراجع).

يفسد ويتحول إلى عدم اتفاق بشأن أورشليم، وفلسطين، وأسامة بن لادن، والمستوطنات اليهودية، والانتحاريين، وأطفال العراق وتلاميذه، والرهائن الإيرانيين، وحرب الخليج، وسيطرة اليهود على وسائل الإعلام، والأسرة المالكة فى السعودية، والمخابرات الأمريكية، والموساد.

وبصورة حتمية، إرادة الله.

فى الليلة التى سبقت رؤيتى للشيخ أبو سنينه، قابلت صديقا فلسطينيا فى فندق فى أورشليم، كان فى سيارته المتهالكة ومتوجها متعمقا فى شرق أورشليم لمقابلة إمام مسجد هناك. كنت قد ناقشت صديقى عن إبراهيم، وهو مرشد سياحى وعالم آثار هاو، وعرض على أن يقدمنى لجاره رجل الدين. قال صديقى إن أخاه يدرس على يديه كل أسبوع.

كان مسعود الفاست جالسا فى جلباب أنيق على أريكة صغيرة فى حجرة جلوس جميلة فرشت أرضيتها بمشمع. كان لديه لحية قصيرة بيضاء ويرتدى غطاء رأس منسوج مزركش. كان كريما ولطيفا لولا أنه كان متحفظا. لم يكن راغبا فى الحديث عن خلفيته، رغم طلاقته فى الإنجليزية الناجمة عن سنوات قضاها فى لندن. عندما قدم لنا صديقى وأخوه أكواب الشاى مملوءة بالزبادى الدافئ الحلو، مع الجوز والقرفة، توقفنا عن الحديث للاستمتاع بما بدا لى وكأنه أفضل شىء تذوقته فى حياتى فى الشرق الأوسط.

بدأ حديثنا بالطريقة المعتادة، بينما كنا نتحدث عن إبراهيم فى الكتاب المقدس والقرآن، وقصة بنائه للكعبة، وقصة الإسراء الليلى إلى أورشليم. ولكن عندما انتقل الحوار إلى قصة التضحية، تغيرت نبرة الإمام، عندما بدأ يوضح كيف أن إسحاق أدنى درجة من إسماعيل. قال لى، فى الكتاب المقدس، حتى الأنبياء يشجبوا سلوك اليهود لأنهم تجاهلوا كلمة الله. "لقد قالها موسى، وقالها داود، وكذلك ملاخى. جميعهم قالوا لو لم يتبع اليهود إرادة الله سيتلقوا غضب الله ويستحقوا انتقامه. لقد بدأت كل المشكلات مع إسحاق".

سألته قائلا: "لذا فمن وجهة نظر الله يفضل إسماعيل على إسحاق؟"

رد قائلا: "الله لا يفضل هذا أو ذاك. الله يفضل الناس الذين يعبدونه بطريقة صحيحة".

"وأحفاد إسماعيل يعبدونه بطريقة صحيحة".

قال: "انظر إلى الأمة الإسلامية، انظر إلى العالم كله. نحن نعبد الله على مدار الساعة، خمس مرات كل يوم، انظر إلى اليهود والمسيحيين، إنكم لا تعبدون الله كما نعبده".

سألته: "لذا ما الذى سيحدث لأحفاد إسحاق الذين يعبدون بطريقة غير صحيحة؟"

الله يعطيكم الفرصة لتخضعوا أنفسكم له وتتبعوا حكم الله. ولكنكم تتجاهلونه لأنكم أصبحتم أقوياء. يمكنكم توصيل رسالتكم إلى كل أنحاء العالم، يمكنكم غلق عقول الناس. إنكم تفعلون عكس ما يريد الله. فأنتم تفتحون البنوك، وبيوت الدعارة، وصالات القمار، والأشياء الشريرة. يعطيكم الله فرصا كثيرة، ولكننا نعلم جيدا أنكم لن تتبعوها.

ثم استطرد وقد علت نبرته لكنها لم تكن عدائية، "وانظر إلى ما حدث، لقد أرسل رجالاً أشداء ليقتلوا أنفسهم لكى يقتلوكم. هذا شىء لا يصدق، ما حدث فى أمريكا، ولكنه أتى من الله".

عند تلك النقطة أذهلنى كلامه، لكنى لم أكن فى حالة غضب. مكثت هادئا، محاولا أن أتتبع حبل أفكاره. نظرت عبر الحجرة. كان صديقى غاطسا فى كرسيه، لكن أخاه كان منتصبا، كانت عيناه متسعتين، ورأسه تشير إلى موافقة واستحسان. كان يرفع كتفى ابنه ذى الأربع سنوات، ليتأكد أنه يرى الإمام، لكن الطفل كان مستغرقا فى شىء آخر.

قلت له: " لذا دعنى أتأكد من أنى أفهمك بصورة صحيحة. أنت تقول إنه لو أنى يهودى، وأنا من أحفاد إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإنى أتبع الشريعة

التوراتية ولست أتبع الشرائع الحقيقية لإبراهيم والخالق، على ذلك ستتم معاقبتى؟"

"طبقا لكتابك، نعم، طبقا للقرآن، أيضا نعم، والسبب هو لأنكم تمقتون الإسلام وتحاولون تدمير دين الله. عن طريق فرض أفكاركم وطرق تفكيركم على العالم، تظهرون كراهيتكم لله. والآن لا عليكم سوى اتباع خاتم الأنبياء والمرسلين. عندها فقط تخلصون".

سألته "على ذلك ما الذى سيحدث معى؟" كنت أنظر إليه مباشرة.

نظر هو أيضا إلى مباشرة وقال: "سوف تموت".

لا أستطيع التفكير فى أى شىء لقوله.

استمر قائلا : "سيأتى العقاب من الخالق، ولكن عن طريق الناس بالطبع. مثل هتلر، على سبيل المثال، طبقا لما يرويه اليهود فقد قتل هتلر ستة ملايين شخص من اليهود. دائما ما كنت أسأل نفسى، لماذا يحب هتلر اليهود كل هذا الحب لدرجة جعلته يحرقهم أحياء؟ وفهمت لماذا عندما درست الكتاب. لا يفعل اليهود ما يريد الله. هم يفعلون العكس".

بدا واضحا وجليا أنه عند هذه النقطة انتهى حوارنا، وبدأت أتسائل كيف يمكننى بالتحديد أن أرجع إلى البيت؟ هل كان ما حدث مجرد سوء فهم؟ أم هذا هو الشىء الطبيعى والمناقشة الاعتيادية التى تعقب العشاء فى أورشليم الشرقية؟ كان على أن أسأل سؤالا آخر.

ذكرت أن هناك حوارا مستمرا فى العالم بين أناس يمثلون الديانات المختلفة، فى محاولة لمعرفة إن كان بإمكانهم الاستمرار والتعايش وإيجاد مشتركات تمكنهم من العيش جنبا إلى جنب. "أيمكنهم ذلك؟"

أجاب قائلا: "نحن مسلمون، وتلك الأرض مسلمة. إن كنتم تودون العيش بيننا، فما تؤمنون به هو سبب مشكلتكم. تلك هى رسالة الله. اقرأها فى الكتاب المقدس أو فى القرآن".

"لذا ليس هناك رسالة أمل، ولا حتى في إبراهيم"

قال: "عادة ما تأتى الرسائل من أناس لا يؤمنون بالله. إبراهيم هو الأب لديانة واحدة، وتلك الديانة هى الإسلام".

وصلت إلى البيت آمنا فى تلك الليلة، كان صديقى يقود سيارته وأنا بجانبه فى صمت مطبق. أخذت حماما. كل ما حدث وما قيل فى هذا اللقاء غير المتوقع تركنى فى حالة من الضيق والحزن. كل ما كنت أريد أن أفعله فى الحال هو نسيان ذلك الحوار، وكأنه لم يحدث. من كان هذا الرجل الذى لم يقل جملتين عن نفسه؟ هل كان بحق رجل دين على الإطلاق؟ أم هو مجرد مهيج ومثير للضيق؟

"لا يهم"، قال لى صديق يعمل صحفيا ويكتب كثيرا عن الدين فى المنطقة. "الحقيقة المرة هى أنه يمثل التيار الأساسى للإسلام فى الوقت الحالى. يمكنك أن تقابل يهودا لديهم رسالة مشابهة عن القومية اليهودية ولكن ليس بتلك الكثرة، يمكنك أن تجد رؤيويين مسيحيين، ولكن بعدد محدود. أما الإمام الذى حدثك فهو يمثل رؤية معظم المسلمين، على الأقل فى تلك المنطقة".

بسبب خبرتى وتجربتى بأورشليم الشرقية، انتظرت حوالى الساعة فى لقائى وحوارى مع الشيخ أبو سنينه فى اليوم التالى قبل الخوض فى موضوع السياسة. ما هو معروف عن الشيخ هو أنه حماسى وملهب للمشاعر. ولم يكن ليؤم المسلمين فى الصلاة التى تختم شهر رمضان فى المسجد الأقصى إذا لم يتم إعداده لاستخدام منصة أولى القبلتين وثالث الحرمين ليلهب مشاعر الفلسطينيين العدائية نحو إسرائيل. قال فى آخر خطبة له: "مسلمو فلسطين واحد ولا يمكن أن ينقسموا، وفلسطين هى أرض وقف ولا يمكن لأحد التخلى عنها، وليس لأحد الحق فى ذلك. ومن يفعل ذلك خائن للأمانة وهو لا شىء سوى مجرم وستكون خاتمته جهنم وبئس المصير".

عندما قاربت مقابلتنا نهايتها، ذكرت له أن هناك حوار أديان يدور الآن فى العالم وسألته ما إذا كانت شخصية إبراهيم ستساهم فى التوحيد أم ستعزز الانقسام.

قال: "لو يتبع المسلمون واليهود والمسيحيون ما ذكر فى القرآن، عندها يمكن أن يكون إبراهيم شخصا موحدا."وشعرت أننا على وشك النزول فى بئر يشبه ما سقطت فيه فى الليلة الماضية وأن حوارنا يسير فى هذا الاتجاه. "لكن حتى ولو يتبع اليهود والمسيحيون فقط ما ذكر عن إبراهيم فى الكتاب المقدس: عندها يمكن أن نتوحد".

الآن قد حصلنا على فكرة جديدة، قلت له: "لكن ما لدينا هما نصان مختلفان".

قال: "لكن الرسالة واحدة، لديكم قلب حقيقى، يجب أن تؤمنوا أنه لا إله إلا الله. ربما يكون لدينا وسائل مختلفة ولكن الغاية واحدة، وهى الغاية نفسها".

كان هذا يمثل راديكالية فى افتتاحيته لدرجة أنى لم أصدق تماما فى البداية. ذكرت له أننى استمعت إليه وهو يخطب فى صلاة الجمعة الماضية بينما كنت أقف على مكان عال يطل على المسجد الأقصى. بينما كان هو يخطب فى الناس. كان يمكننى رؤية اليهود يصلون، والمسلمون يصلون، وكل أجراس الكنائس تسمع دقاتها. وكان يمكن لكل واحد سماع الآخر".

ضحك. "لذا فأين السؤال؟"

هل كان ذلك صوت الصراع أم صوت السلام؟

"إننا كمسلمين لدينا أمر بالصلاة، لتؤمن طبقا للإسلام، والله يطلب منا بوضوح أن نحتج ضد الجماعات الأخرى ممن لهم عقائد أخرى. إننا نريد نشر الإسلام ونجاهد فى سبيل ذلك، ولكن لا يعنى هذا الحرب والاقتتال، لا يعنى الجهاد أن تحارب الناس، إنه يعنى أن تدعو الناس للإسلام، وهذا يساء فهمه بصورة كبيرة، سواء تاريخيا أم الآن. ولكن يمكن أن يتم فعل هذا بصورة سلمية".

قلت: "وددت لو أستطيع أن أصدق ذلك، لكن الناس يموتون. أنا أعيش فى نيويورك".

قال: "الموقف معقد جدا. هناك مشاكل فى المجتمع الفلسطينى. ويتم منع الناس وحرمانهم من القدوم إلى المسجد الأقصى. كل أسرة لديها أناس مسجونون، أو تم قتلهم. يهدد ذلك التسلط والهيمنة السياسية التسامح الدينى، كما ترى".

"لذا فعندما أنظر إلى الموقف هل على أن أشعر بالحزن أم الاهتمام والترقب؟ أم أنه يجب على أن أشعر أنه يمكن أن تسود روح إبراهيم فى المستقبل؟"

قال الإمام: "يجب أن تشعر بالحزن ليس فقط على العالم الإسلامى ولكن أيضا على اليهود والمسيحيين".

أومأنا موافقة.

استمر فى حديثه قائلا: "ولكن رغم هذا الحزن، يجب أن يبقى هناك أمل. كلنا نضحى. جميعنا فقدنا أعزاء علينا. الأمر متساو بين الفلسطينيين والإسرائيليين، بين اليهود والمسيحيين، بين الأمريكان، وبين الناس فى كل العالم. يجب أن نجد طريقا".

لأول مرة منذ الصباح أشعر أن الإمام خرج من دائرة الدفاع. فقد كان الآن جالسا على حافة كرسيه. وكان مادا ذراعيه للأمام ملوحا، وعيناه لامعتان. فقد كان خطيبا. كان قائدا.

رفعت صوتى ردا عليه. وتحركت إلى أن جلست على حافة الكرسى أيضا. لوحت بذراعى على اتساعهم. "لذا ها أنا أعطيك ميكروفون"، قلت له، "يمكنك أن تتحدث مع العالم كله، وأسألك أن تتحدث عن إبراهيم. ما رسالتك التى تود إيصالها؟"

"كنا نجلس الآن وجها لوجه. وقد اختفت الفجوة التى كانت بيننا. بدأ حديثه قائلا: كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يعبد الله. وكان شاكرا لله. وهو أول

الموحدين(*). وكانت له قيم عليا. لو أن كل الناس، وليس فقط المسلمون والمسيحون واليهود - اتبعوا الطريق القويم لإبراهيم، فأنا متأكد أن الحياة ستكون أفضل. لكننا لا نفعل ذلك. فالموقف الذى نواجهه هو أن الناس يعيشون حياتهم اليومية بعيدا جدا عن الإيمان الصحيح، وعن إبراهيم. ولو نظرنا فيما وراء التفاصيل. التى ربما نختلف حولها، واتبعنا مبادئ وقيم إبراهيم - الحقيقية، الأخلاقية، والتعايش - ستختفى معظم مشاكلنا".

أنهى كلامه بحركة تباه بيديه وانتصب واقفا على الفور. ووقفت بدورى، وسلمنا على بعضنا. شعرت بدافع أن آخذه فى حضنى ولكنى توقفت. فهذا الإمام هو إمام المسجد الأقصى الذى يحفظ القرآن والأحاديث، قد أعلن أنه يمكننا أن ننظر إلى ما وراء التفاصيل ونركز على المبادئ والقيم. بدا هذا اتفاق كاف.

وقفت وحيدا فى الشارع بعد دقائق من هذا الحوار. كان الحراس قد اختفوا. وتوقف المطر عن الهطول. وكانت الشمس تتصارع مع الغيوم. لم أكن أعرف تماما ما الذى ينبغى على فعله. أراد جزء منى أن أذهب إلى وسائل الإعلام وأخبرهم بما سمعت: الإمام الملهب للمشاعر يلقى خطبة للمصالحة: "تجاهل التفاصيل، واحتضن إبراهيم." وأراد جزء منى الدعوة لمفاوضات سلام.

فى الغالب كنت أريد فقط أن أصدق.

لذا وضعت حقيبتى على كتفى. أدرت ظهرى للحرم الشريف. ومشيت.

(*) لا يؤمن المسلمون أن إبراهيم كان أول الموحدين بل يؤمنون بوجود أنبياء سابقين على إبراهيم كانوا على التوحيد مثل إدريس ونوح. (المحرر).

دم إبراهيم

(٨)
التركة

كان الطريق الجبلى العالى المؤدى جنوبا من أورشليم إلى بئر سبع ذات مرة يسمى طريق الآباء المؤسسين؛ لأنه كان الطريق الذى سلكه الأجداد من الجليل إلى النقب. سلك إبراهيم هذا الطريق فى أول زيارة له لأرض الميعاد من شكيم إلى بيت إيل إلى مصر. فى السنوات القريبة كان يسمى هذا الطريق طريق النفق؛ لأنه يحتوى أطول نفقين فى إسرائيل. أما فى هذه الأيام فيطلق عليه طريق الدم؛ لأنه الهدف الرئيسى للقناصة الإسرائيليين والفلسطينيين والشظايا المتناثرة من تلال التبارى.

انطلقت سائرا فى هذا الطريق فى صباح يوم خميس مرير مشرق قاصدا حبرون، واحدة من أكثر المدن المميتة على سطح هذا الكوكب، المركز الرئيسى للصراع بين المسلمين واليهود، والمكان الوحيد الذى تتردد فيه الأصداء ـ أو من المحتمل الومضات ـ التى للمصالحة. فالديانات الثلاث جميعها تتفق أن إبراهيم اشترى أرضا هنا، ودفن سارة هنا، ودفن هو نفسه هنا. والمبنى الذى تم بناؤه فوق قبريهما قبل ألفى عام يحتوى على رفات لإبراهيم وسارة، وكذلك لإسحاق ورفقة، ويعقوب. ولقد تصارع اليهود والمسيحيون والمسلمون لأجيال طويلة من أجل السيطرة على هذا المكان .

كان البعض مستعدا للقتل من أجل ذلك. كانت حبرون (الخليل) التى تبعد حوالى مائتى ميل جنوب أورشليم ـ ولفترة طويلة ـ الدليل الدامغ على التعايش؛ فقد عاش اليهود والمسلمون هنا لقرون عديدة فى سلام وصلوا معا عند المقابر

رغم أن اليهود تم منعهم من الخطوة السابعة خارج المبنى وأنكر عليهم الدخول. تسمى المدينة باللغة العربية الخليل، وهو نفس الاسم الذى يطلقه الله على إبراهيم فى القرآن(٣٢). وهو نفس معنى الاسم بالعبرية الذى يعنى حفرون المشتق من حفر، التى تعنى أيضا صديقا.

لكن المدينة تحولت ومنذ القرن الأخير إلى رمز التطرف والعنف. فمن إحداث شغب وعنف فى عام ١٩٢٩ - إلى عشرات المناوشات، ثم مذبحة فى عام ١٩٩٤، وهناك إطلاق نار على مدار الساعة من قبل القناصة، أشياء مفخخة تنفجر، وإطلاق نار يطلق مصادفة بصورة عرضية كل هذا ترك المثوى الأخير لإبراهيم ملطخا بالدم، ومشوشا، وخلية لاتهدأ أبدا.

فى الليلة التى سبقت ذهابى لمدينة الخليل مباشرة، هاجمت القوات الإسرائيلية المسلحة منزلا فى المدينة، كان قد هرب إليه ليلا واختبأ فيه أحد أفراد الجماعة الإسلامية المسلحين، تم إطلاق النار عليه وقتله، وتلك القصة عادية جدا بل روتينية لدرجة أنها لم تتصدر عناوين الصحف.

سألت صديقا لى فلسطينيا يدعى ناصر، وهو أورشليمى وسائق تاكسى وافق على القيام بتوصيلى واصطحابى فى رحلتى إلى الخليل، وهو شاب فى نهاية العشرينيات من عمره بحاسة حكيم متمرس محنك لإقامة جسور العداء بين الشرق والغرب، كان هادئا حد الاقتضاب، بمجرد أن التقطنى ودار حول التل نحو النفق الأول، الذى يبعد دقائق فقط عن المدينة القديمة. سألته: "ألست غاضبا؟".

رد قائلا: "لا، بالفعل، إنه شيء يشعر به معظم المسلمين. فأنا أؤمن أنه لو حدث و مت أو أطلق على النار فإنه قدرى. فالله يريدنى أن أموت فى تلك اللحظة ولا راد لقضاء الله. حتى ولو كنت فى عقر دارى، سوف أموت. لذا لما يجب أن أخشى الذهاب للأماكن الخطرة؟ وهذا ما يساعد المحاربين المفخخين على قتل أنفسهم؛ إنهم يؤمنون أن هذا هو قدرهم".

"لذا فليس لديك خيار فى هذا؟"

(٣٢) لم يطلق القرآن على إبراهيم اسم الخليل صريحًا، إنَّما قال تعالى فى سورة النساء، الآية : ١٢٥ ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾. (المراجع)

قال: "هذا صحيح تماما، هناك ثلاثة أشياء فى الإسلام لا يد لك فيهم، مالك (رزقك)، وزواجك، وموتك. تلك الأشياء مقدرة من عند الله".

قال مضيفا، ربما لتهدئتى، "هذا بالإضافة إلى أنهم لا يطلقون النار على التاكسيات لأنهم يعرفون أن سائقى التاكسيات من الفلسطينيين. هم عادة يعرفون أن السيارات بداخلها يهود".

لم تحدث كلماته الأثر المقصود. كان الطريق فارغا، وموحشا. وكان قد تم إقامة حواجز خرسانية على ارتفاع ثلاثين قدم على جانبى الكوبرى بين النفقين لحماية السيارات. الفجوات السوداء تم حفرها بفعل المدافع الرشاشة إم ٥٠٠. تزين كروم العنب وأشجار الزيتون أعالى التلال الصخرية المتلونة بلون الرمال. عنقود صغير من المبانى يطل على الشارع تماما. "قال ناصر عن الفلسطينيين": دائما ما يطلقون النار من المبانى التى لم تكتمل بعد، التى هى تحت الإنشاء".

بعد حوالى عشرين دقيقة وصلنا لنقطة تفتيش. قال ناصر: "ربما نتأخر لبعض الوقت هنا: فالإسرائيليون يفتشون السيارات تفتيشا دقيقا، ويضعون مرآة تحت الشاسيهات، ويطلبون أوراق هوياتنا، وغالبا ما ينتهروننا". بعد دقائق قليلة خلوا سبيلنا.

لكن لم نكن قد انتهينا بعد. فقد تحملنا خمس نقاط تفتيشية فى الخمس وأربعين دقيقة التالية. مررنا عبر بعضها ببطء وعبر بعضها الآخر بسرعة. كان بعضها مزودا بدبابات وبنادق آلية. الكآبة متوطنة فى المكان، مرفوعة فقط بالشمس والسماء الزرقاء. ذكرنى التجاور بين التوتر والسموات الساطعة الزرقاء بأجواء الحادى عشر من سبتمبر فى نيويورك. فى العديد من نقاط التفتيش سألنى الحراس من أين أتيت. بعد المعرفة أه ـ أومأوا ـ أنت تعرف كيف يكون الأمر. وبعدها سمحوا لنا بالمرور.

قلت له بينما كنا نشق طريقنا عبر التلال الحجرية والوديان: "على ذلك لأن الله قدر لك متى ستعيش ومتى ستموت، لماذا لا تكون انتحاريا؟"

رد قائلا: "يريد الانتحاريون(٣٤) أن يكونوا شهداء، إنهم مسلمون أتقياء ويؤمنون أنهم سيذهبون إلى أماكن أفضل فى الجنة.. إننى ضد قتل المدنيين بشدة. كانت أول أوامر النبى محمد لجنوده "لا تقتلوا طفلا، ولا امرأة، ولا شيخا، ولا تقطعوا شجرة خضراء." ولكن الأئمة يقولون إننا الآن فى وضع مختلف. فليس لدينا أسلحة لندافع بها عن أنفسنا لذا فالقتل هو وسيلتنا الوحيدة. إنه مباح فى الإسلام، على حد قولهم".

ربما كان أكثر ما أدهشنى فى رحلة بحثى عن إبراهيم هو كم هو مختلف وبصورة كلية عما توقعته. كانت أول صدمة، بالطبع، هى اكتشاف أنه لم يكن هناك إبرهيم واحد بل عدد ضخم من الإبراهيمين المتنافسين المتصارعين. ولكن الاندهاش الأعظم هو اكتشاف أنه ولا واحد من القادة الدينيين الذين تحدثت إليهم عن ذلك التشوش العسير على ما يبدو لم يكونوا مهتمين أو معنيين بالأمر. مع قليل من الاستثناءات المعزولة، كل حوار، قمت به بشأن إبراهيم- مع اليهود، والمسيحيين والمسلمين على حد سواء، انتهى بصيغة لموازنة مختلف تلك الشخوص الإبراهيمية المتصارعة إلى حوار عملى فعال.

قدم إبراهيم خارطة طريق لما كان قد حدث من أخطاء بين الأديان. أيمكن أن يقدم أيضا خارطة طريق لكيفية إصلاح ما تم إفساده؟

هناك شىء ما يحدث فى العالم. لكن ماذا؟

رحلتى لديها ساق واحدة أخيرة.

فكرة أنه يمكن للديانات الموحدة أن تتصل فيما بينها على مبدأ المساواة بدون محاولة تخريب وتدمير إحداهما للأخرى تبدو وكأنها شىء بعيد المنال ولا يمكن حتى التفكير فيها قبل قرن من الزمان. فكرة أنه من الممكن أن يتحاوروا ويتحدثوا لبعضهم البعض عن القيم والمثل المشتركة كانت فانتازيا تستحق أن يكتبها

(٣٤) انتحاريون.. هكذا وردت فى النص الأصلى وهى صفة تتسق مع رؤية المؤلف وانتماءاته، ونحن نعتبر هؤلاء استشهاديين، غير أننا أثبتناها كما وردت فى النص تحقيقًا لأمانة الترجمة، رغم اعتراضنا عليها (المترجم).

جوليس فيرن، أبو الخيال العلمى. فى نهاية القرن التاسع عشر بدا وكأن الصراع بين الديانات الثلاث قد وصل لشىء ما يشبه الحل ـ ولم يكن على مبدأ المساواة.

اليهودية هى الديانة الأقل بدون وطن وبدون نفوذ سياسى تقريبا. لم يعد اليهود بعد مختارين، كما قال الحاخامات؛ فهم وحدهم من كان عليهم اتباع شرائع الله المحددة؛ ولكنهم فعلوا ذلك، جزئيا، لدرجة جعلت الله يبارك كل الأمم من خلالهم، كما فعل عبر إبراهيم. هذا الاعتقاد أكثر امتيازا من النصرة وكريه وبغيض على ما يبدو، فقد برهن على عدوانية أقل بكثير نحو الآخرين.

فى نفس الوقت ظهر الإسلام قصيرا فى دعوته للهيمنة الانتصارية. لم يحاول الإسلام محو اليهودية والمسيحية، ولكن الدول الإسلامية حاولت وبعدوانية أن تغزو العالم وتؤسس دولة الثيوقراطية[1] (الدينية). ففى العصور الوسطى أسفر ذلك الجهد عن معركة بين المسيحية والإسلام، أمتان قويتان ولهما طموحات سياسية. انتصر الإسلام تقريبا، وقد وصل حتى أعتاب فيينا فى عام ١٥٢٩م قبل الانهيار. بنهاية القرن التاسع عشر، كان الإسلام قد انسحب عائدا إلى الصحراء كرد لصدى هويته السابقة.

كانت المسيحية فى تلك الأثناء فى تصاعد جزئى بسبب قدرتها على التكيف مع العالم الحديث. من الممكن القول إن الإسلام فشل فى هجومه على المسيحية لكن مارتن لوثر لم يفشل. فالإصلاح، الذى قدم فى نهاية عصر النهضة، بدأ العملية الطويلة لتجريد ادعاء الكنيسة القصرى للخلاص المقدس. أوهن عصر التنوير تلك المجاهرة دافعا بها قدما، لأن معظم أوربا الغربية وأمريكا تبنت أفكارا دنيوية ليبرالية، تعليمات سياسية ديموقراطية مع تسامح دينى بالاسم فقط على الأقل فى قلوبهم.

ظلت المسيحية، حتى مع هذا التمزق والتفتت، كديانة قوية أو هكذا بدا عليها أنها أقوى من ذى قبل فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فقد هيمنت على أوربا، ومن خلال الاستعمار مدت تأثيرها الثقافى إلى أمريكا الشمالية، وأمريكا

الجنوبية، ومعظم أفريقيا، وأجزاء من آسيا والشرق الأوسط. بالنظر إلى ذلك بلغة حــروب الأديان التى للألفية السابقة، بدا وكأن المسيحية قد حققت انتصارا.

حطم القرن العشرون هذا الخداع. حربين عالميتين، نهاية الحقبة الاستعمارية، وارتفاع المد الثقافى للتعبير عن الذات حول العالم بدد كل الأحلام أن المسيحية يمكنها ببساطة أن تحكم قبضتها وتغتصب الحق فى منحها الخلاص إلى الأبد. أتت الديانات الأخرى مهاجمة من الخلف. فاليهودية، تراجعت لتصبح أقلية حول العالم وتقريبا تم محوها من وسط أوربا، حتى استعادتها للسيطرة على قلبها الروحى أورشليم، بالإضافة إلى معظم أرض الميعاد، التى لم تكن محتلة لتسعة عشر قرنا من الزمان.

اندفع الإسلام أيضا لبروز أعظم، وتقدم ليحتل مكانا أبرز. فمحرك الحداثة القابل للاحتراق، الذى دفع بالغرب ليصبح قوة أكثر عظمة من العالم الإسلامى، تحول ليدور بأكثر كفاءة بالبترول الشرق أوسطى. فتلك الحضارة، التى كانت قد بدأت فى الهلال الخصيب وتجنبت الصحراء بصورة واسعة، احتاجت فجأة للصحراء من أجل بقائها. حتى الزراعة اعتمدت فى ازدهارها على الفاكهة التى فى الرمال (البترول). جلب هذا الانقلاب سلطة وسطوة جديدة للشرق الأوسط وعزز الحكومات الإسلامية لتقوى شوكتها وينبت ريشها من جديد تلك الحكومات - إيران، والعراق، والسعودية - كانت لتوها تخلصت من المستعمرين الأوربيين. استعاد الإسلام قاعدة للسلطة من شمال أفريقيا إلى شمال شرق آسيا.

مع بداية القرن الواحد والعشرين، انتفت فكرة أن إحدى الديانات ستطفئ جذوة الديانات الأخرى وأصبحت خافتة أكثر مما كانت عليه قبل ألفى عام - أو من قبل أى وقت مضى. كانت الحرب من أجل الله تقترب من الدخول فى ورطة والوقوع فى مأزق. فقد كان العالم فى أمس الحاجة إلى نوع من التفاعل الدينى، متضمنا ليس فقط السيوف، والدبابات ولكن الحوار، والتفاعل، وفكرة التعددية، كما أشار اللاهوتى دكتور ريتشارد وود قائلا: "ما قد حدث، على الأقل فى الدوائر اللاهوتية، هو أن فكرة النصرة ماتت. لم يعد الناس حتى يسألوا السؤال. هناك بالطبع جماعة من الناس الذين لم يتفهموا الحسبة بعد، ولكنهم سيفعلون".

فبعد أربعة عشر قرنا من الرسالة المحمدية، وألفى عام من ظهور المسيحية، وألفين وخمسمائة عام من انبثاق اليهودية، وأربعة آلاف سنة من ولادة إبراهيم تجنح ديانات التوحيد الثلاث نحو وضع من الانفتاح - والمساواة - للترو والهدوء. أوجدت هذه الحالة لتلك القضايا تساؤلا للأديان لتفكر مليا فيه: هل يمكن بالفعل لأولاد إبراهيم أن يتعايشوا؟

بعد ست نقاط تفتيش وساعة تقريبا، اقترينا - أنا وناصر - من البوابة المدنية الضخمة الصفراء عند مدخل قرية أربع، المستوطنة اليهودية المحاصرة فوق التل فقط من قلب مدينة الخليل التى تحت سيطرة الفلسطينيين. يبلغ سكان قرية أربع (جدون) حوالى الستة آلاف نسمة. بينما يبلغ سكان مدينة الخليل حوالى مائة ألف ونتيجة لذلك، تعتبر كريات أربع واحدة من أكبر القواعد العسكرية شديدة الحراسة فى الضفة الغربية كلها.

اقترب من سيارتنا جندى إسرائيلى له شعر أحمر ويمسك بندقية إم ١٦. قام ناصر بإنزال زجاج نافذة السيارة، وسألنا الرجل عن هوياتنا. واضعا إصبعه على زناد بندقيته. سلمه ناصر أوراقا تكشف عن هويته وهى أوراق إسرائيلية تقول إنه فلسطينى، ونظر الرجل نظرة واحدة ثم ألقى بالأوراق فى حجر ناصر. وقال "اذهب" وأشار ببندقيته نحو الطريق التى أتينا منها. قال له ناصر "ولكن معى شخص أمريكى". لكن الرجل تركنا وكان بالفعل فى طريقه عائدا لمخفره.

نزل ناصر من السيارة وتبعه، لكن الرجل تحول وأصبح كأنه فى ساحة قتال، ودفعه للخلف بمقدمة بندقيته. واستمر الحارس فى الصراخ، "اذهب، اذهب".

اقتربت منا عربة صغيرة يستقلها مستوطنون إسرائيليون، وخرجت من السيارة وشرحت لهم رغبتى فى زيارة القبر. عرض على السائق أن يأخذنى معه إلى المدينة، ووافق ناصر على الانتظار. صعدت إلى السيارة من الخلف ومعى بعض الطلاب وسيدة عجوز. أخيرا فتحت البوابة الصفراء.

كانت قرية أربع جميلة بصورة مدهشة، مستوطنة مبنية على جانب التل، تطل على ممرات من الكروم وبساتين الفاكهة التى لو أمعنت النظر فيها لوجدتها تشبه

توسكانيا، مدينة فى وسط إيطاليا." بكل العشب المحترق فى النار. كانت الشوارع مرتبة ومنظمة، بأشجار الغردينيا (شجر مزهر، زهوره بيضاء أو صفراء)، وطيور الجنة ونباتات البوجانفيلاس (نبات أمريكى معترش) نام فى كل منطقة وعلى كل سطح ويوسم المبانى الجديدة بحجر جيرى حديث النحت فى كل ركن. كان يمشى رجل عجوز بصحبة كلب صغير بنى بذيل لولبى. كان فى المشهد سيدتان تدفعان عربتى أطفال. المكان يبدو جذابا، طالما أنك لم تلاحظ الأسلاك الشائكة والثلاث طبقات من الأسيجة.

ركن السائق سيارته وأخذنى إلى مكتب للشرطة حيث كانت حفنة من الرجال يحاولون أن يقرروا ما سيفعلونه بى. فقد تشاوروا، وتحدثوا فى جولاتهم، وتحدثوا بنبرات هادئة. أخيرا قرروا أنه يجب على أن أذهب وأنتظر بجوار البنك حتى يصل أتوبيس أو ترام ليقلنى إلى أسفل التل إلى مقبرة الآباء التوراتيين. قالوا لى: "لن تضطر للانتظار لأكثر من عشر دقائق" قلت: " لكن كيف لى أن أعرف أى ترام، وأى أتوبيس". قالوا: "لا تقلق، فليس هناك سوى اليهود ها هنا". مرة أخرى ما قصد من كلامهم هو التهدئة والراحة.

فى الأسفل بجوار البنك، كان هناك حفنة من السيدات منتظرات على (قارعة الطريق) الناصية. سألت إن كنت أقف فى المكان الصحيح. لم ينطقن ببنت شفة. اقتربت عربة محطمة، لوحن لها السيدات وكأنها تاكسى ثم ركبن داخلها. هل هذا هو الترام؟ تساءلت. أم الأتوبيس؟ لم يكن هذا ليهم، فليس هناك مكان لى على أية حال.

بينما تحركت السيارة سمعت خشخشة أوراق الشجر على رصيف المشاة. نظرت حولى ولاحظت أن الشوارع خالية. لم يكن هناك سيارات، ولا بشر ولا حتى كلاب. فجأة أصبحت قرية أربع هادئة، وأدركت أنى فى موقف واحد من أكثر المواقف التى كنت أتجنبها.

فقد كنت وحيدا.

كان رد فعلى الأول هو الخوف. فساحة الحرب أشبه بالصحراء، خطر ببالى، أنه لا يمكنك أن تعيش وحيدا. ولكن بنفس السرعة تلاشى الخوف ليحل محله

إحساس بالبرود والهدوء، مثل الشعور الذى ليد أمى على مؤخرة رقبتى عندما كنت طفلا مريضا. ربما كان مصدر هذا الإحساس ما قاله الرجال: إننى لم أزل فى منطقة يهودية. ربما كان مصدره ما قاله ناصر: عن الرزق والزواج والموت من عند الله. وأنه لاحيلة فى الرزق ولا شفاعة فى الموت.

أو ربما أتى من قضاء كل هذه الفترة الطويلة حول إبراهيم، وأجد الراحة فى الوحدة، فى الابتعاد والتغرب. رجعت بذاكرتى إلى يوم سن التكليف الدينى. هل هذا ما كان فى عقل والدى عندما حثنى قائلا "اذهب قدما" من المحتمل لا. ومع ذلك ها أناذا، شعرت بأنى محمى ومحفوظ بواسطته، وبهذا العمل المشهود.

بعد دقائق قلائل اقتربت سيارة تيوتا بيك أب أشرت للسائق بيدى، كما فعل النسوة من قبل. وقفت السيارة وأدخلنى السائق للداخل. كان عجوزا يرتدى (كباه) ولحية طويلة طالها الشيب. بدا وكأنه خشبة طافية على وجه الماء. لم يكن لديه مذياع ولا تكييف، كان التراب يغطى سيارته. واصل سيره نازلا تل النزاع، بمبان متناثرة ونقط حراسة كل بضع مئات من الياردات، لكنى لم أكن لأعرف ما أبحث عنه. سمعت طلقا ناريا من بعيد. نظر إلينا مجموعة من الشباب الفلسطينيين شذرا بينما مررنا بهم.

أخيرا وصلنا أسفل التل وساحة الحجر اللوحى الضخمة عند المدخل المؤدى للمقبرة التى يمكن فى الأعياد أن تستوعب عشرة آلاف شخص. شكرت الرجل ونزلت من السيارة. مرحبا فى حبرون، الخليل، قالت اللوحة. كانت الساحة خالية.

فى الأحد الأخير من شهر مارس عام ٢٠٠٠، قام البابا يوحنا بولس الثانى، بابا الفاتيكان، بزيارة تلك الساحة التى للحائط الغربى، مادا يدا مرتعشة ليلمس حجارتها، وكما هى عادة الزوار اليهود، دس ورقة مكتوب بها شىء لله فى شق من الشقوق. كانت الحجة التى قام بها البابا، هى أول زيارة يقوم بها بابا كاثوليكى للدولة اليهودية وقد تم الاحتفال بها بأيام من الصلاة البينية المشتركة، تمت صياغة كلماتها بعناية ورقة وبتفاصيل دبلوماسية، وبالضرورة تجاهل للنزاع. تم

النظر لتلك الزيارة من الكثيرين على أنها النقطة الأعظم والحدث الجلل فى تاريخ الحوار بين الأديان الموحدة. كانت صلاته المكتوبة، التى أخذت فيما بعد وتم وضعها على (ياد ف شم)[٣٥] أى فى متحف الهولوكوست فى أورشليم، أكثر البيانات الرسمية وضوحا حدثت وصدر، عن تلك المؤسسة.

يا الله إله آبائنا، لقد اخترت إبراهيم وأولاده لدعوة الأمم لمعرفة اسمك. إننا نشعر بعميق الحزن بسبب سلوك هؤلاء الذين ـ وعبر التاريخ ـ قد سببوا الألم والمعاناة لأولادك. أسألك الصفح والغفران، نأمل أن نأخذ عهدا على أنفسنا أن نحظى بعلاقة أخوية حقيقية مع شعب العهد.

المثل الأعلى أو الغاية من أنه كان يمكن للديانات الموحدة أن تعيش جنبا إلى جنب دون أن تعرض معتقداتها للخطر وبدون قتل إحداهما للأخرى لم تظهر سوى آثار باهتة فى التاريخ. لقد تمت مناقشة هذا الموضوع بواسطة كاردينال كوسا نيكولاس فى القرن الخامس عشر وتمت الإشارة إليه والتلامس معه فى مجمع ترنت فى القرن التاسع عشر. ولكن الفهم العالمى الحقيقى لم يبدأ بجدية وشغف حتى نهاية القرن التاسع عشر.

لقد تم إستخدام كلمة ecumene من الفرنسية والتى تعنى "كل سكان الأرض" لأول مرة فى العصور الوسطى لتعنى عالميا أو كونيا وتم تبنيها من الكنيسة الكاثوليكة مؤخرا لتشير ادعاءها بأنها تمثل العالم كله. وتم الاستيلاء على الكلمة من البروتستانت فى أواخر القرن الثامن عشر ليشيروا إلى رغبتهم لتوحيد العالم المسيحى مرة أخرى. أما كلمة ecumenical تعنى: عالمى أو مسكونى وتعرف بأنها "فوق الطائفية" وفى النهاية وصلت لتعرف على أنها "فوق أية ديانة معينة".

فى عام ١٨٩٣ بينما كان جزء من المؤتمر العالمى فى شيكاغو للاحتفال بالمئوية الرائعة لوصول كولمبوس لأمريكا، عرض محام يدعى تشارلز بونى دعوة أعضاء من الديانات الكبرى لحضور الحدث. يتم النظر إلى مجلس الديانات

(٣٥) ياد ف شم: كلمة عبرية تعنى نُصُب. وقد ورد هذا المصطلح فى سفر إشعياء ٥٦ : ٥ (المراجع).

العالمى باعتباره بداية التحاور بين الأديان. تبع هذا بأول مؤتمر تنصيرى عالمى فى إيدينبيرج فى عام ١٩١٠، أول مؤتمر للعقائد الدينية العالمى عام ١٩٣٣ وبعد الاضطهاد الدينى الذى ظهر جليا فى الحرب العالمية الثانية، ثم أول مؤتمر عالمى للكنائس فى جنيف ١٩٤٨.

الجزء المهم والنقطة الأهم، أن القوة المحركة خلف تلك الاجتماعات المبكرة كان البروتستانت الذين رموا إلى جمع الشمل للانشقاقات المتباينة فى المسيحية إلى إرسالية تنصيرية موحدة فى العمل والاعتراف. كشىء إضافى، كانوا يأملون فى توحيد المسيحيين مع المؤمنين من الديانات الأخرى - من ضمنها البوذية، والهندوسية، والديانات الأخرى - إلى ما أسماه المؤتمر العالمى عام ١٩٣٣، فى تحذير منبها على اللغة غير الحية الدائمة تلك التى تطارد تلك الحركة، "الوحدة الروحية لحياة أفضل كونية".

فى البداية رفضت الكنيسة الكاثوليكية الفكرة وطردت الحركة لأن "كل المسيحيين" أوجدوا فهما مزيفا لله. ولكن ثنائية كل من الهلوكوست، والكاثوليك الأمريكان الأثرياء الأكثر تعددية، فرضت التغيير. ففى مؤتمر الفاتيكان الثانى عام ١٩٦٢بم أصدرت الكنيسة مرسومها المسكونى الخاص لاستعادة الوحدة بين المسيحيين. مدح هذا المبدأ الجديد اليهود ورفع من شأنهم معتبرا إياهم "الشعب الأعز والأقرب "لله لأنهم تسلموا عهده أولا. حيا أيضا ورحب بالمسلمين لكونهم" يعلنون التمسك بإيمان إبراهيم وهم وجميعنا نعبد الله الرحمن الرحيم".

لم يسرع مؤتمر الفاتيكان الثانى فقط حوار الأديان ولكنه أعاد جملة وتفصيلا فحص اللاهوت الذى أعلن ليمحو القصرية الغاضبة التى للماضى. كما قال لى اللاهوتى المسيحى والتر بوجيمان من معهد اللاهوت فى جورجيا بولاية كولومبيا عندما سألته عن مشكلة النواميس والتعاليم المتصارعة و المتنافسة، وبصورة خاصة إبراهيم وتعدديته: "إنه لمن الشرعى والمنطقى للمسيحيين - وأقول هذا كميسيحى معترف - لسحب كل تلك التعاليم على المسيح. ومن حق اليهود الشرعى سحب تلك التعاليم عليهم، والشىء نفسه بالنسبة للمسلمين. لكن ليس من حق المسيحيين أو أى شخص أن يسلم بأن تعاليمهم هى السبيل الوحيد أو الطريق الأوحد.

الخطأ الذى فعلته السيطرة المسيحية هو العمل وكأن تأويلنا للناموس والتعاليم هى الطريق الوحيدة التى يمكن أن يتم تفسير التعاليم بها".

النقطة الأساسية هى على حد قول بروجيمان، التعرف على أن كل ديانة هى مغامرة تأويلية أو مجازفة تفسيرية، "لا ينبغى أن أقتل من أجلها، ولا ينبغى أن أموت فى سبيلها، ولكن يمكن أن أولى اهتماما بالغا لكيف أمكن لشخص آخر فعلها واستمتع أنه كانت لديهم أسباب تبرر ما فعلوه أيضا. ينبغى أن أكون ثنائى اللغة بصورة تكفى لملاحظة أن مصادرنا للتعليم وتفسيرنا وتأويلنا للناموس ليس هو المصدر الوحيد والشرعى الممكن للناموس.

لم يرحب كل شخص بتلك الأهداف، بالطبع، فقد قلق بعض اليهود من أن الحركة البيدينية ـ كالزواج بين الأديان والاستعياب بصفة عامة- ليس سوى طريق آخر لتقويض ديانتهم. قلق أيضا بعض المسيحيين من أن معرفة الحقيقة فى الديانات الأخرى من الممكن أن يقوض العلاقة الفريدة المتفردة بين الله والمسيح. أيضا قلق بعض المسلمين من أن التعرف عن قرب على أتباع الديانات الأخرى من الممكن أن يقلل من شأن محمد ويهز تفوقه.

تأملوا جميعا متفكرين، بروجيمان والآخرون، بأن النسبة بين المؤمنين الذين وافقوا على مبدأ تساوى وتكافؤ الأديان من المحتمل أن يصل فى مجموعه إلى ثلثى اليهود، ونصف المسيحيين، وثلث المسلمين. كما أشار اللاهوتى دكتور وود، يجب أن يتم التخلى عن فكرة النصرة تماما وبصورة كلية، "أن هذا شىء واضح ومعلن فى الإسلام اليوم أكثر من المسيحية، كما أنه معلن فى المسيحية بصورة أكثر من اليهودية. "كان الحاخام روزن أكثر تشاؤما، منوها على مقاومة العالم الإسلامى لتبنى الديمقراطية الليبرالية بصفة عامة. فقد قال: "أخشى أن المسلمين يتخلفوا عنا بمائتى سنة".

كما علق على ذلك الشيخ عبد الرؤوف، وهو كويتى وإمام مسجد فى نيويورك قائلا: "على معظم المسلمين أن يجربوا ويختبروا الفرصة الاقتصادية أو التعليم الكفؤ ليكونوا قادرين على فهم المثل الكامنة خلف التعددية والتعايش". بالطريقة

نفسها التى صاغ بها الكاثوليك الأمريكان المرسوم الثانى للفاتيكان" تأثير اليهود الأمريكان على اليهودية فى العالم بأفكار حديثة كالحركة الإصلاحية، على المسلمين الأمريكان أن يعيدوا تعريف الإسلام ليتضمن فصل الدين عن الدولة، وكذلك حقوق الإنسان. إن مستقبل الإسلام يقع فى الغرب، فى مجتمع مزدهر لمؤمنى الإسلام أصحاب الصوت القوى والعقل المفتوح.

بسبب ذلك التباين وتلك الاختلافات بين المؤمنين، بالإضافة إلى التركة الثقيلة من العداوة، فقد كافح وناضل أنصار حوار الأديان لإيجاد لغة مشتركة. فقد حاول البعض منهم شرح الخلافات والارتقاء فوقها وإعلان بيانات رسمية للقيم المشتركة. غالبا ما يمنح هذا الجهد تسابيح لحب الشخص لجاره، وليس قتل الناس، والنضال فى اتجاه" التوحد الروحى للحياة العلمية الأفضل". كما أخبرنى أستاذ هارفارد جون ليفنسون ٩٠٪، من حوار الأديان محض هراء.

ما دعا إليه ليفنسون، وكل من تحدثت إليهم عن تلك العملية، هو نوع مختلف من الحوار، حوار لا يقلل من الاختلافات بل إبرازها، حوار لا يتجاهل التنوع للوصول إلى الله والطرق المختلفة المؤدية إليه ولكن التأكيد على أن حتى فكرة الطرق الأخرى مقبولة. كما قال الحاخام روزن" يجب علينا أن نحافظ على الخلافات هناك، وأن نتعلم كيف نحترمها. فلكل ديانة طريقتها الخاصة والفريدة للوصول إلى الله. ولكننا نملك أيضا بعدا كونيا لتقاليدنا وتعاليمنا الدينية التى نتقاسمها، ويجب التأكيد على ذلك جيدا أيضا. تلك هى المهمة الملحة فى هذه الساعة.

ولإتمام تلك المهمة وإكمال الشحن، أدرك قادة حوار الأديان أنهم فى حاجة إلى شىء أكثر من الأمور الرسمية والشرعية أو المذاهب. كانوا فى أمس الحاجة إلى مصدر مشترك. فى حاجة إلى مؤسس تنظر إليه الديانات الثلاث جميعها بصورة متساوية، الذى يمثل قيم التوحيد بالله وصاحب السلوك البار نحو الإنسانية، والذى كان موجودا بالفعل قبل وجود الأديان نفسها.

كانوا فى حاجة إلى إبراهيم.

بدأت فى صعود درجات السلم نحو مدخل المقبرة، مبنى جليل ومهيب يشبه صليبا بين حصن وقلعة. تم بناؤه بواسطة هيرودس، الذى قام أيضا بتوسيع الهيكل الثانى، لدى البناء ذى الثلاثة طوابق إطارات حجرية فى حجم الثلاجات، وبرجين فى كل طرف، وله شرفات حول قمة محيط المبنى كله. كان هناك متعبد وحيد فى معطف أسود كان واقفا بجانب قاعدة الجدار، بينما كان حمار يتجول خلفه.

كان يقف عند المدخل حوالى دستة من الجنود الإسرائيليين خلف ساتر من أربعة محولات كهربائية معدنية غير مستعملة. أعلمونى أنه من غير المسموح لى الدخول إلى الضريح ومعى حقيبتى، وأنه يتحتم على أن أتركها فى مركز الزوار على الطريق حيث أنزلتنى السيارة. لكن كان من الخطورة جدا أن أعود أدراجى بمفردى، كما قالوا، لذا قام أربعة جنود مسلحين ـ أربعة ـ بحراستى ببنادقهم وخوذات الحرب هابطين الدرج الذى صعدته قبل قليل، انتظرونى حتى أترك حقيبتى. ثم رافقونى مرة أخرى إلى المدخل. قلت لهم آملا: "يبدو يوما جميلا هادئا".

بعد ثلاث مقابلات أمنية مع التفتيش، وواحدة للرد على بعض الأسئلة، أخيرا وطأت قدماى داخل الباب. مقبرة الآباء الأوائل والأمهات الأوليات تسمى الحرم الإبراهيمى باللغة العربية وفى العبرية Machpelah (المكفيلا) وتعطى معنى الازدواج، فى إشارة للزوج والزوجة المدفونين هنا. المبنى نموذج ثلاثى الأبعاد فى تاريخ العلاقات البيدينية. فقد بنى اليهود الضريح الأصلى؛ وأعاد المسيحيون البيزنطيون بناءه على شكل كنيسة؛ ثم أعاد المسلمون فى العصور الوسطى بناءه على هيئة مسجد.

على الرغم من إبعاد المسلمين لليهود أثناء حكمهم، فقد تركوا اليهود يصلون فى الجزء الخارجى، وهو تسامح نادر[٣٦]. عندما أصلح اليهود الموقع فى عام

(٣٦) لم يكن صحيحا أن تسامح المسلمين تجاه اليهود كان نادرا، بل العكس هو الصحيح. أى أن التسامح كان هو الأساس، والتشدد هو الاستثناء، ويدل على ذلك مدى مساهمة يهود العالم الإسلامى سواء فى المشرق أو المغرب فى جميع العلوم والمعارف، حتى إن اليهود أنفسهم أشاروا إلى عصر ازدهارهم فى ظل حكم المسلمين وخاصة فى الأندلس باسم «العصر الذهبى» (المراجع).

١٩٦٧، فقد سمحوا بالفعل لعناية المسلمين الدينية أن تحتفظ بمعظم السيطرة على المبنى ضد رغبة جناح اليمين الإسرائيلى. ولثلاثة عقود من الزمان كان اليهود والمسلمون يصلون جنبا إلى جنب، وهو الموقع الوحيد فى العالم الذى حدث فيه مثل هذا الشىء. بعد المذبحة التى قام بها المتطرف اليهودى دكتور باروخ جولدشتاين والتى راح ضحيتها تسعة وعشرون من المسلمين داخل المقبرة عام ١٩٩٤، تم بعدها تقسيم المبنى. نصفه تحت سيطرة المسلمين والآخر تحت سيطرة اليهود. وتتمتع لحل جماعة بالدخول غير المشروط بكل التسهيلات لما يقرب من اثنى عشر يوما سنويا رغم أن هذا الحل التقسيمى لم يرض أحدا بصورة كاملة، لكنه بالفعل يجعل من المقبرة نموذجا عمليا للتعايش ـ فوضوى لكنه فعال.

بصورة أو بأخرى دائما ما كانت حبرون (الخليل) تمثل الألم بسبب الكمال المفقود. إذ يقول التقليد اليهودى إن الحرم الإبراهيمى يقع فوق المدخل الذى لجنة عدن. ففى يوم من الأيام بينما كان إبراهيم يبحث عن حمل (خروف) مفقود جاء إلى كهف. رأى شعاعا من ضوء خارج من الكهف مصحوبا برائحة جميلة وشذى نفاذ. مشى إبراهيم متبعا مصدر الضوء، فالتقى آدم وحواء وعرف أنه أراد أن يتم دفنه هنا. بعد كل المفارقات والخلافات التى صاحبت حياته، يشتاق إبراهيم للعودة إلى أقدم مكان هوأكثر البقع وحدانية وتفردا على سطح الأرض، الجنة.

كانت الجنة بعيدة كل البعد فى هذا الصباح. وكان العبير الوحيد هو الضياع. القفر الذى لحجرات الصلاة والممرات الحجرية، والتى كان من الطبيعى أن تعج بالحركة والنشاط من العباد، كانت خاوية على عروشها. مشيت عبر الساحة المفتوحة فى الجانب اليهودى ونزلت درجتى سلم إلى الحجرة الصغيرة بين آثار إبراهيم وسارة. مكان الدفن نفسه تحت الأرض. يعد ضريح إبراهيم ضريحا صغير الحجم وتمت تغطيته بقماش أخضر قاتم وقابع خلف بوابات نحاسية مغلقة التى بدت وكأنها قشرة من المكان. الكتابات العربية القرآنية الزخرفية بالقرب من السقف.

تم تحويل الحجرة بين قبرى إبراهيم وسارة إلى معبد يهودى متداع للسقوط، بتابوت عهد متنقل، وكومة من كتب الصلاة، مزولة لوحة وقت بلاستيكية، وكرسى منمق للختان. تم دهان الحجرة بالأخضر والبرتقالى، وتدلى من السقف ثريا بدت وكأنها مدلاة فى ردهة دكينزية. كانت نصف المصابيح مفقودة. مع كل الأتربة، والكراسى القليلة المقلوبة المبعثرة، بدت الحجرة وكأنها سوق للسلع الرخيصة أو المستعملة.

التقطت أحد الكتب المقدسة وتحولت إلى سفر التكوين وفتحت الإصحاح الثالث والعشرين. فبعد قصة وثاق إسحاق بفترة قصيرة، تموت سارة وكانت حياتها مئة وسبعا وعشرين سنة "فى قرية أربع - حبرون الآن" يبكى إبراهيم سارة ويبكى عليها، ثم يكلم بنى حث الذين يعيشون فى المنطقة، قائلا: "أنا غريب ونزيل عندكم، اعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى". فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين: "اسمعنا يا سيدى أنت رئيس من الله أبينا. فى أفضل قبورنا ادفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك حتى لا تدفن ميتك". لكن إبراهيم يرد الهدية ويصر على شراء قبر، وتلك هى أول مرة بل المرة الوحيدة التى يمتلك فيها بصورة قانونية الأرض الموعودة من قبل الله لأولاده وأحفاده. ثم يقوم بعد ذلك بدفن زوجته.

يبدو دور إبراهيم واضحا جدا كأب أكبر للمنطقة فى الفقرات التوراتية الأخيرة فيما يخص حياته. فهو يشترى مدفنة لسارة، (نفس المكان الذى سيدفن فيه هو أيضا) من بنى حث، أناس من بلاد النهرين الذين يفترض أنهم هاجروا إلى كنعان كما فعل هو، سيرقد هو وعائلته مستريحين فى تربة ميسبوتاميه بديلة؛ كما سيكونون دائما غرباء فى أرض الميعاد. علاوة على ذلك، وبعد دفن سارة، يستمر فى الحياة ويتزوج امرأة تدعى قطورة وينجب ستة أطفال آخرين. يبدو أن إسم قطورة مشتق من Ketorey أو بخور، كما يبدو أن يربط إبراهيم بصورة أكبر وأعمق بالعرب لأن أسماء أولادهم كانت مرتبطة بأسماء الأماكن العربية الأخرى، مثل مديان وشبا.

أخيرا، فى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين يموت إبراهيم عن مئة وخمس وسبعين سنة. حقيقة أن إبراهيم مات فى عمر صغير جدا قياسا لآدم (تسعمائة وثلاثون عاما)، ونوح (تسعمائة وخمسون عاما) وأصغر حتى من تارح أبيه (مئتى وخمسة أعوام) توضح تلك الحقيقة تحول إبراهيم وانتقاله من مملكة المثل الأسطورية إلى بشر يمكن التعرف إليه واختبار مواقفه. فوق كل شىء أيضا، وبعد كل الأحداث الدرامية المصاحبة لحياته، يموت "بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياما" يموت فى سلام.

يعزز موته السلام، أكثر حتى من حياته. فعند دفنه، يأتى ولداه الأكثر بروزا وأهمية، المتنافسان والمتصارعان حتى قبل أن يولدا، المبعدان والمفترقان منذ الطفولة، جدا أمم متصارعة، يأتيان ولأول مرة معا منذ أن افترقا قبل ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن. يذكر النص الكتابى لقاءهما وتوحدهما دون تعليق. "ودفنه إسحاق وإسماعيل ولداه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا. الحقل الذى اشتراه إبراهيم من بنى حث".

لكن المعانى خلف تلك اللحظة لا يمكن إغفالها. فقد حقق إبراهيم فى موته ما لم يستطع تحقيقه فى حياته: لحظة المصالحة بين ولديه، لحظة يغلفها السلام، لحظة اشتراكية، جنبا إلى جنب فى خفقان من قلبيهما على احتمالية أنهما ليسا فى حالة من التنافس أو الصراع، أو محاربين، أو أعداء، أو أطفالا، أو يهودا، أو مسيحيين، أو مسلمين. إنهم إخوة. وهم أيضا مشيعون مكلومون.

إنهم يشبهوننا بصورة أو بأخرى؛ يبكون ونبكى إلى الأبد على الفقدان الذى حل بأبينا المشترك، متنقلين عبر ذكرياتنا المرة، معدلين آمالنا الطفولية، مبتسمين، ضاحكين، باكين، بغضب أو مملوءين بالحلم والأحلام، متعجبين ومتسائلين بشأن مستقبلنا اليتيم، سائلين عن إجابات نتوق لسماعها: ماذا كنت تريد منى يا أبى؟

وما الذى أفعله أنا الآن؟

إن الصرخة التى أطلقها أبناء إبراهيم عند موته هى الصرخة التى أطلقها أبوهم قبل ولادتهم: "العون يا رب!"

بينما كنت مستمرا فى القراءة دخل رجل فى منتصف العمر إلى الحرم المقدس الصغير. كان يرتدى قميصا أزرق فاتحا وبنطالا أزرق واسعا ويضع "كباه" على رأسه الذى يغطيه شعر أشيب. كان مشمرا عن أكمامه ويربط نبذ صلاة جلد حول ذراعه اليسرى. دفع بالكباه إلى الخلف ولصق ببذة مشابهة على جبهته. ثم أخرج كتابا صغيرا وبدأ فى التلاوة، منحنيا لمرات عديدة كما فعل، غير واع أو مدرك لى، متمتما وأحيانا متأوها عند تلاوته لسطور خاصة.

قال لى دانييل جينسبيرج بعد أن أنهى صلاته، ودانيل أمريكى وجاء للاستيطان فى أكثر المناطق الملتهبة فى قلب حبرون (الخليل) المتنازع عليها هى نفسها، على بعد خطوات فقط من المقبرة" "لا يمكننى القول إنى أشعر بقربى من إبراهيم فى كل مرة أصلى، ولكن أحيانا ما ينتابنى هذا الشعور. لقد قمنا باختتان أصغر أبنائى هاهنا، وكان شيئا خاصا جدا".

سألته كيف يساير الوضع . هل أنت خائف؟

قال: "ليست مسألة الخوف. فلو كنت خائفا فسيكون من الصعوبة بمكان عليك أن تعيش هنا على الإطلاق. ربما تشعر بقلق أكثر أو تكون معنيا أكثر، نعم، تكون واعيا أكثر ومدركا أكثر، نعم. تأخذ احتياطات أكثر، نعم. ولكن لا أعتقد أن تلك الأشياء يمكن ترجمتها لتتحول إلى خوف صرف. لكن لوكان هناك إطلاق نار فى الخارج، لن تخرج وتقول: "ها أنا!"

استمر فى حديثه قائلا: "هناك أكياس مملوءة بالرمال فى شقتى لأن تسعة وتسعين بالمائة من نوافذ شقتى تشرف على التلال التى يطلقون علينا النار منها. لذا فليس عندنا نور. عندما جلبت أكياس الرمل لأول مرة، أخبرونى أنه يكفى لو وضعت الأكياس على ارتفاع معقول. لذا تركت فتحة صغيرة لكى ما يمكننا الحصول على بعض الضوء فى الحجرة، ووجد أحد الإرهابيين الفتحة وقام بإطلاق بعض الرصاصات من خلالها وكاد أن يقتل اثنين من أولادى".

سألنى لماذا سافرت إلى حبرون (الخليل) فى وسط الحرب، وبدأنا النقاش عن إبراهيم. فمن ناحية، وكبداية فتحنا الكتاب على اللحظة التى قام إسحاق وإسماعيل فيها بدفن أبيهما. "سألته، أليست لحظة جالبة للأمل؟"

رد قائلا: "إن كنت تسأل ما إذا كان يمكن للمسلمين واليهود أن يعيشوا معا، فنحن لدينا مثال على ذلك، فقد عاش اليهود والمسلمون معا فى حبرون (الخليل) لمئات من السنين قبل قيام دولة إسرائيل. الطريقة الوحيدة لكى تعيش فى تلك الأرض هو أن تكون منفتحا بما يكفى لقبول أن نعيش معا".

"لذا هل يمكن أن يكون هناك حوار بين الأديان؟"(٣٧)

"بالطبع يمكن أن يكون هناك مثل هذا الحوار. على المستوى الشخصى، يمكن لأى شخصين مهما اختلفت عقائدهما أو مواقفهما واتجاهاتهما السياسية أن يجلسا معا، ويتناقشا بصورة حضارية، وربما حتى يخرجا بنتائج حضارية. ولكن تحويل ذلك ليصبح على مستوى قومى ...... لم يحدث قط. فأول كل شىء، دائما ما يبرز هناك تساؤل عن مدى إخلاص الناس المشمولين بالتحاور. فأنا لا أعرف ما يضمره فى قلبه. فلو نظرت للوراء لعلاقاتنا، فهم لم يعطونى قط سببًا واحدا للإيمان. لذا هل يمكن أن يكون هناك حوار؟ بالتأكيد، ولكن هبنى إيصالا. قل شيئا تلزم نفسك به. ثم تمسك بالتزامك لفترة قصيرة. لم يفعل العرب هذا قط. ادرس تاريخ المسلمين كله لن تجد أنهم فعلوها مرة واحدة.

شعرت بالثقل المألوف يقبض على حوارنا، الشعور نفسه الذى اختبرته قبل أيام قلائل خلال حوارى مع الإمام فى أورشليم الشرقية. هو الشعور نفسه الذى

---

(٣٧) الواقع أن القرآن الكريم هو النص الدينى الوحيد الذى يدعو إلى التحاور مع الآخر، كما أن الدين الإسلامى هو الدين الذى يقر ويعترف بالأديان والشرائع الأخرى سواء أكانت لها أصول سماوية أى وحى، أم كانت ديانات وشرائع وضعية فالقرآن منذ نزوله على النبى محمد اعترف باليهودية والمسيحية رغم ابتعادهما عن مصدرهما كما اعترف بعبدة الأوثان والنار. والاعتراف لا يعنى الإقرار بصحة هذه الشرائع والأديان، أما المسيحية فلم تعترف بالإسلام كدين إلا فى منتصف الستينات من القرن الماضى. كما أن القرآن وضع شروطا وأسسا لإجراء الحوار مع الآخر، وإن كان هناك تشدد من المسلمين، فالخطأ يقع عليهم، وليس على الإسلام، أقصد خطأ فهم النص الدينى وتفسيره تفسيرات متشددة، لا تتطابق وصحيح جوهر الدين الإسلامى (المراجع).

اختبرته لمرات عديدة، عبر سنوات طويلة فى المنطقة. كان الشعور بتبادل المواقع الذى يمهد الطريق للجدل والهجوم العنيف. لكن فى هذه المرة أيضا شعرت بشىء مختلف. شعرت أنه ما كان يجب على الاستسلام. شعرت أنى مدعوم بخبرتى وتجربتى الجديدة، بمعرفتى التى وجدتها أخيرا وهو أنه لكل ديانة جنوح مشابة نحو الشوفونية (المغالاة فى الوطنية). وشعرت بالثقة فى إيمانى الراسخ المتنامى أن مثل تلك الصلابة تحتاج أن لا تكون هى الطريق الوحيد.

سألته: "لذا هل تعتقد أن إبراهيم يصلح أن يكون الوعاء المناسب لهذا الحوار بين الأديان".

"إن كنت تريد أن تستخلص من القصص التوراتية إن كان بإمكاننا أن نعيش معا، أعتقد أنه من الواضح أن الكتاب يقدم لنا الصفات الشخصية لشعبين، وهناك مقولة قديمة تقول: "ما حدث للآباء سيحدث للأبناء" فالكثير مما تحمله صحيح، ولديهم سيوف مشرعة فى وجه كل أحد. واليهود سلبيون جدا، مثل إسحاق، الذى استسلم تقريبا للذبح بواسطة أبيه دون أن يفتح فاه. لهذا السبب هم يقتلوننا لأننا لا نرد على العنف"(٣٨).

بادرت بطرح سؤال آخر لكنى أحجمت. تنهد، ووضع كتابه فى حقيبته، وودعنى وخرج من الحجرة. وجدت نفسى وحيدا مرة أخرى، لم أكن متضايقا ولا خائفا. بل ولم أكن حزينًا. فلقد وصلت إلى مكان حيث أقف راضيا جنبا إلى جنب مع قبر إبراهيم. لم أكن فى حاجة للميل إلى الطائفية، والتطرف، والنقوص، والسلبية. أميل إلى الإذعان لرجال الكراهية، رجال اليأس والإحباط، والمستوطنين المتطرفين، وأئمة الإبادة. كان بإمكانى أن أصلى بنفسى، مع تناقضاتى الشخصية، بعقيدتى الخاصة، شعورى الخاص بعدم الإيمان، أحلامى الخاصة المرادة، فإبراهيم هو أبى أنا أيضا.

---

(٣٨) هذا الكلام يدل على مدى العداوة التى يكنها الصهاينة للعرب، وهى كراهية متأصلة فى الفكر الدين اليهودى (المراجع).

بعد سماعى لضوضاء، نظرت إلى الخارج فى الفناء. كان هناك طالبان فى حلل سوداء وأقمصة بيضاء متشابكى الأيدى ويتراقصان فى دوائر، ويغنيان بفرح. لأول مرة منذ الصباح، تملأ الموسيقى الهواء. تحول المزاج الجنائزى الحزين إلى فرح وأمل.. بينما كنت أراقب ما يحدث طار داخلا إلى الحجرة طائر (فرخ يمام) أبيض مرقط عند الرقبة. أبحر على الجدران، مرفرفا بجناحيه، مصطدما بالبوابات النحاسية، متألما، ثم حلق لأعلى الحجرة، مرفرفا بجناحيه أسرع فأسرع، دائرا فى دوائر كالأولاد فى الخارج، وبدا كأنه يدور حول الحجرة فى دوامة بينما كان يمتص الهواء لأعلى نحو جناحيه، محدثا صخبا وجلبة فى دوائر لا تنتهى، وباحثا، ومثابرا فى بحثه عما يعتقد أنه هناك: المخرج.

بعد أن غادر دانييل جنسبيرج، مشيت حول المقبرة لبضع دقائق، جلست مع بعض الرجال كبار السن الذين كانوا يصلون، وبعدها غادرت المكان. كان الجنود لا يزالون فى أماكنهم عند البوابة، يدخنون، كان جنسبيرج معهم، وعرض أن يقوم بتوصيلى إلى كريات (وعرض على أن يصحبنى إلى قرية أربع). (وفى الطريق التزم كلانا الصمت). قاد سيارته بنا صاعدا لأعلى عبر مدينة ديسنيفيد وعبر البوابة الصفراء حيث ناصر، الذى كان منتظرا فى سيارته، يشرب زجاجة كولا. قفلنا راجعين إلى أورشليم، كان الصمت هو سيد الموقف. لم أنظر حولى هذه المرة، لم أستطع أن أحصى آثار طلقات الرصاص ولم أحملق فى زجاج السيارات القاتم، وهى تمر بجوارنا. كنت أنظر فقط للأمام. فقد كنت أريد أن أكون وحيدا هذه المرة.

فى صباح الحادى عشر من سبتمبر، كنت أراقب من عمارتنا من الطابق السادس عشر انهيار برج التجارة العالمى الثانى وحتى سقط على الأرض، مخلفا جمرات متصاعدة وأتربة كالرماد فى مستوقد. وقفت مذهولا لا أقوى على النطق، لم أقو حتى على البكاء، فى شقة موقد جيران لم ألتقهم قط من قبل. فى عصر ذلك اليوم مشيت محازاة نهر هدسون، مرورا بمركز الترياج الذى كان فارغا لأن الجثث لم تكن قد جاءت بعد. قدم الآلاف من الناس غرض نفسه، بعضهم أزواج، وبعضهن كن يدفعن عربات أطفال. كان لون السماء برتقاليا

كالحريق، والهواء صاف. كان هذا قبل أن تتصاعد صافرات الإنذار والأدخنة والغازات الخانقة، من حركة الهواء الفاسد.

ومن هول الحادثة ظللت مثل الكثيرين معقود اللسان لعدة أيام، حيث انتشرت بسرعة أخبار الموت والقرب من الموت بين الأصدقاء عبر الهواتف، الصور المبتسمة لأحبة مفقودين بدأت تظهر على أعمدة الإنارة حول المدينة، وخطت الشموع الشوارع. ولم تزل الروائح باقية.

بمرور الوقت، كان الشعور الذى بدأ ينتابنى ويتصاعد فى داخلى هو الشعور بكونك قد تم انتهاكك، تم اقتحامك. إحساس مادى بأنك انتهكت وتم اجتياحك، الخوف. ثم حدث وتعرفت على هذا الإحساس واختبرت هذا الشعور. فهو شعور يحسه الشخص كل يوم فى الشرق الأوسط - إحساس الرعب، والكبرياء والارتباط بالمكان. فقد كان الحادى عشر من سبتمبر، هو اليوم الذى جاء فيه الشرق الأوسط إلى أمريكا. فرقعة الأرض الصغيرة التى هى الهلال الخصيب التى كانت مهدا لأعظم الديانات الموحدة فى العالم، ومن خلالهم، للحضارة الغربية، قد غزا الآن أقصى جزء فى الأرض، وهى أرض تخلصت من التوترات من زمن طويل.

كالشرق الأوسط، تم تشكيل أمريكا من خليط من السياسة والدين والجغرافيا. وقد ردد الآباء المؤسسون صدى لغة إنجيلية عند الحديث عن الولايات المتحدة كمن حصل على "عهد من الله" موضحين أن أمريكا ستصبح "أرض ميعاد جديدة" ستكون أمريكا صخرتها الخاصة. ولفترة طويلة، آمن الأمريكيون بأنهم فى أرض الميعاد يعنى أننا واقفون بمعزل عن العالم. الآن نعرف العكس. امتد الشرق الأوسط بنظامه إلى الولايات المتحدة.

السؤال الأول الذى سأله الأمريكان بعد الهجوم هو، لماذا يكرهوننا كل تلك الكراهية؟ بدا الناس مشوشين بسبب عدم معقولية الفعل. ومن المؤكد، أن الحقيقة الأولى التى يواجهها الإنسان كل يوم فى الشرق الأوسط هى عدم المعقولية وغياب المنطق. فالكراهية هى شعور يومى، والتطرف يحدث على مدار الساعة.

والآن تأتى هذه اللامنطقية بهدية غير متوقعة. فالشرق الأوسط ليس سوى مهد الله. عندما لا تعقل الحياة أو المال أو المعقول، أو وصولات شباك التذاكر، فيجب أن يتم التعرف عليها بشىء غير معقول. هذا الشىء هو الروح. ففى أمريكا بعد الحادى عشر من سبتمبر، انسحب الناس إلى ملاجئ روحانية عاطفية: علم، أسرة، إيمان. بكى رجال ناضجون فى التلفزيون الوطنى. كان هناك تمجيد مفاجئ للامعقولية، لعاطفة فجة، ناجمة عن كونك غير قادر على تفسير الأشياء.

أصبح من المألوف أن تقول هذه الاستجابة كانت أمريكية كلاسيكية. بينما من الممكن أن يكون هذا حقيقيا، فالمظهر الأعمق لتلك الأمركة هى عاطفيتنا، وقبليتنا، إدانتنا لكوننا دعينا لغرض أسمى، وفوق كل شىء، شعورنا برابطة وعلاقة حميمية بين أرضنا والله. فقط عندما نفهم ذلك عن أنفسنا يمكننا أن نفهم بحق ما نواجهه من خصومنا حول العالم.

وأدركت أخيرا بعمق وشدة احتياجى لأن أفهم عمق انعدام الثقة بين الأديان الموحدة، وأنى كنت أحتاج لأفهم كم كانت متصلة بكتل البناء الأساسية التى لهويتى - لجغرافيا، الأسرة، الإيمان. لقد أتيت لأنى شعرت بالكراهية أنا نفسى، ولأنى كنت فى حاجة لأن أعرف إذا كانت جذور هذا الشعور أمسكت أيضا وحملت فى جنباتها الاحتمالات والإمكانيات للانسجام. لقد أتيت لأنى كنت فى حاجة لأن أكون وحيدا، لأنى فى كل نقطة تحول فى حياتى، فقط عن طريق الهروب والابتعاد عن كل ما هو حولى أستطيع أن أصل لفهم نفسى - ومعضلتى - فهما أفضل.

وفوق كل شىء، أتيت لأنى كنت فى حاجة لملاذ وملجأ، كنت أحتاج أن أصدق أن الله المحب، الذى رتب للتضحية من أجل الإيمان، والذى آمن بالسلام لم يتحول ليصبح بصورة أو بأخرى متضاربا. كنت أحتاج أن أعرف أن الشعور بالقلق مع ذلك مملوء بالرجاء بالعودة إلى أنفسنا الأولى.

كنت فى أمس الحاجة لإبراهيم.

ولقد وجدته ـ ليس فى الكتب، ولا فى قادة الأديان، ولا فى المقابر أو الكهوف. ليس فى أى مكان محدد على الإطلاق. وجدته فى كل مكان، بمعنى من المعانى، أو بصورة من الصور، عندما شرعت فى تلك الرحلة فى البداية، كنت مؤمنا أن إبراهيم موجود فى مكان ما غامض وخفى ومستور. كان الرجاء الإبراهيمى العظيم فى الخارج هناك، واحة فى مكان ما فى أعماق الصحراء الموغلة فى القدم، وكل ما كان علينا فعله هو تعقبه إلى هناك، وكشف حجابه وستره للعالم أجمع، وأحفاده سيعيشون فى انسجام أبدى، يرقصون رقصة الـ Kumbaya حول نار المخيم.

أدركت، أن الواحة لم تكن إلا سرابا.

لكن إبراهيم ليس سرابا. إبراهيم كالماء، هذا ما آمنت به وصدقته، ولكن ليست الواحة التى كنت أعتقد فيها أصلا. إنه بحر شاسع من المياه الجوفية الذى يمتد من الفرات إلى النيل، ومن أورشليم إلى مكة، ومن قندهار إلى كنساس سيتى. إنه حاضر دائما، نبع منساب دائما وأبدا، ذلك النبع الذى يمثل الرغبة الأساسية التى لدى كل الناس لتشكيل وحدة مع الله. إنه التجلى الجسدى للشوق الأساسى لأن تكون منزلا من مصدر إلهى مقدس وحفيدا له. إنه التجسيد الذى للحاجة البيولوجية التى نتقاسمها جميعا لنشعر بالأمان والحماية من شخص ما، أو شىء ما، أو أى شىء.

لقد بقى النبع الأبدى الذى للقيم والمثل الإبراهيمية تحت سطح العالم لطالما ظل الناس يخبرون أنفسهم ويروون القصص عنه. وكل جيل ـ فى لحظات الأفراح أو الأتراح ـ قد نهل من إبراهيم واستخلص منه الدروس. اختار كل جيل إبراهيم المناسب له.

ونحن، أيضا، يمكننا أن ننهل من النبع القابع نفسه تحت الأرض ونستخلص شخصا يتماشى مع عصرنا. يمكن أن نستدعى مخلصنا الخاص بنا من الرمال، وبفعلنا لذلك نقرب أنفسنا إلى الله. يمكننا أن نترك، كإبراهيم، أوطاننا ـ وأماكن راحتنا، وحتى تقاليدنا النظرية ـ وننطلق إلى مكان غير معروف، التى ربما تكون

أبعادها يعلمها الله فقط والتى ربما يجب أن يوضع أمرها الشرعى فى مكان حيث بركة الله توهب وتوعد للناس أجمع.

باختصار، يمكننا أن نخلق إبراهيم رقم مائتين وواحد وأربعين.

ويجب أن نفعل.

لذا ما الشكل الذى يجب أن يكون عليه إبراهيمنا؟ بداية، يجب أن يشبهنا. يجب أن يكون مخلوقا من العالم الحديث، على دراية بعدد عقليتنا المطحونة - عدد الناس الذين قتلوا، وعدد الناس الذين هم تحت الاحتلال ٩ - ١١، ١٩٤٨ - ١٩٦٧، يجب أن يكون طالب عصرنا، عالما كطالب ذكى فى العصر الحديث أن الكثير من الناس الآخرين ممن يحملون اسمه يطوفون العالم مهرولين محدثين الدمار والخراب باسمه الكريم.

ولكن أهم ما يجب أن يجسده هى القيم السامية الصالحة لكل زمان ومكان التى مثلها لأكثر من أربعة آلاف سنة. إبراهيم الذى أريده هو إبراهيم الذى يخشى الله، ولكن أيضا لا يخاف من الله. إبراهيم هذا هو الجوال الهائم، رجل الحدود والمجابهة، الذى يتم إعداده ليترك الراحة والاستقرار بين أهله وعشيرته وفى بيت أبيه، من أجل العائلة التى يريد خلقها، والذى يعترف أنه ليس بإمكانه أن يفعل هذا بمفرده ولكنه يريد شراكة مع الله لكى يحقق ذاته بصورة كلية كاملة. وهذا الإبراهيم، ولكونه سلم حياته لله، عندها كان معدا لتحدى الله، ليجعل الله يجدد التزامه ووعده لحماية البشرية.

إن إبراهيم الذى أتوق إليه هو الذى سيكون الجسر بين البشرية والقداسة، الذى يوضح المثال لما يعنيه أن تكون مؤمنا مخلصا ولكن أيضا الذى يسلمنا بركة الله على الأرض. وهذا الإبراهيم ينقل نعمة الله عبر أولاده، عبر إسماعيل، عبر إسحاق، ثم الذى يملك الكثير من القداسة لم تزل متروكة لدرجة تمكنه أن يتصدق ببعض منها على كل أعضاء أهل بيته، ومن ثم لأولاده من زوجته الثانية. وهذا الإبراهيم يكون عالما بما يكفى لأن يعرف أن أولاده لن يتبنوا دائما ولن يحتضنوا الكمال الذى لبركة الله، لن يرقصوا بلا نهاية رقصة الـ kumbaya

حول نار المخيم.. سيحاربون، ويقتلون، ويطيرون بالطائرات مخترقين المبانى لتفجيرها، ويرسلون القنابل ويزرعونها هنا وهناك، فى المدارس، وبصفة عامة يحاولون تشتيت كرم الله وسماحته.

لكن هذا الإبراهيم يؤمن، ضد كل العقائد، أن أولاده مازالوا يطلبون وجه الله. ما زالوا فى حاجة للراحة من شىء أعظم منهم، ما زالوا يتشبثون ببعض الوميض الذى للبشرية، مازالوا يحلمون بلحظة عندما يقفون جنبا إلى جنب، أحدهما بجانب الآخر ويصلون من أجل أبيهم المفقود ومن أجل التركة وميراث السلام بين الأمم الذى كان أول أمر شرعى من السماء.

هذا الإبراهيم ليس يهوديا، ولا مسيحيا، ولا مسلما. ليس كاملا، ولا قديسا، ولكنه هو نفسه، الإناء الأفضل والوعاء الأمثل الذى نمتلكه، أبو الجميع.

لن يكون هذا الإبراهيم هو إبراهيم الوحيد. لن يكون آخر الإبراهيمين. ولكنه إبراهيم اليوم، إبراهيم هذا العصر.

وهو الذى أختاره

البركات

أود أن أشكر العشرات من الناس الذين وردت أسماؤهم فى هذا الكتاب لاستقطاعهم من أوقاتهم الثمينة من أجل مناقشة تلك الموضوعات شديدة الحساسية دائما بصورة منفتحة، وبأمانة، وصراحة. فقد ساعدنى أفنر جوردن فى تصميم هذه الرحلة ورعى الكثير من أفكارها لتكون مثمرة. أما من قدموا لى يد العون فى الشرق الأوسط فإنى مدين بالشكر للأنسات كوهن، وسمدار جورين، ويوسى كلين هاليفى، وإديث صباغ، والحاخام بارنيا إسليفان، وجوناثان ستينبيرج، وفى الولايات المتحدة تلقيت نصيحة وإرشادا من اللاهوتى توماس بريدينثال، والحاخام أبراهام كوهين، وإديلا كولينر، وجون إيسبوسيتو، وروبرت فرانكلين، وميلفين ماير، وروبن وشيمون نيوستين، وسارة بوينيسافانت وإلسى ستيرن.

دافيد بلاك هو صديقى، ومشيرى، وشريكى المحترف. كما انضم إلينا فريق بارز يتكون من ليغ آن إلسيو، وجارى موريس، وسوزان رايهوفر، وجاثون ساكر، وجوى توتيلا.

اهتمت تاريش جرادر والتزمت بعمق بهذا المشروع وساعد فى تشكيل وصياغة مساره الفكرى العقلى والعاطفى. كما كانت جانى فريدمان، وكاثى هيمنج، ومايكا موريسونثابتون راسخين فى دعمهم والتزامهم غير المهتز. أيضا ليزا جالاغر وكثيرون من الناس أصحاب المواهب فى هاربر كولينز/ ووليام ماروو، الذين عملوا بلا كلل أو ملل بجانبى وبإعطائى منزلا كم كنت أشتاق له. ديدى ستير وشارين

روزينبلم، مع ديدى ديبارتلو، وتارا براون، وكلير جرينسبان جميعهم كانوا مكرسين ومسرورين ومحترفين. وشكر خاص لبيتى ليو، وسارة دوراند وأنجيلا تيدسكو.

أما بيث ميديلوورث فهو رائع كمصمم وكإنسان.

من أجل تسامحهم وصداقتهم الحميمة، فأنا أشكر روث ريشل، ودكتور ويلوفبى، وخاصة جانى لير، الذين بعلمهم الواسع وحساسيتهم حسنوا هذا الكتاب بصورة كبيرة.

كما دفعنى بقوة وسماحة كارين ليهرمان إلى مستويات أعلى. كما سمح لى بن شيروود بكل ود أن أسافر معه جنبا إلى جنب وفى طرق متشابهة. ولجعل هذا العمل ممتعا كما هو مأمول، تم الإيحاء لى عن طريق كارين إيسيكس، ودافيد شنك، وجو ويسبرج. الشكر الدائم أيضا للورا بينجامين، وسوزان تشاميسكس، وسوزى لاند، ودانا سادى، ولورتن شنيدر، وجيف شوملين، وديفون سبيرجون، وتيريزا تريتش، وجانى فون ماهرن، وبوب ونش.

ستعرف ليندا روتينبيرج فقط إسهاماتها عميقة العلم والعاطفة والمؤسسة لحكمة شخصية والتى أشكرها كثيرا لإفادة العمل.

ستستمر عائلتى تحثنى وتدفعنى وتدعمنى وتطلب المزيد منى. فأنا دائما ما أسافر محمولا على أكتافهم مع قلوبهم فى قلبى. كما أشكر أخى على مساعدته الكبيرة فى تصحيح هذا العمل.

لما يقرب من عشرين عاما وهبنى الله صديقين بذكاء لا يبارى وكرم لا يضاهيه كرم. فقد التقيت بجيسيكا كورن وماكس ستير فى الأسبوع نفسه، بالضبط منذ نصف عمرى الماضى، منذ أن شرفت بنبلهم وقوة إرادتهم، هذا العمل تكريس لجهودهم.

القراءات

من المؤكد أن إبراهيم هو أحد وأهم الشخصيات الذين كتب عنهم فى التاريخ. لقد حاولت أن أقرأ قراءات واسعة فى الكتب الأدبية المتراكمة التى تناولته عبر القرون؛ ما يلى ليس ببليوغرافيا شاملة ولكنها ذاتية، قائمة مفصلة مشروحة بالمصادر التى استشرتها، بتركيز خاص على تلك المصادر التى اعتمدت عليها بصورة كبيرة.

فى البداية هناك ملحوظات قليلة أود أن أشير إليها فقد استخدمت اختصارات غير شائعة، لقبل الميلاد استخدمت الاختصار (B.C.E) وبعد الميلاد استخدمت لاختصار.(C.E) .

من أجل الاتساق، كل الاقتباسات والشواهد من سفر التكوين والكتب الخمس الأولى من التوراة مأخوذة بنصها من التوراة ترجمة حديث (نيويورك ١٩٨١) حرره دبليو كانثر بلوت. اقتباسات من باقى كتاب العبرانيين مأخوذة من الأسفار العبرية، الترجمة الجديدة جى بى إس (فيلادليفيا١٩٨٥). الاقتباسات من العهد الجديد مأخوذة من الكتاب المقدس المنشور بواسطة مطابع جامعة أوكسفورد (نيويورك، ١٩٨٩) الآيات من القرآن من نسخة كتب بنجوين، الترجمة المراجعة بواسطة إن جى داود (لندن ١٩٩٧).

المراجع الأخرى التى رجعت إليها هى Bible dictionary the six volumre Anchor بالإضافة إلى الرفيق الأكسفوردى للإنجيل، الرفيق الكامبريدجى للإنجيل، والقاموس التاريخى للإنجيل.

صخرة إبراهيم

استقيت معلومات كثيرة معتمدا من كتب سير مختلفة تناولت إبراهيم، خاصة كتاب "إبراهيم" بواسطة كارل جوزيف Abraham,by Karl- Josef Kuschel وإبراهيم فى التجربة Abraham On Trial by Carol Delany بواسطة كارول ديلانى. تمت مساعدتى أيضا بواسطة مقالات الأنثولوجى عن قصص الآباء الأوائل. حرره إى أر ميلارد ودى جى وايزمان؛ العقائد الإبراهيمية بواسطة بول بيشى. وجورج ميكلين وجون كروموكوسكى؛ وإبراهيم والعائلة، حرره هيرشل شانكس.

الصخرة بواسطة كانان ماكيا؛ وهى رواية ساحرة تضم الكثير من الأساطير عن الحرم الشريف، دراسات بعنوان، القداسة والدناسة. والأسطورة فى رموز الدين. والواقع بواسطة ميرسيا إلياد.

إله إبراهيم

تعليقات عن حياة إبراهيم المبكرة يتم جمعها فى كتاب رائع "الإنجيل كما كان" بواسطة جيمس كوجل والأساطير اليهودية بواسطة لويس جينزبرج. ذهبت قدما فى الاستخلاص من الروائع التفسيرية: الله بواسطة جاك ميليس والتكوين بواسطة أفيفا زورنبيرج. استمتعت أيضا بالأب الأول، والدراسة السيكولوجية لإبراهيم لهنرى هانوش غبراموفيتش.

هناك الكثير من الدراسات المساعدة عن الإسلام، بما فيها واحدة لكارين أرمسترونج، وجون إسبوسيتو، وجون كالتتر، والفريد هيوستن سميث، والذى يعد كتابه "ديانات العالم" كتابا ومرشدا لا يمكن الاستغناء عنه.

أولاد إبراهيم

تم استكشاف العلاقة بين إسحاق وإسماعيل ببراعة فى كتاب نصوص الرعب لفيليس ترايبل. أطلعت أيضا على تعليق على نساء الكتاب لكارول نيوسوم وشارون رينجى.

هناك العديد من الاختبارات لقصة الوثاق وعلاقتها بمختلف الأديان، بما فيها الـ akedah للويس بيرمان والوثاق وتحولاتها فى اليهودية والإسلام لميشال ماسوارى كاسبى وسايشا بنجامين كوهين. الدراسة الرائدة لشالوم سبيجيل عن التقليد اليهودى من أن إبراهيم ربما يكون قد قتل إسحاق هى المحاكمة الأخيرة. العمل الرائع للمقارنة بين التفسير اليهودى والإسلامى وهو رحلات فى الأراضى المقدسة.

لقراءة حميمة لقصة إبراهيم جملة وتفصيلا، وتحليل رائع عن العلاقة بين إبراهيم لليهودية المبكرة والمسيحية، كما أوصى بقوة كتاب الموت والقيامة للابن المحبوب لجون ليفنسون.

شعب إبراهيم

استجوابات معينة لليهودية الأولى تتضمن تاريخ إسرائيل لجون برايت، وأولاد رفقه لألن سيجال. كما اعتمدت كثيرا على كتاب فيلوس، مكان فى اليهودية، ودراسة صامويل ساندميل عن دور إبراهيم فى الأدب اليهودى، بالإضافة لمسحه الشامل فى كتابه الفهم اليهودى للعهد الجدبد.

تمت مناقشة دور إبراهيم فى المسيحية بعمق شخصية إبراهيم فى رسائل بولس لروى هاريسفيلى وحرمان اليهود من الميراث لجيفرى سايكر. استفدت كثيرا أيضا من دراسات عن بولس لساندرز وإن تى رايت وسى كى باريت.

تمت مناقشة دور إبراهيم فى الإسلام فى "بذرة إبراهيم لرافاييل باتاى بالإضافة إلى الحج وأولاد إبراهيم لإى إف بيترس. راجعت أيضا مجلدات بيتر الثلاثة اليهودية، المسيحية، والإسلام. لقد درس برنارد لويس العلاقة بين الأديان فى أعمال كثيرة؛ ولقد استفدت كثيرا من كتاب الشرق الأوسط، يهود العالم الإسلامى، والسامية ومعاداة السامية.

دم إبراهيم

لقد تم استكشاف العلاقات بين الأديان فى القود الحالية بواسطة كارين أرمسترونج فى كتابها معركة لأجل الله، وصامويل هانتنجتون فى كتابه صراع

الحضارات . تمت مناقشة حوار الأديان بصورة موسعة فى إيمان أوسع لماركوس برايبروك، وكتاب أرض واحدة وأديان كثيرة لبول كنبتر، بالإضافة إلى الدراسة المعنونة طبيعة العقيدة لجورج ليندبيك. كما كتب يوسى كلين هاليفى دراسة شخصية رائعة عن العبادة بين الأديان المختلفة فى إسرائيل، على مدخل جنة عدن.

من أجل الاستمرار فى الحوارات التى بدأت فى هذا المشروع ، هناك معلومات أكثر متوفرة وتعليقات، واستفسارات وملاحظات........................ ما يدل على أن إبراهيم لم يزل قابلا للمناقشة بل وتتم مناقشته بصورة واسعة هذه الأيام ربما يكون هذا أفضل دليل من كل الأدلة أن الوعد ببركته له صلة دائمة ـ وقوة لا تقهر للإلهام.

المؤلف فى سطور:

بروس فيلر

ولد فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٤ فى سافانا بولاية جورجيا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهو كاتب أمريكى مشهور بكتاباته العديدة عن الإيمان والأسرة كما أنه يعكف على كيفية البحث عن معان جديدة لحياتنا اليومية وقد حققت تسعة من كتبه أفضل مبيعات منها الإنجيل المعاش وإبراهيم ونبى أمريكا.

يكتب فيلر للعديد من الصحف والمطبوعات بما فيها ذا نيو يوركر (The New Yorker) والنيو يورك تايمز (The New York times Magazine) ومجلة جورميت (Gourmet Magazine) وقد فاز بثلاث جوائز لجيمس بيرد. يعيش فيلر فى نيويورك مع زوجته ليندا روتينبيرج (Linda Rottenberg) وابنتيه التوأم، درس فيلر فى جامعة يال وذلك قبل ذهابه إلى اليابان لتدريس اللغة الإنجليزية هناك وقد أثرت رحلته إلى اليابان فيه جدا ونتج عن هذا التأثر كتابه الأول تعلم الانحناء (Learning to Bow) وفيه يرسم صورة عن الحياة فى قرية يابانية حصل بعد عودته على شهادة الماجستير فى العلاقات الدولية من جامعة كامبريدج فى المملكة المتحدة وهو يركز فى كتاباته على المقارنة بين الأديان بهدف المقاربة.

المترجم فى سطور

نشأت باخوم

مدرس لغة إنجليزية، حاصل على شهادة الليسانس فى الأدب الإنجليزى، وله محاولات طيبة فى كتابة الشعر، ترجم ثلاث مسرحيات هى «تتمسكن حتى تتمكن» لأوليفر جولد سميث، و «الغنيمة» تأليف جوى أورتون، و "رابطة الدم" لأوتول فيوجارد ثم مسرحية «طرطقة الجليد» لدافيد بنر، بالإضافة إلى كتاب «صورة مصر» ـ بالتعاون مع المركز القومى للترجمة.

المراجع فى سطور:

أحمد محمود عطوة هويدى (أحمد هويدى)

- من مواليد محافظة الدقهلية.
- حاصل على ليسانس الآداب الممتازة، قسم اللغات الشرقية - كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٩.
- حصل على درجة الدكتوراه بنظام الإشراف المشترك بين جامعتى القاهرة وبرلين الحرة، مايو ١٩٨٧ - سبتمبر ١٩٨٩.
- حصل على مهمتين علميتين فى جامعة برلين الحرة يونيو ١٩٩٠. سبتمبر ١٩٩٠، ثم يوليو ١٩٩٢. يناير ١٩٩٣.
- يعمل حاليا رئيسا لمجلس قسم اللغات الشرقية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، أبريل ٢٠١٠.
- التخصص العام: الدراسات الشرقية.
- التخصص الدقيق: الدراسات اليهودية والاستشراق.
- نشر الكثير من الأبحاث العلمية فى الدوريات العلمية فى مجال الاستشراق والدراسات اليهودية.
- نشر الكثير من المؤلفات فى مجال الاستشراق، ودراسات العهد القديم وتاريخ اليهود وحضارات الشرق الأدنى القديم، من هذه المؤلفات:

١. معالم تاريخ الشعوب العربية القديمة (بلاد الرافدين - سوريا وفلسطين - الجزيرة العربية) القاهرة - دار الثقافة العربية (٢٠٠٥).

٢ـ المدخل إلى الاستشراق ومدارسه، القاهرة ـ دار الثقافة العربية (٢٠٠٦) .
٣ ـ أسفار العهد القديم : مدخل نقدى، دار الثقافة العربية (٢٠٠٧) .
٤ ـ تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى نهاية العصر اليونانى، دار الثقافة العربية (٢٠٠٧) .
٥ ـ تاريخ يهود العالم الإسلامى (من ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الفاطمى) ، دار الثقافة العربية ـ ٢٠٠٩ .

ـ ترجم بعض الأعمال من اللغة الألمانية وكذلك من اللغة العبرية منها:
١ ـ الاستشراق الألمانى : تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلية (من الألمانية) .
٢ ـ الأثر الإسلامى فى التفاسير اليهودية الوسيطة (من العبرية) .

ـ رأس تحرير رسالة المشرق التى يصدرها مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة .

ـ أسس ورأس تحرير مجلة دراسات شرقية ويابانية التى يصدرها مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة.

ـ شارك فى كثير من المؤتمرات المحلية والدولية داخل مصر وخارجها.

التصحيح اللغوى: محمد عبدالمحسن

الإشراف الفنى: حسن كامل